كاملة شمسي

الصديقتان

رواية

مكتبة ياسمين

ترجمة

الحارث النبهان

التنوير

اختارته كل من "*The Guardian*" و"*Observer*" و"*Daily Mail*" و"*Financial Times*" و"*Irish Times*" أفضل كتاب لسنة 2022

***

من المؤلفة المشهود لها صاحبة رواية «نار الدار»، هذه قصة عن صداقة عُمرٍ كامل وعن القوى التي تبلغ بها نقطة الانهيار.

كانت زهرة ومريم صديقتين حميمتين منذ طفولتهما في كراتشي مع أنهما -بل ربما لأنهما- تكادان تكونان مختلفتين من كل ناحية. مع هذا فهما لا تتكلمان أبدًا على الاختلافات بين خلفيتيهما وقيَمهما حتى بعد الليلة المشؤومة عندما أدت واحدة من اندفاعات المراهقة إلى قلب خطط المستقبل رأسًا على عقب.

بعد ثلاثة عقود، صارت زهرة ومريم امرأتين نافذتين، شقّت كل منهما طريقًا متميزة في لندن. لكن ظهور شخصيتين مقلقتين من ماضيهما يجعل لزامًا عليهما أن تواجها اختلافاتهما العميقة كي تعرفا إن كانت صداقتهما قادرة على الحياة والبقاء.

تقدم هذه الرواية الحسّاسة، المحرضة على التفكير، العامرة بانعطافات غير منتظرة تناولًا ساحرًا لسؤال قديم جدًا: هل يستطيع الإخلاص، وهل تستطيع المبادئ، التعويض عن صداقة حميمة؟

***

"كل رواية جديدة لكاملة شمسي تستحق أن نحتفي بها، لكن هذا العمل أمر مختلف: رواية ملحمية تستطلع ما يكون في صداقة الطفولة من روابط، وإمكانية النجاة، وكيف يقتحم عالم السياسة ما هو شخصي، وذلك كله من خلال بطلتين مرسومتين بقدر كبير من الدقة"

Observer, Books of the year, 2022

"رواية عميقة عن الصداقة. أحببت تفاصيلها كلها"

Madeline Miller

عمل متقن لامع عمًّا في الصداقة المديدة من احترام وقلة احترام وإخلاص وأخلاقيات"

Ali Smith, Guardian Summer reading

دراسة حميمة للروابط التي تجمعنا"

Stylist

مكتبة ياسمين

التنوير
daraltanweer.com

t.me/yasmeenbook

كاملة شمسي

الصديقتان

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

ترجمة

الحارث النبهان

التنوير

الكتاب: **الصَّديقتان**، رواية

تأليف: **كاملة شمسي**

ترجمة: **الحارث النبهان**

عدد الصفحات: 304 صفحة

الترقيم الدولي: 8 - 226 - 472 - 614 - 978

الطبعة الأولى: 2023

هذه ترجمة مرخصة لكتاب

BEST OF FRIENDS by Kamila Shamsie

Copyright © 2022 by Kamila Shamsie

جميع حقوق هذه الترجمة مرخصة لدار التنوير © دار التنوير 2023

الناشر

دار التنوير

الإمارات العربية المتحدة: مدينة الشارقة للنشر - المنطقة الحرة.

هاتف: 0097153976948

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar - altanweer.com

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

إلى سارة

كراتشي

1988

الصَّيف

أول أيام العودة إلى المدرسة. سماء مثقلة بغيوم مطيرة؛ وفي باحة المدرسة تجمعات من تلامذة يقفون متلاصقين اتقاءً لانهمار المطر المفاجئ: أشجار الكيتار المغروسة على امتداد السور، وأشجار النيم القائمة وسط الطريق بين بوابة الباحة ومبنى المدرسة، والمداخل الكثيرة المؤطّرة بشجيرات الجهنمية المتسلّقة، مداخل في واجهة المدرسة المبنية من حجارة صفراء. الملعب يقع تحت الشرفات البارزة في الطابقين الأول والثاني. بضعة أولاد فقط لديهم جرأة يريدون البرهنة عليها كانوا يتجوّلون في الأجزاء المكشوفة من الباحة وقد طووا أكمام قمصانهم، ووضعوا أيديهم في جيوبهم. كانت زهرة تقف عند البوابة المقنطرة المؤدية إلى موضع جرس المدرسة النحاسي، وتستغل طول قامتها كي تنظر باحثة من فوق رؤوس البنات جميعًا، ومن فوق رؤوس أكثر الأولاد أيضًا.

لما يبدأ اليوم المدرسي الرسمي، لكنّ تلامذةً بملابسهم الموحدة الرمادية والبيضاء كانوا واقفين ضمن تجمعاتهم التي اعتادوها منذ الفصل الدراسي الماضي. الأولاد والبنات اللطيفون. والصبية المزعجون. والأزواج. الفتيات المولعات بإصدار الأحكام على الآخرين. الصبية غير المرئيين. لقد اخترعت زهرة هذه الفئات بعد أن تابعت جملة من أفلام هوليوود التي تدور قصصها حول المراهقين (فيديوهات مقرصنة)، لكن تلك الأفلام لم تفدها كثيرًا في سدّ نواقص حياة المدرسة في كراتشي. فكيف يمكن أن يوجد «*نادي الإفطار*» من غير مكان احتجاز؟ وكيف يمكن أن يوجد «*الجميلة ذات الملابس الوردية*» من غير حفلات مدرسية؟ وكيف يمكن أن يوجد «*يوم عطلة فيري بيلر*» من غير الحرية الضرورية

لجعل التغيّب عن المدرسة ممكنًا؟ لكنّ أمرًا وحيدًا كان يجعل المشكلة كامنة في تلك الأفلام، لا في كراتشي، ألا وهو الصداقة - في الأفلام، تكون الصداقة دائمًا خطًا ثانويًا بعد الرومانسية، ولا تكون في قلب القصة أبدًا... إلا في فيلم *«الدخلاء»*... لكنه فيلم عن الأولاد؛ وهذا يعني أنه غير معني إلا بالكلام على أن الفتيات سبب للمشكلات، وأنهن سببٌ يؤدّي إلى المشاجرات وإحراق المباني، وإلى الموت.

كانت بوابة المدرسة ظاهرةً من حيث وقفت زهرة. وعلى امتداد القسم الأكبر من ذلك اليوم، كانت الباصات وعربات الريكشا والشاحنات المغلقة الصغيرة، وغيرها من المركبات العتيقة، تتزاحم في شوارع سادار؛ ولعلّها كانت متجهة إلى سوق إمبرس، أو إلى متاجر الإلكترونيات التي يكثر وجودها في تلك المنطقة. لكن سيارات لامعة مكيَّفة تنضم إلى ذلك الزحام مرتين كل أسبوع آتية بالتلاميذ والتلميذات إلى المدارس الأكثر تميزًا في كراتشي، أو عائدة بهم منها.

ها هي! سيارة مرسيدس، هي الألمع والأجمل بين السيارات كلّها، تصل إلى البوابة وتخرج منها مريم وتسير داخلة الباحة. هذه مريم مختلفة؛ وهذه مشية مختلفة. الثقل الذي كان في وجهها بدا كأنه قد انزلق عنه نازلًا خلال عطلة الصيف فاستقر في مواضع أخرى؛ لكن معرفة ما كان يجري بالضبط من تحت قميصها الرمادي الفضفاض كان صعبًا. توقّفت مريم كي تقول شيئًا لواحد من الصبية الأكبر سنًا؛ وجذبت قميصها بحركة كان واضحًا أنها أرادت منها أن تبدو شاردة الذهن. انشدّ قماش القميص على خصر جديد وثديين جديدين. واصل الصبي الأكبر سنًا كلامه معها كأن شيئًا لم يحدث، لكنه التفت صوبها عندما تجاوزته سائرة إلى حيث كانت زهرة، وظلت عيناه ترقبانها طيلة الطريق.

تغيّرت أيضًا أمور أخرى. الشعر المتموّج المنحدر حتى الكتفين صار مصفَّفًا بعناية بعد أن كان مشعّثًا؛ والحاجبان أعيد تشكيلهما فصارا خطيْن منحنييْن. لكن الابتسامة ظلت على حالها، ابتسامة مريم القديمة التي

تحيي زهرة كلما عادت مريم من رحلاتها الصيفية إلى لندن مع أسرتها. في يدها الممدودة شريط كاسيت هو دائمًا هديتها المتأخرة بمناسبة عيد ميلاد أعز صديقاتها - شريط فيه مجموعة أغانٍ سجّلتها من الراديو كي تأتي لها بأفضل ما يذاع في لندن.

قالت لها: «أترين ما أصابني؟».

أجابت زهرة مشيرة إلى قميصها: «من يجد صعوبة في قبوله، أمك أم خياطك؟».

«يصعب معرفة ذلك. يخيط المعلم، صاحب، ما يظن أن أمي تريده. وتقول أمي إنه شخص شديد الحساسية: لا نستطيع أن نعود إليه قائلين إن ما فعله غير صحيح، لأنه سيكف عن خياطة الملابس لنا. هو الوحيد الذي يعرف كيف يخيط لي بلوزات الساري التي تناسبني».

«سن النضج أمر معقد جدًا!».

ابتسمت كل منهما للأخرى. وكانت كل منهما واثقة من أن المستقبل الذي ينتظرها لن يرغمها على مواجهة تلك المشكلات التافهة. لم تكادا تنتقلان إلى تبادل الأنباء عن الصيف الذي أمضتاه متباعدتين حتى اقتربت منهما صبا مبتسمة تلك الابتسامة التي تجعلها تبدو كأن في فمها فرحة محرَّمة لا تريد ابتلاعها ولا تريد الكشف عنها. كانت كل واحدة من الفتيات الثلاث تعرف ابتسامات صديقتيها؛ ففي سن الرابعة عشرة، كان قد مضى عليهن عشر سنوات في ما قد يجوز تسميته صداقة، مع أن زهرة بحثت في القاموس منذ فترة وأخبرت مريم بأن ما بينهما كان صداقة، لكن ما بينهما وبين الفتيات الست والاثني عشر صبيًا في الصف لم يكن إلا «قُربًا مكانيًا»، أي علاقة قائمة على وجودهم جميعًا في مكان واحد. قالت لمريم التي هي الشخص الوحيد في العالم الذي تظهر له زهرة مشاعر فياضة: «إذا رحلتِ غدًا إلى ألاسكا، فسوف نظل أعز صديقتين طيلة ما بقي من حياتنا».

صارت صبا واقفة أمامهما تاركة لهما أن تستدرجانها إلى البوح بالسر

الذي سمعته قبل قليل من خالتها السيدة هلال التي هي مُدرّسة البيولوجيا. سوف يضيفون إلى نظام إنذار المتفجرات في المدرسة نظام إنذار خاص بالاضطرابات والشغب. وسوف تجري، على امتداد الفصل الدراسي، عدة تدريبات لضمان ألا يخلط الطلبة بين الأول والثاني. لا يجوز أن يندفع سبعمئة تلميذ وتلميذة إلى إخلاء المبنى عندما يكون عليهم أن يظلّوا فيه وأن يقفلوا النوافذ والأبواب. لم تشهد المدرسة في ما مضى متفجرات ولا حوادث شغب، لكن صبا كانت مستمتعة بأن تنقل إلى صديقتيها أنباء الكارثة المرتقبة وما قد يقع من خلط بين هذين النوعين المختلفين من الإنذار.

قالت مريم منزعجة: «إن سمع أبي وأمي هذا، فسوف يصيران أكثر توترًا. يوم عدنا من لندن، استأجرا حراسًا مسلحين من أجل البيت لأن المهاجرين الباكستانيين المقيمين هناك حدّثوهما عن خطورة العيش في كراتشي! هاتوا ما عندكم مما هو خطير، واحتفظوا بالملفوف المسلوق لأنفسكم، أيها اللندنيون! لا يستطيع أحد أن يدخل من غير أن يمر بإجراءات سخيفة، إذ يتصل الحراس بالبيت للتأكد من جواز دخوله. إذا كان الهاتف مشغولًا ولم يستطيعوا تلقي إجابة، فإن واحدًا من الحراس يدخل البيت كي يسأل... وحتى أنهم لا يذهبون جريًا، بل يسيرون كأنهم ذاهبون زحفًا. لكن لا تقلقي يا زهرة! أعطيتهم صورتك وقلت لهم إن من يحاول إيقافك سيُطرد من عمله».

«مع هذا... لقد رأيتهم! هذا جميل جدًا. قد يكون أجمل حتى من رؤية واحد من نجوم البوب في لندن». قالت مريم هذا لأنها رأت بول يونغ سائرًا في حديقة هايد بارك، ذات صيف. كان واضحًا أن هذا موضوع مهم ستعودان إليه في ما بعد عندما يتاح لهما وقت للخوض في تفاصيله كلها – هل يكون واحدٌ من نجوم البوب ذوي الشهرة العالمية حيث أمضى المرء عطلته الصيفية أكثر أهمية من فرقة محلية مثيرة تسير غير بعيد عن الحي؟

استندت مريم بمرفقها إلى ظهر كرسي زهرة ومالت صوبها: «تعلّمتُ هذا الصيف كلمة إيطالية جديدة. إنها 'زيا'. تعني عمة. لكنها تعني في

العامية...»؛ خفّضت صوتها مثلما ينبغي أن تخفضه قبل أن تسخر من اسم الدكتاتور... «شاذ جنسيًا. هل تتخيلين هذا؟ كلما قابل السفير الإيطالي الجنرال زيا، فلا بد أن يفكر في...» [1].

«مريم!».

نظرت زهرة من حولها لترى إن كان ظاهرًا على وجه أحد أنه سمع ما قيل. لا تظن أن في صفها أحدًا من أسرة تساند الرئيس؛ لكن ذلك كان أمرًا لا يُقال جهارًا. ثم إن افتراض أي شيء يظل خطيرًا.

قالت مريم: «لا تخافي هكذا». قرّبت وجهها من ثقب في سطح المقعد مخصص لوضع القلم، وقالت كأنها تتكلّم في مايكروفون: «يا قادة الجيش، ألا تريدون معرفة رأينا جميعًا في قصيدة النرجس للشاعر ووردثوورث؟ فلتسقط رؤوسها المفعمة نشاطًا!».

نهض الصبي الجالس خلفهما -بابار- وسار إلى مقدّمة الصف. التقط إصبع طباشير، وكتب على اللوح: لا تقلق! فقط، هذا كل شـ...

قاطعه صوت المدرّس فلم ينهِ الكلمة الأخيرة. «يا سيد رزاق! من الأفضل أن تجلس في مكانك وألّا تتجول بهذا البنطلون الذي فات زمانه... فما رأيك؟».

تجمّد بابار لحظة، ثم رفع يده ومرَّر أصابعه في شعره الكثيف ونصب كتفيه، ثم عاد وعلى فمه ابتسامة غرور. لو كان مرتديًا سترة جلدية، لنصب ياقتها. عاد إلى كرسيه، وجلس.

قالت صبا بصوتٍ عالٍ: «تذهب ملابس أخي الأكبر المدرسية القديمة إلى أطفال الطبّاخ».

استدارت زهرة فواجهت صبا التي كانت جالسة في مقعد لا يفصله عن مقعد بابار غير الممر. «صبا، إذا واصلت توجيه الإهانات إليه، فلن يكون معجبًا بك أكثر مما كان معجبًا عندما كتبت له قصائد حب».

---

(1) زيا: هكذا يُلفظ اسم ضياء الحق الذي كان رئيس باكستان.

«أووووه!»، سرَت في الصف كله إلى أن قطعها المعلم بأن بدأ يسجل الحضور. خبّأت صبا وجهها في كتابها وراحت تبكي. انحنت زهرة وفتشت في حقيبتها عن منديل، ثم اعتدلت في جلستها ونقرت على ركبة بابار وناولته المنديل من تحت المقعد.

همس لها بعد لحظات: «هل يفترض أن يكون مكتوبًا عليه شيء؟».

التفتت زهرة إليه فوجدت أنه بسط المنديل وحمله أمامه كأنه رسالة: أمسكه بين السبابة والإبهام، باليدين معًا. قالت له: «لم يكن ينبغي لها أن تقول هذا. لكنك تستطيع أن تتصرف مثلما يتصرف شاب لطيف».

صاح بابار: «يا آنسة، هل تريدين أن أخلع بنطلوني؟»، فضحك الطلبة جميعًا، بمن فيهم صبا. ولم تعد هناك حاجة إلى المنديل.

***

لا تقلق! فقط، هي كل شي.

بعد خروج الجميع من غرفة الصف، اقتربت زهرة من تلك الكلمات المكتوبة على اللوح. كانت في آخرها نقطة تركتها قطعة الطباشير عندما أراد بابار أن يبدأ كتابة الحرف الأخير فقاطعه المعلم. حتى الآن، كانوا كلهم طلبة يتلقون الدروس نفسها ويتعلمون الأمور نفسها، أو يخفقون في تعلمها، ولا يصعب عليهم التعويض عن نتيجة سيئة في امتحان جاءت بسبب مرض أو مباريات رياضية استهلكت وقت الدراسة والمراجعة. لكن هذا اليوم كان أول أيام المنهاج النهائي: حسن الأداء، أو سوء الأداء، في الامتحان الآتي بعد سنتين، هو ما يقرر مسألة قد تغير مجرى حياة الطالب: أية جامعة أميركية أو بريطانية تكون راغبة في استقباله مدة سنتين بعد ذلك الامتحان. في حالة زهرة، لن يكون كافيًا أن تود أن تقبلها واحدة من تلك الجامعات لأن عليها أيضًا أن تكون مستحقة منحة دراسية في بريطانيا أو مساعدة مالية في أميركا. البلدان جذابان في نظرها- عظَمة

أوكسبردج، وروعة «آيفي ليغ»[1]- لكنها كانت واثقة من أنها تفضل تعبير «منحة دراسية» على «معونة مالية».

كان بابار قد سأل في نهاية السنة الدراسية السابقة معلمًا شابًا متخرجًا حديثًا في جامعة كولومبيا في نيويورك، «ما الأهمية الحقيقية لنتيجة امتحان البرنامج التمهيدي».

أجابه المعلم: «لا تقلق! فقط، هي كل شيء».

بحثت زهرة عن قطعة طباشير وأكملت الكلمة الأخيرة محاولة أن تكتب بحيث لا يبدو الحرف الأخير غير منسجم مع ما كتبه بابار. سمعت ضحكة من خلفها، فالتفتت. رأت مريم مستندة إلى إطار الباب.

قالت لها مريم: «أنت حريصة دائمًا على تصحيح أخطاء الآخرين».

«ظننتك قد ذهبت إلى مختبر الكمبيوتر». قذفت زهرة بقطعة الطباشير فوق طاولة المعلم وتركتها تتدحرج إلى أن بلغت الحافة وسقطت على الأرض.

قالت مريم: «سنسير معًا إلى أقصى ما نستطيع». ثم شبكت ذراعها بذراع زهرة، وخرجتا من الصف.

سوف تذهب مريم إلى علوم الكمبيوتر؛ وستذهب زهرة إلى الكيمياء. ففي بداية البرنامج التمهيدي، كان على كل طالب وطالبة اختيار الموضوع الذي ستتركز فيه دراسته. هكذا بدأ تفارُق مساراتهم. لو كان الأمر غير متعلّق إلا بالرغبة لفضلت زهرة علوم الكمبيوتر على الكيمياء. لكن علوم الكمبيوتر لم تصبح مادة مدرسية إلا في الآونة الأخيرة؛ وهذا ما أضفى عليها مسحة من «تقليعة جديدة». وقد قال واحد من المعلمين محذرًا إن من الممكن ألا تنظر الجامعات نظرة جديّة إلى تلك المادة كما تنظر إلى غيرها من المواد. لم تكن مريم مبالية بأن تكون نظرة الجامعات جديّة،

---

(1) آي في ليغ (Ivy League): «رابطة اللبلاب». تعبير مستخدم في الإشارة إلى صفوة الجامعات في أميركا.

ولا حتى بأن تكون نتائجها في امتحان البرنامج التمهيدي حسنة جدًا، فهي تدرك أن ثروة أهلها ستمهّد لها طريقًا إلى هذه الجامعة أو تلك. ولم تكن مهتمة بالذهاب إلى جامعة بعينها. هذا الموقف اللامبالي إزاء الدراسة هو ما ميّز مريم عن معظم زملائها وزميلاتها في الصف بأكثر مما ميزتها الثروة أو المكانة الاجتماعية اللتان تفوقان كثيرًا ما لدى أي منهم، حتى في هذه المدرسة المعروفة بأنها من مدارس النخبة. كان كل شخص آخر -بابار أو صبا أو زهرة- قادرًا على ذكر أعداد طلاب السنة الماضية الذين ذهبوا إلى هارفارد أو برنستون أو ييل، فضلًا عن استعراض نتائجهم في امتحان البرنامج التمهيدي وفي اختبار القبول الجامعي... يسردون ذلك كأنهم يسردون نتائج مباريات الكريكيت. وأما في نظر مريم، فلم تكن الجامعة إلا فترة انقطاع قبل أن تستطيع تولي مقاليد الأعمال العائلية. المستقبل الوحيد المهم بالنسبة إليها هو المستقبل الذي سيكون لها في كراتشي، أي في المدينة التي لم تكن لدى زهرة أية نية في العودة إليها بعد أن تغادرها. لكن ذلك كان افتراقًا في مسارَيْهما يتجاوز ما كانت زهرة مستعدة للتأمل فيه الآن، وهما سائرتان، ذراعَيْهما متشابكتان، عبر السلم وفي الممر، تلقيان التحية على الطلبة الذين لم تلتقيانهم طيلة الصيف.

قالت لها مريم: «إذًا... سوف يظن الناس أنك معجبة ببابار».

«وهل تظنين أن بابار يعتقد هذا؟».

«ممكن. لقد مسست ركبته».

«كانت خشنة جدًا».

قال صبي في الصف الأخير كان يسير في اتجاههما: «انظروا إلى من كبرت هذا الصيف!». لقد اعتادت زهرة أن تسمع تعليقات عن طول قامتها، فاقتضى الأمر لحظة وجيزة قبل أن ترى أين كانت عينا الصبي متجهتين. كان اسمه حمد؛ وكان واحدًا من «الأولاد الأكثر تنمّرًا». يقولون إن له خارج أسوار المدرسة أصدقاء من المجرمين، أو ممن هم في طريقهم إلى أن يصيروا مجرمين. تقول الشائعات إن لديه مسدسًا في سيارته.

نفخت زهرة متأفِّفة وتابعت سيرها جارّة مريم معها. أملت أن تكون قد فعلت ذلك بطريقة تجعل أي شخص يرى ما جرى يقول إنهما «مرَّتا به مسرعتين». لكن لم يكن أمامهما سوى بضع أقدام بلغتا بعدها صف الكيمياء فكان على زهرة أن تودّع مريم. مضت إلى واحد من المقاعد الشاغرة، متجاهلة بابار الذي لوّح لها بيده مشيرًا إلى مقعد قريب منه. سمعت من الممر صوت زوجين من الأقدام، واحد متباطئ، والآخر مسرع.

***

بدأ حدوث هذا منذ السنة الماضية من غير أن ينتبه إليه أحد غير مريم وخيّاطها؛ لكن لندن سرّعت تطور الأمر. استقر كل ما كانت تتناوله من شوكولاته وآيس كريم ومأكولات سريعة في أماكن غير متوقّعة، فأتاها ذلك بإزعاجات حمالة الثديين المقوّاة، والجسد الذي صارت تحسّ كأنها لا تعرفه. أثناء وجودها في لندن، مرّت فترة ظنّت فيها أنها فقدت الحكم على أبعاد جسدها، وحسبت أن هذا ما يجعل ثدييها دائمَي الاصطدام بالغرباء إلى أن أدركت أن تلك «الاحتكاكات» غير المتوقّعة لا تكاد تحدث مع نساء... بل مع رجال فقط. وبعد أن فهمت الأمر، ظلّت غير عارفة كيف هو إحساسها به. تودّ أحيانًا أن تبكي؛ وفي أحيان أخرى، تحسّ بنفسها منتصرة.

مع هذا، كان مهينًا لها سماع والدها يقول لأمها إن عليها أن تذهب إلى شارع أكسفورد كي تشتري لابنتهما ملابس جديدة لأن ملابسها القديمة كلها صارت تبدو «غير لائقة». وهكذا خسرت قمصانها المفضّلة كلها: قميص مادونا، وقميص النمر ذي العينين الماسيتين، والقميص البحري المخطّط. كانت القمصان الجديدة فضفاضة أكثر من سابقاتها، ومن غير صور أو زينات مما يمكن أن يشد أعين الناس إلى صدرها. لم يتغير الأمر كثيرًا من ناحية الرجال الذين يصطدمون بها في المترو، ولا من ناحية واحد من أصدقاء والديها صار يشدها من كتفيها ويضمّها إليه ضمًا شديدًا مثلما كان «أعمامها» يفعلون دائمًا، مع أنه لم يفعل هذا من قبل.

في الصيف السابق الذي أمضته في لندن، كانت تتخيل أنها تريد أن تصير «مرئية» هكذا. في كراتشي، يحدّق الرجال دائمًا في أية فتاة: كان هذا أمرًا اعتادته، بل أمرٌ مشتركٌ بينها وبين كل فتاة أخرى في المدرسة. وأما في لندن، فإن الناس ينظرون إلى المرء كأنهم لا يرونه، كأنهم ينظرون من خلاله. كان هذا الفارق مقلقًا. لاحِظوني! لاحظوني! لاحظوني! هكذا كانت تصيح في داخلها كلما سارت في الشوارع. الآن، تحقّقت هذه الأمنية، فقد انتقلت إلى فئة جديدة من الأشخاص وتغيرت علاقتها بالعالم من حولها. في الوقت نفسه، بدا في الظاهر وكأن كل شيء ظل مستمرًا على حاله مثلما كان دائمًا.

لم يكن لديها في لندن من تستطيع أن تكلّمه في هذا الأمر. عدد لا يستهان به من أصدقاء أهلها الذين في كراتشي ممن استقرّوا في شقق في مايفير وكنسنغتون وكينغزبريدج فترة الصيف، كان أطفالهم جميعًا أصغر من أن ترغب مريم في قضاء الوقت معهم. كانوا يعهدون إليها بأن تجالس الأطفال عندما يذهب الآباء لتناول العشاء في الخارج، أو عندما يذهبون إلى السينما. وقد استفادت من هذه المسؤولية المتزايدة كي تحوز لنفسها قدرًا أكبر من الاستقلالية. كان مسموحًا لها خلال ساعات النهار الطويلة أن تخرج من شقتهم في مايفير مع الووكمان، وأن تتجوّل في اتجاه حديقة هايد بارك، أو أن تذهب إلى متجر التسجيلات الموسيقية في بيكاديلي سيركَس. وكانت بعض الأحيان، تبتعد حتى ميدان ترافالغار حيث ترقب أولادًا وفتيات في مثل سنها يضحكون وهم يحاولون، من غير نجاح، تسلّق ظهور الأسود البرونزية المحيطة بالعمود الذي يحمل تمثال الأميرال نلسون.

ومع اقتراب الصيف من آخره، صارت، على نحو متزايد، تسير إلى تروكاديرو في ساحة ليسستر، حيث تعلّمت كيف تتجاهل الجو الباعث على الاكتئاب في ذلك المكان، الذي كان مفترضًا أن يمضي فيه المراهقون أوقاتًا لطيفة، لكن أحدًا لا يفعل ذلك. كان انتباهها منصبًّا على اللوحات الإعلانية الدوّارة القريبة من المدخل، تلك اللوحات التي فيها صور

لممثلي هوليوود ولأكثر المغنين شهرة. هنا، ترى توم كروز في قميص أبيض وبنطلون جينز أزرق يبدو عليه مظهر الحزن الذي لا يلزمه أكثر من ابتسامة من فتاة حتى ينقلب إلى سعادة. هناك، كانت نساء «بانانا راما» تحدّقن في الكاميرا كأنهن تقلن لمن يرى الصورة «أدهِشنا إن استطعت». ثم تعود إلى بيكاديللي حيث يصير سعر كل شيء من غير معنى عند تحويله إلى روبيات باكستانية، مع أن هذا ما كان يمنع أبويها وأصدقائهما من شراء البسكويت من فورتنوم وماسونز، وكتبًا مبسّطة عن العمارة الإسلامية وعن السيارات الفخمة من مكتبة هاكاردز. نادرًا ما كانت مريم تدخل أي متجر من تلك المتاجر كلّها. وإذا دخلت، فهي لا تمضي هناك إلا وقتًا قصيرًا جدًا. قالت لوالديها في الصيف الماضي إن البائعين في متاجر لندن لطيفون جدًا لأنهم يكرّرون دائمًا هذا السؤال: «أأستطيع مساعدتك في أي شيء؟». قال لها والداها إن ذلك السؤال ليس إلا طريقة إنكليزية في قول: «اشترِ شيئًا، أو انصرفْ». انتابها حرج لأنها لم تدرك ذلك. كانت تفخر بقدرتها على قراءة ما بين السطور عند وجودها في كراتشي.

ومن بيكاديلي، تتابع طريقها إلى غرين بارك حيث تجلس تحت شجرة تحبّها وتمضي ساعات طويلة في كتابة بطاقة بريدية إلى زهرة تفكّر مليًا بكل جملة حتى تستطيع كتابة أهم ما جرى في الساعات الأربع والعشرين الماضية ضمن المساحة المتاحة على البطاقة. تستخدم المساحة كلّها، بما فيها السطور المخصّصة لكتابة العنوان لمعرفتها أن نظام البريد الباكستاني يجعل إرسال البطاقة أمرًا من غير جدوى: من الأفضل أن تأخذ تلك البطاقات معها إلى كراتشي في آخر عطلة الصيف فتقدّمها إلى زهرة دفعة واحدة.

لكنها التقطت واحدة من تلك البطاقات في آخر يوم لها في لندن، وقرأت السطور التالية / *كنت أرتدي قميص جينز، وحللت الزرين العلويين عندما رأيت مجموعة فتيان كان اثنان منهم جذابين فعلًا. أحسست بهم ينظرون إليَّ بعد أن مررت بهم، لكني لم ألتفت لأنني أريد أن ينظروا إلي. لكني لا أعرف ما أريد بعد ذلك*/ .

قرأت تلك الكلمات، ثم وضعت البطاقات كلّها في كيس قمامة أسود ومن سلة المهملات في المطبخ جاءت بعبوات عصير فارغة وبأغلفة أصابع السمك فوضعتها كلها فوق البطاقات وربطت الكيس ربطة محكمة قبل أن تخرج به إلى حاويات القمامة أسفل المبنى.

لم تدرك الأمر إلا في اليوم الأول في المدرسة، أثناء استراحة الغداء، عندما وقفت تنظر إلى زهرة تمد يدها من فوق رؤوس الطلبة الواقفين أمامها كي تدفع للبائع في الكشك ثمن زجاجتي الكوكا كولا وشرائح التشيبس الحارة. لقد كان في قلب صداقتهما شيء كأنه نكتة، دائمًا. شيء مضحك يبدو على المستوى البصري أولًا قبل أن يتبين أنه موجود على مستويات متعدّدة. خطوط زهرة المستقيمة كلّها ومنحنيات جسد مريم... أضاف هذا عنصرًا جديدًا إلى ذلك التباين بينهما.

تناولت من زهرة الكوكا كولا وكيس التشيبس، وقالت لها: «شكرًا، يا ستان!».

«أهلًا وسهلًا، يا أولي».

تساءلت إن كانت زهرة تشاركها هذا الإحساس بالتكامل عندما تكونان معًا، إحساسًا لا يمكن أن يكون ممكنًا إلا بين صديقتين منذ سن الرابعة، صديقتين ساهمت كل منهما في تكوين شخصية الأخرى. شكّت في أن زهرة لا تحسّ هذا. تريد زهرة من هذا العالم أمورًا لا تفهمها مريم - أمورًا عثرت عليها في الكتب وفي عقلها، فكانت -أحيانًا- تذهب إلى أماكن بعيدة عن مريم نادرًا ما تتكلمان فيها لعِلم زهرة أن مريم غير قادرة على اتباعها في تلك الأماكن. عندما تقول زهرة أمورًا من قبيل: «أتظنين أن لكل إنسان هدفًا في الحياة أم إننا نخترع الهدف كي نحول بيننا وبين الإحساس بأن لا أهمية لنا؟». لا تعرف مريم بمَ تجيبها. لم تكن تعرف أي جزء من ذلك السؤال كان أكثر غموضًا بالنسبة إليها: «الهدف» أم «الأهمية». كانت تحاول أن تأتي بإجابة فتقول شيئًا من قبيل إنها تودّ أن تتوسّع أعمال أسرتها

إلى السوق الدولية. لكن زهرة تجهّمت عندما سمعت إجابتها تلك وقالت: «هذا طموح، لا غاية!».

تجوّلتا في باحة المدرسة، ولاحظتا كيف أدّى ذهاب طلبة السنة الثانية في المستوى المتقدّم، آخر السنة الدراسية الماضية، إلى تغيير ترتيب الأمور. المنطقة المحيطة بسارية العَلم حيث كان أروع طلبة السنة الثانية يمضون أوقات الاستراحة في السنة الماضية، تحتلها الآن مجموعتان صغيرتان من طلبة الصف الثاني عشر. وأما مجموعة طلبة السنة الثانية الرائعين الجديدة، فقد اختارت الرواق الحجري المقنطر تحت الجرس كي يكون منطقتها هذه السنة. سمعت مريم من ينادي باسمها، فأمسكت بمرفق زهرة كي توجّهها صوب أحواض الزهور القريبة من مدخل قاعة الموسيقى، حيث تمركز كثيرون من صديقاتهما وأصدقائهما. كان بعضهم جالسًا على أحواض الزهور البيضاء المنخفضة، في حين ظل بعضهم واقفًا نصف متحدّث مع الأصدقاء الجالسين، ونصف متحدث مع كل من يمر بتلك المنطقة. كان الجو هناك رطبًا، مغلقًا؛ ولم تعد الغيوم المطيرة خطرًا محتملاً، بل صارت إزعاجًا حقيقيًا.

جلست زهرة، وظلت مريم واقفة. كانت زهرة الجالسة أعلى هامة من الجميع. ففي جلستها، كانت أطول قليلًا من البنات الواقفات على مقربة منها، لكن بعض الأولاد بدأوا يلحقون بها، أخيرًا. قالت مرة لمريم -بطريقتها الموضوعية- إنها تظنّ بأن شخصيتها كانت ستصير مختلفة لو أنها أقصر قامة ببضع بوصات. بكل بساطة، لا تجد لها مكانًا بين الفتيات اللواتي تنحنين متقاربات الرؤوس كي تتبادلن النمائم. في حقيقة الأمر، لم يكن عدم التلاؤم مشكلة عند مريم، فكلهن صديقات منذ زمن بعيد. بعد الشهرين اللذين أمضتهما في لندن بين أطفال صغار وأشخاص كبار، صارت مريم راغبة في احتضان كل ما هو محيط بها، لأن الأحاديث تجري هنا بكل يسر، ولأن واحدتهن تناكف صديقاتها من غير مشقّة، ولأن مريم تحسّ بنفسها هنا في مكان آمن. أتى بابار كي ينضم إلى المجموعة، فقالت

له مريم: «ملابس استعراضية فات زمانها! استعراضية!». راح بابار يسير جيئة وذهابًا، ثم تحولت مشيته إلى رقصة وبدأت الفتيات تصفّقن، بينما راح الصبية يصيحون «أوي أوي أوي» على إيقاع تصفيق البنات، فانقلبت النكتة على المعلم لأنه أساء اختيار كلماته. خفض بابار رأسه صوب مريم كأنه يشكرها لأنها وجدت طريقًا بين التظاهر السخيف بأن ذلك الكلام في غرفة الصف لم يكن أبدًا وبين حرج قول شيء موح بالتعاطف معه. لم تكن في حاجة إلى أي شكر، أو أي إقرار بصنيعها: كانت راضية كل الرضا عن وجودها بين مجموعة من الناس وعن معرفتها الكلمات ونبرات الصوت التي تنتج الأثر الذي تريده تمامًا. هذا معنى «الانتماء» و«الموطن»، كلمتان تفهمهما مثلما تفهم زهرة كلمتي «الهدف» و«الأهمية».

مرّ حمد ضمن مرمى نظرها فتحوّلت أفكارها إلى الآثار الأخرى التي يمكن أن «تُنتجها» تلك النظرة.

***

تأتي زهرة أيام الأربعاء إلى بيت مريم؛ وتأتي معها شقيقتاها الأصغر سنًا. كان بيت مريم منزلًا من طابق واحد في منطقة أولد كلفتون: بيتٌ خلف جدران عالية صار عند بوابته الآن حراس مسلحون. لا يتيح ذلك البيت أية إمكانية للعب مع كلب الجيران في الأسفل، أو للتسلل نزولًا إلى البحر، تلك الإمكانيتان المتوفرتان في شقة زهرة في سي فيو، مع أن زهرة نادرًا ما تستفيد منهما. بدأ هذا النظام عندما تولّى والد زهرة وظيفة في التلفزيون، فصار مسؤولًا عن برنامج خاص بلعبة الكريكيت –عليه أن يكون في المحطة بعد ظهر كل يوم أربعاء– من هنا لا يستطيع أن يذهب لأخذ زهرة من المدرسة مثلما ظل يفعل منذ أن تمت ترقية أمها من معلمة صف في مدرستها إلى مديرة في مدرسة افتتحت حديثًا.

لا تزال مريم في شوق إلى السيدة علي –هكذا كان اسم والدة زهرة في المدرسة–؛ وكانت الخالة شهناز خارج المدرسة. كانت متألّقة دائمًا تلك اللحظات المعدودة من النهار عندما تمر السيدة علي بمريم فتحييها

وتبتسم لها ابتسامة الخالة شهناز. كان بقية المعلمين والمعلمات يرون في مريم صديقة زهرة المتألقة التي يصعب تفسير صداقتها معها لأنها طالبة متوسطة الإمكانيات، يشتري لها أهلها كنزات الكشمير من لندن كي تكون جزءًا من ملابس المدرسة الشتوية، في حين لا يجد غيرها (بمن فيهم من يتجولون في سيارات باجيرو) أية مشكلة في ارتداء كنزات محلية مصنوعة من القطن والبوليستر. كانت تدرك أنهم يزدرونها لهذا السبب، وذلك أن صبا أخبرتها بأن عمتها -السيدة هلال- قالت لها إن قاعة المدرسين تتساءل إن كانت لدى مريم حساسية من البوليستر. على غرار كل من في المدرسة من طلبة وطالبات، كانت مريم تترك أمها تختار لها ملابس المدرسة من غير أن تولي هذا الأمر قدرًا كبيرًا من تفكيرها. لكن ذلك الحديث مع صبا جعلها تدرك أنه لا يجوز ترك القرارات، بل حتى أصغر القرارات، في يد أبيها، أو أمها.

في يوم الأربعاء هذا، تفجرت أزمة اجتماعية في أسرة مريم: وصلت الفتيات إلى البيت فوجدن والدة مريم تتكلّم في الهاتف وتأمر زوجها بالعودة من المكتب على الفور لأن ثمة ما لا بد من مناقشته. يعني تعبير «لا بد من مناقشته» أن هناك أمرًا لا يصح قوله في الهاتف... ليس لأن الجميع يدرك أن الاستخبارات تتنصت على الاتصالات الهاتفية دائمًا، بل لأن تداخل الخطوط يعني أن واحدًا ممن تعرفهم يمكن أن يستمع إلى مكالمتك مع أنه لم يرفع سماعة الهاتف إلا كي يتصل بأمه ليسألها عن القرابة بين فلان وفلان. منذ أن وجدت والدة مريم نفسها في تشابك هاتفي مع زوج ابنة عمها، وسمعته يكلّم عشيقته التي لم يكن أحد عالمًا بوجودها حتى صارت ترفض أن تقول في الهاتف أي شيء لا تجيز لنفسها أن تصيح به بين الناس في السوبر ماركت.

ادّعى والد مريم أنه لا يستطيع مغادرة المكتب لأن لديه عملًا؛ لكن جدّ مريم هو من يدير أعمال العائلة في حقيقة الأمر، تلك الأعمال التي توفّر منتجات جلدية فاخرة يشتريها أثرياء باكستان. كان لدى والد مريم مكتب

باسمه حيث يمضي فيه أوقاته في حل الكلمات المتقاطعة وفي الموافقة على منتجات تُلبّي -قبل موافقته - معايير والده الدقيقة، فضلًا عن اجتماعه أحيانًا مع أشخاص مهمين بالنسبة إلى الشركة لا بد من جعلهم يشعرون أنهم موضع تقدير. كان والد مريم يجعل من يقابله يشعر أنه موضع تقدير؛ ولم تكن ملاحظة وفرة ما لديه من ذلك التقدير لتمنع أحدًا -عدا أفراد أسرته- من الإعجاب بقدراته في هذا المجال.

قالت لها زهرة: «أنت محظوظة». فابتسمت مريم ابتسامة عريضة. لا تحب شيئًا إلا أن يقال لها ما يجعلها شبيهة بسانتان جيلو، بطلة رواية جاكي كولينز التي تجتمع فيها مقادير متساوية من الجرأة والإقدام والإخلاص. كشّرت صبا قليلًا ففهمت زهرة تكشيرتها: هي التكشيرة التي تقول إن صبا لا تفهم ما يجعل مريم أعز صديقات زهرة ويسمح بأن تكون بينهما نكاتهما الخاصة التي لا يقولانها لغيرهما. في حين أن صبا تنتمي -مثلها مثل زهرة- إلى جماعة التلاميذ الذين يشكّل ذووهم «صفوة المجتمع»، أي أولئك الذين يمضون عطلات الصيف في الخارج ويذهبون للسباحة في نادٍ بعينه لا يستقبل إلا من كانوا أعضاء فيه.

قالت زهرة: «لعلها فكرة حسنة أن تكون لدى المدرسة خطة لمواجهة المخاطر، إن ساءت الأحوال»؛ ثم التفتت صوب سور المدرسة المرتفع وركزت نظرها على قطع الزجاج المغروسة في أعلاه لتمنع أي شخص من تسلّقه. في الصيف الماضي، قتلت تفجيرات السيارات أكثر من سبعين شخصًا في منطقة سادار. وفي موقع غير بعيد عن المدرسة، حطم واحد من تلك الانفجارات زجاج المتجر الذي كانت زهرة فيه مع أمها الأسبوع الماضي لشراء ملابس المدرسة الجديدة. ظلت بعد ذلك أيامًا وهي تتخيّل قطع الزجاج منغرسة في عينيها وفي رقبتها. كانت مريم في لندن آنذاك، لكنها قالت لها عندما عادت: «كان ذلك فظيعًا! أحمد الله على أن الانفجار وقع أثناء عطلة المدرسة». وكأنها أرادت القول إن أحدًا ممن يعرفونهم لا يمكن أن يكون في سادار في ذلك الوقت من السنة.

رُن جرس المدرسة، فاتجهوا إلى الملعب، حيث كانت صفوف معوجّة من الطلبة قد بدأت تتشكّل. كانت الأرض رطبة بعد أمطار يوم أمس التي تركت وسط الملعب بركة كبيرة، كان عدد من طلبة الصف التاسع يخوضون فيها محاولين جعل رشاش الماء يصيب أي فتاة تمرّ على مقربة منهم.

التغيّر الذي ظهر على مريم خلال فصل الصيف لم يكن مقتصرًا عليها وحدها. فتيان صاروا أطول قامة، وفتيات صارت أجسامهن أكثر استدارة: هذا صبي حلق أخيرًا تلك الشعرات النابتة على شفته العليا؛ وتلك الفتاة التي تخلّت عن النظارة ووضعت عدسات لاصقة. التغيّر الوحيد الظاهر على زهرة هو أن طولها ازداد بوصةً؛ لكنها ظلّت نحيلة، وظل على حاله شعرها المنسدل الذي تقصه أمها بحيث لا يتجاوز كتفيها. لكن كل صبي وفتاة في الصف بدا عليه تغيُّر ما، حتى عندما بقي المظهر الخارجي من غير تغيير. صاروا جميعًا أكثر هدوءًا. صاروا الآن من طلبة الصف العاشر، أي إنهم كبروا إلى حد يجعل من هم أصغر منهم ينظرون إليهم نظرة احترام. فضلًا عن ذلك، صاروا في مرحلة لا بد فيها من بدء تجاوز الألفة الشديدة التي كانت في العلاقات بينهم.

ألغي اجتماع الطلبة في الباحة كي يدخل الجميع المدرسة في أسرع وقت ممكن، لأن الغيوم الداكنة ازدادت دكنة. لذا، ذهب الجميع مباشرة إلى غرفة الصف الجديدة ذات الجدران المطلية بلون كَلَون أعشاب البحر. كانت المقاعد أيضًا مطلية حديثًا بلون يثير الأعصاب... لون بين الوردي والبني. عثرت مريم وزهرة على مقعدين متجاورين يفصلهما ممر عن بقية المقاعد. وراحت زهرة تقصّ على مريم أهم ما وقع في الصيف، عندما شاهدت أفراد مجموعة «فايتال ساينز» يخرجون من بيت في المنطقة الخامسة، على مقربة من التقاطع الذي يقف عنده رجل يضع أزهار الجهنمية خلف أذنه، وينظّم حركة المرور. كان والدها يقود السيارة فرفض أن يتوقّف، ولا حتى أن يخفف السرعة، كي تنظر ابنته إليهم زمنًا

أطول. قال لها إن تسجيل بضعة فتيان أغنية بوب ناجحة لا يعني أن من حقّها أن تنظر إليهم مثلما ينظر المرء إلى قاطني حديقة الحيوانات.

أدى استدعاء والد مريم إلى تأخير وجبة الغداء إلى حين وصوله إلى البيت. سارت زهرة ومريم في الممر الطويل المزدحمة جدرانه باللوحات حيث كان رسم تخطيطي لبقرة -من صنع والد مريم عندما كان في جامعة أوكسفورد - معلقًا بين لوحات لفنانين كبار، كصِديقيان وتشوغتاي وغولغي ونقش. ثم أعقبت تلك اللوحات مجموعة صوَر فوتوغرافية لأسلاف والدة مريم في أحسن حُلَلهم الأرستقراطية. علوُّ شأنهم الواضح سمح لرسم البقرة بأن يصير مسلّيًا بدلًا من كونه رمزًا فظًّا دالًا على الثروة التي جعلت اقتناء تلك المجموعة من الأعمال الفنية ممكنًا. كانت مريم ترى وجود تلك اللوحة محرجًا.

انتهى الممر إلى غرفة مريم. أخرَجت شقيقتيها من الغرفة وأغلقت الباب من خلفهما. كان طنين نظام التكييف المركزي في البيت خافتًا؛ وكانت الأرض الرخامية باردة لطيفة تحت جواربهما عندما خلعتا حذاءيهما. قالت مريم لزهرة أن تختار ما تحب سماعه من موسيقى، ثم جثت على فراشها العريض وطبعت قبلة على فم جورج مايكل التي كانت صورته معلّقة على الجدار... صورة من أغنية «لاست كريسمس».

قالت لها: «دورك الآن». ظلت زهرة في مكانها، وظلّت أصابعها تجري على مجموعة أقراص الـ«سي دي» التي صفّتها مريم على رف أبيض ذي حافة زرقاء. تحت ذلك الرف، كان رف الكتب المزدحم بروايات جوديث كرانتز وسيدني شيلدون وجاكي كولينز - أرقام مكتوبة على ظهر الغلاف الأخير: رموز لا يعرفها أحد غير مريم وزهرة تشير إلى الصفحات التي فيها «مقاطع جيدة». ومن تحت رف الكتب، طاولة مكتب عليها كمبيوتر - كمبيوتر مريم الشخصي، فرحتها وموضع اعتزازها، جهاز Apple IIGS. سمح لها هذا الجهاز بأن تبدأ البرنامج التمهيدي لعلوم الكمبيوتر في المدرسة متقدّمة أميالًا عن كل من عداها.

قالت زهرة، وكانت لا تزال تولي مريم ظهرها: «لماذا تتكلّمين مع حمد عندما تظنين أنني لا أراك؟ رأيتك اليوم، من جديد، رأيتك عند خروجي من درس التاريخ».

«أنت لا يعجبك حمد».

«ما أهمية هذا؟ تخبر الواحدة منا الأخرى بكل شيء».

كان معنى «كل شيء» عندهما هو كل ما يجري في المدرسة. وأما الحياة في أسرتيهما فهي موضوع مختلف. على سبيل المثال، لم تكن مريم تتحدّث أبدًا عن شدة الحرج الذي تحسّه لما تراه في حياة أمها وأبيها من رتابة، ولسطحية اهتماماتهما التي كانت مختلفة كثيرًا عما تراه من سلوك الكبار في بيت زهرة. حتى الاسمان اللذان كان أبوها وأمها معروفَين بهما بين الأصدقاء -توف وزينو بدلًا من توفيق وزنوبيا- لم يكونا إلا صورة كاريكاتورية بالمقارنة مع متانة أسماءٍ أخرى من قبيل علي وحبيب وشهناز.

في الأسبوع الأول من دروس الاقتصاد من البرنامج التمهيدي، سمعت مريم بشيء اسمه «تقسيم العمل»، ففهمت أن نسخة عائلتها من هذا التقسيم كانت أن يدير جدها الشركة، في حين يتولى والدها أمر التناسل إلى أن يوجد شخص مؤهل لأن يتولى الأعمال بعد الجد. لم يفلح أبوها في إنجاب ذكر، لكنه أفلح في إنجاب ثلاث فتيات قبل أن تقول أمها إن هذا كافٍ تمامًا لأننا نعيش في القرن العشرين: سوف تتولّى البنات أمر الشركة. لكن ما اتضح منذ فترة مبكرة هو أن الشقيقتين الصغيرتين قد سارتا على خُطا أبيهما في استبدال السحر بالكفاءة والقدرة. وكان مفهومًا أن المسؤوليات الحقيقية لا بد أن تقع كلّها على مريم. كان جدها يمازحها أحيانًا ويقول إنها ستذهب إلى جامعة في إنكلترا أو أميركا فلا تعود راغبة في الرجوع. لكنها تستهجن قوله هذا لأنه يدرك تمام الإدراك أن عطلات الصيف في لندن كانت كافية لأن تبعد عن ذهنها أية رغبة بالعيش في أي مكان آخر غير كراتشي. المكان الآخر هو حيث تكون «لا أحد». وإن

شئنا الصدق، لم تكن مقتنعة حتى بأن عليها أن تذهب إلى الجامعة؛ لكن الأرجح أن جدها يرى هذا أمرًا ضروريًا.

«طيب... لكن، دورك الآن». أشارت مريم مجدّدًا إلى الملصق على الجدار فاقتربت زهرة ووقفت عند السرير. رأت مريم كيف تراجعت زهرة قليلًا عندما رأت أثر اللعاب الذي لم تنتبه مريم إلى أنها خلّفته على فم جورج مايكل. جعلها هذا تمسح شفتيها وتنتبه إلى جسدها - اللعاب في فمها والدم الذي يأتيها، وثقل ثدييها. قبّلت زهرة زاوية فم جورج مايكل ومضت كي تجلس على طرف سرير مريم بدلًا من جلستهما المعتادة - تجلسان كتفًا إلى كتف مسندتين ظهريهما إلى رأس السرير.

«لا بأس، نعم... يكلّمني عندما يراني. ما الذي يُنتظر مني فعله؟ أأتظاهر بأني لا أسمعه؟ يتوقّف كي يكلمني كلما رآني».

«هل سبق أن تكلّمتِ معه في الهاتف؟».

«طلب مني رقم هاتفي، لكني لم أعطه له. هل أنت مسرورة بهذا؟».

تغيّر طفيف جدًا في الجو بينهما: أول كذبة بينهما.

«حتى إن رآكِ الناس تكلمينه، فهذا ليس حسنًا من أجل سمعتك».

السمعة. إن لهذه الكلمة وزنًا كبيرًا في حياة زهرة. تدرك مريم أن للأمر علاقة بعدم ثقتها بوضعها الاجتماعي؛ وهذا ما يجعل الضحك في هذه اللحظة أمرًا مزعجًا. لقد قالت والدة مريم ذات يوم: «إنها ذكية، حسنة الطباع. فتاة فطنة يسعد أية عائلة أن ترحّب بها». كانت بهذا تتوقّع مستقبلًا لامعًا لزهرة عندما يحررها الزواج من نير بيئة والديها؛ اللذين هما «شخصان محترمان، يعملان كثيرًا». عبارة كان واضحًا أن فيها من التعطّف إزاء أولئك الذين لن يستطيعوا أبدًا إحراز موقع مهم في العالم، بصرف النظر عن مزاياهم الشخصية وعما يفعلون. أشارت مريم إلى الحيّز الخالي إلى جانبها، فجلست زهرة حيث أشارت. استرخت ومالت برأسها صوب مريم التي نصبت جسدها فصار الرأسان على مستوى واحد.

«زهرة، ألا ترغبين أحيانًا في فعل أشياء لا يجوز لك فعلها؟».

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

«طبعًا، يحدث هذا».

«مثل ماذا؟».

«أن أقبّل ولدًا».

«زهرة علي!».

«اخرسي».

«هذا مزاح. أي ولد؟».

«أي ولد. القبلة هي ما أريد». احمرّ وجهها كثيرًا عندما قالت هذا، «لكن عليكِ أن تكوني واثقة من أن الولد لن يتكلّم في الأمر. ومن الغباء أن تثقي هكذا بأي شخص... إلا أنت».

أومأت مريم برأسها. ذلك الجزء الأخير من الجملة كان صحيحًا بكل تأكيد، «أتظنين أن الأمر يمكن أن يكون مختلفًا إذا أغمضت عينيك و...».

«ماذا؟».

«أن تقبّلي فتاة». كان هذا احتمالًا جديدًا ممكنًا أوحى به إليها فيلم تابعته في ساعة متأخرة من الليل عندما كانت في لندن.

«هل تعنين أن نتبادل القبل؟».

قطبت مريم وجهها إزاء ما في هذه الفكرة من خطأ واضح. «أبدًا. ولا حتى على سبيل التجربة. الأمر محسوم. بابار لك، وحمد لي».

«لست أدري أي جزء من هذه الجملة هو الأكثر سوءًا. هل يتصل بك حمد؟».

«أتظنين أنني بدأت أكذب عليك فيما يخص حمد؟». نهضت واقفة على السرير وخلعت جوربها من قدمها، «لقد أخطأتِ في حق الصداقة. وعليك الآن أن تواجهي العقوبة».

«آه، يا إلهي! ليس هذا».

«نعم، هذا! شمّي الجورب! شمّيه!». راحت تلوِّح بالجورب أمام وجه صديقتها، فتدحرجت زهرة على السرير كي تهرب منها. وبعد ثوانٍ قليلة، كانت مريم تجري خلف زهرة في الممر ملوِّحة بالجورب. طاردتها من

حول طاولة الطعام، ثم إلى غرفة المكتب حيث صرخت والدة مريم بهما قائلة إنهما مشاغبتان لا تقيمان أي اعتبار لما يلقاه غيرهما من عناء في يومه.

تمتمت زهرة ببضع كلمات اعتذار وخرجت من الغرفة. لحقت بها مريم إلى غرفة النوم بعد دقائق قليلة. كانت فرِحة بالمعضلة التي وجد أبوها وأمها نفسَيهما واقعين فيها. سوف يقيمان حفلة كبيرة في وقت لاحق من الشهر. لكن واحدًا من الضيوف (كان زميلًا قديمًا لوالدها منذ أيام الجامعة) اتصل كي يسأل إن كان يستطيع أن يأتي بشقيقه الذي يمر بفترة صعبة، ويحتاج إلى قدر من الترويح عن النفس. كان ذلك طلبًا لا يستطيع أحد أن يفكر في رفضه - كان شقيق ذلك الرجل قد اعتقل في الآونة الأخيرة بتهمة الاتجار بالمخدرات؛ وكان الجميع يدرك أن من أطلق سراحه قاضيًا مرتشيًا. قالت والدة مريم لها: «ما الذي يجعلني مضطرة أن أكون أول مرحلة في برنامج إعادة تأهيله؟». وكانت تعني إعادة تأهيله من الناحية الاجتماعية. تظاهرت بأن لديها مشكلة في المطبخ، وبأنها مضطرة إلى أن تسرع في إنهاء المكالمة مع ذلك الصديق. لكن عليها، أو على زوجها، ألا تتأخّر في الإجابة. لم تستطع العثور على طريقة تقول بها «لا».

قالت زهرة: «إذًا، هل يلغيان الحفلة؟».

جلست مريم إلى جوارها عند مجموعة التسجيلات الموسيقية، «إنه عيد ميلاد أبي الأربعون. لن يلغيا الاحتفال بهذه المناسبة».

«لكنهما لن يدعوَا مهرّب مخدرات إلى بيتهما، أليس كذلك؟». كانت زهرة قد تناولت «ديرتي دانسينغ» من رف التسجيلات وراحت تقرأ قائمة الأغاني بتركيز كبير كأنها لا تعرفها عن ظهر قلب.

كانت مريم قد التقت ذلك الرجل مرات كثيرة فلم يبق منه في ذاكرتها شيء غير تهذيبه وكلماته اللطيفة، «لا بأس به في المناسبات الاجتماعية. الأمر المهم هو أن شقيقه صديق يطلب خدمة... فماذا تفعلين لو كنت مكانهما؟».

رفعت زهرة رأسها أخيرًا ونظرت إلى صديقتها، «لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة».

«إجابة دبلوماسية جدًا».

وضعت زهرة الـ«سي دي» في الآلة وضغطت على مفتاح التشغيل. صوت طقطقة صدَر عن القرص الدوار الذي لم تضغط عليه بقوة كافية كي يتخذ موقعه الصحيح. هزت زهرة رأسها -دائمًا، تضيق ذرعًا عندما تفعل شيئًا من غير إتقان- ثم أصلحت وضع القرص. النغمات الأولى من أغنية «تايم أوف ماي لايف» مَحَت كل ما قد يكون بينهما من اختلاف في الرأي إزاء عالم الكبار. راحتا تغنيان معًا *«لم أحس هكذا من قبل أبدًا»*.

«إذا صارت شقيقتاك من أصحاب السوابق الإجرامية، ثم طلبتِ مني أن تأتيا معك في عيد ميلادي الأربعين، فأظن أنني سأوافق على طلبك». توصّلت زهرة إلى هذه النتيجة قبل أن تنتهي الأغنية.

«ماذا تقولين؟ لن أطلب منك أبدًا أن تستقبلي هاتين المخلوقتين المزعجتين! عيد ميلادك الأربعين! كيف تظنين أننا سنكون عندما نصير في الأربعين؟».

كان هذا حديثًا تحبان الخوض فيه. خفضتا الصوت قليلًا، وجلستا جنبًا إلى جنب على سرير مريم كي تفكرا في المستقبل.

قالت مريم: «أظن أننا سنكون متزوجتين، ولدينا أطفال. هذا محتم علينا، أليس كذلك؟».

قالت زهرة: «أهو محتم علينا؟».

قالت مريم: «لا بد أن أنجب أطفالًا حتى يبقى من يرث شركة جلديات خان. سيكون الجزء الصعب العثور على زوج لا يزعجه أن أدير شركتي بنفسي من غير أن يتدخّل فيها أبدًا. لكن، لا أريده أن يكون زوجًا ضعيفًا!».

قالت زهرة بنبرة فيها شيء من الكآبة: «أظننا سنرغب في هذه الأمور، في يوم من الأيام. لكننا سنظلّ مثلما نحن عندما نكون معًا، أليس هذا صحيحًا؟».

أجابت مريم بكل تصميم: «سنكون كما نحن، دائمًا، حتى إذا كنت تعيشين في ألاسكا. هذه صداقة، لا معرفة عريضة!».

«يقولون: معرفة عارضة».

«نسختي أفضل».

«صحيح».

صوت خبطة مكتوم في الخارج. واحدة من قطط الحديقة قفزت من شجرة التشيكو إلى حافة النافذة. صاحت الفتاتان معًا: «معرفة عريضة!».

ضحكتا معًا. ظلتا تضحكان. لم يكن ضحكًا من النكتة نفسها، بل ضحكٌ عميقٌ نابعٌ من فرحتهما بالصداقة، فرحة كل منهما بصديقتها وبثقتها من أنه هذه الصديقة ستظل لها مهما يحدث في العالم، ستظل نجمها الهادي، صخرتها الراسخة، صديقتها الموثوقة التي تعرف عيوبها كلها، حتى أدقّها، لكنها تختار أن تظل معها -بالرغم من تلك العيوب كلها- ستظل إلى جانبها عبر كل ما قد يقذف العالم به إليها، عبر الخيبات والآلام ولحظات الظلمة كلها. هذه الصداقة، نورها الباقي دائمًا.

***

عندما أتت والدة زهرة بعد الظهر كي تأخذها من بيت صديقتها، كان والد مريم يتكلم بالهاتف ويقول لصديقه من أيام الجامعة إنه -بالطبع- يرحب بمجيء شقيقه إلى الحفلة. نتيجة انشغال خط الهاتف بتلك المكالمة، كان على واحد من الحراس المسلحين عند البوابة أن يذهب إلى مدخل المطبخ وينادي الطبّاخ لأنه ليس مسموحًا له أن يدخل البيت. لكن الطباخ كان في الداخل يتكلّم مع والدة مريم في ما سيُعدّه من أجل العشاء؛ فذهب الحارس إلى جناح الخدم وراح ينادي إلى أن استيقظ السائق أبو بكر من قيلولة بعد الظهر ومضى كي ينقر على النافذة. انتبهت إليه آية -شقيقة مريم- لكنها لم تفهم ما قاله أبو بكر عبر الزجاج لأن الشقيقتين الصغيرتين كانتا تستمعان إلى أغانٍ صاخبة عالية الصوت. خرجت كي تعرف ما يريد،

ثم عادت إلى البيت وبحثت عن زهرة. أثناء ذلك، ظلت والدة زهرة جالسة في سيارتها دقائق طويلة جدًّا في حرارة شهر آب الشديدة.

خرجت مريم مع زهرة وقالت معتذرة: «أنا آسفة».

قالت والدة زهرة مشيرة إلى الرجل الذي فتح البوابة لمريم وظل واقفًا ينظر إليها حاملًا بندقية الكلاشنيكوف في يده: «هل يجعلك هذا تحسِّين بأمانٍ أكبر؟».

صاحت زهرة مستنكرة: «ماما!»، وأسرعت تجلس في السيارة كي تحول دون استمرار الحديث.

أجابت مريم: «لا، بل يزعجني...»، التفتت إلى الحارس وقالت: «هذه واحدة من الأشخاص الذين يستطيعون الدخول دائمًا. هل فهمت؟».

لمحت زهرة الاستياء الذي ظهر في وجه أمها عندما سمعت نبرة الصوت التي استخدمتها مريم. كان أول حرج حارق في الصداقة بين زهرة ومريم قد ظهر عندما كانتا في الخامسة من العمر، فخاطبت زهرة السائق بعبارة «أبو بكر بهاي». وقتها، نظرت إليها مريم مستنكرة وقالت لها: «هو ليس من أقاربنا!».

سرعان ما أدركت زهرة أن من تذهب معهم إلى المدرسة -كلهم تقريبًا- يكلمون من يقود السيارة بهم، أو يطهو وجباتهم، أو يرتّب أسرّتهم، من غير أن يضيفوا إلى أسمائهم ما قد يوحي باحترام لهم أو بقرابة معهم: الفوارق الطبقية تعلو اختلاف الأجيال. في بيت زهرة، كان الرجل والمرأة اللذان يأتيان للتنظيف والطهو «زاهور بهاي» و«شاميما آبا». هكذا كانت تخطابهما؛ وهكذا كان أبوها وأمها يخاطبانهما.

ظهرت سيارة باجيرو ضخمة لامعة، وانعطفت عند الزاوية، ثم توقفت خلف سيارة والدة زهرة. قالت والدة زهرة: «في البداية، لم أستطع الدخول، والآن، لا أستطيع الخروج».

انفتحت نافذة المقعد الخلفي في سيارة الباجيرو وظهر منها وجه جدّ مريم. سأل: «هل هذه السيارة داخلة أم خارجة؟».

أجابته مريم: «خارجة. هذه زهرة ووالدتها».

انفتح باب الباجيرو، وظهرت منه عصا مشي ذات مقبض فضّي تبعها جد مريم. كان البطريرك، كما تسميه أسرة زهرة، أنيقًا أناقة لا شائبة فيها، كعهده دائمًا. كان يرتدي بدلة «سافيل رو» مقلّمة. لم تكن زهرة تعرف معنى «بدلة سافيل رو»، لكن ذهنها استقر منذ عهد بعيد على أن هذا هو نوع البدلات الوحيد الذي يرتديه البطريرك.

تنهّدت والدة زهرة عندما رأت أن لا مفر من المجاملات التي لا ضرورة لها. أوقفت محرك السيارة وأشارت إلى زهرة بأن تخرج معها. قال البطريرك: «أليس هذا سخيفًا؟ لقد سددتُ عليك طريق الخروج؛ وها أنا الآن أؤخرك أكثر كي أعتذر عمّا فعلت».

قالت والدة زهرة: «لم أرك منذ زمن بعيد». أفلح هذا في الإشارة إلى أنها آسفة لعدم رؤيته، لكن من غير أن تضطر إلى قول كلمات غير صادقة. تحدّثا بضع دقائق -أظهر البطريرك اهتمامًا عميقًا بالمدرسة الجديدة التي صارت والدة زهرة تعمل فيها، لكنه اهتمام لا يمكن أن يكون حقيقيا- في حين كانت الرطوبة الشديدة تحكم الخناق على الجميع. شغّلت والدة زهرة محرك سيارتها من جديد، وتراجعت سيارة الباجيرو كي تفسح لها طريقًا. لوّحت زهرة بيدها مودّعة مريم في حين كان البطريرك يخرج منديله من جيبه ويمسح به وجهه.

قالت والدة زهرة: «يا إلهي! هذا الرجل يجعل جلدي يقشعر. على أية حال، كيف كان يومك؟». كثيرًا ما كان والدا زهرة يقولان هذا عن البطريرك، لكنهما كانا يرفضان دائمًا أن يوضحا ما يرميان إليه.

أخطأت زهرة وأخبرت أمها بأمر تاجر المخدرات.

أجابتها: «أولئك الناس... إنهم يحمون جماعتهم دائمًا».

أشاحت زهرة بوجهها. انتبهت إلى رائحة بودرة التالك التي تفوح من أمها لا إلى رائحة عطرها. كان هذا الأمر الوحيد الذي تستطيع الاعتماد عليه عندما تجد نفسها محتاجة إلى سبب يبرر لها ما تدرك أنه غضب لا

مبرر له إزاء امرأة تعبدها كل فتاة في الرابعة عشرة من معارفها. رائحة بودرة التالك وحقيقة أنها تعتبر وظيفتها الجديدة ترقية مع أن المدرسة التي تديرها الآن (اسمها «أندلوسيا»)، تُعتبر مدرسة «فاشلة» في نظر كل من في مدرسة زهرة لأن المعايير الأكاديمية فيها أدنى مستوى.

راحت زهرة تنظر من نافذة السيارة وتقول في نفسها إن الكبار لا يطاقون... جميعًا. هذه الأيام، يأتيها هذا الإحساس مرات كثيرة؛ وترافقه معظم الأحيان فكرة أن مريم هي الشخص الوحيد في العالم الذي تحب أن تمضي معه الوقت كله. لكن ثمة الآن ما هو مختلف بينها وبين مريم، أمر يمكن تلخيصه كله بما تتذكّره من تلك اللحظة التي جذبت فيها مريم قماش قميصها فشدته على جسدها متظاهرة بأنها لم تتعمد فعل ذلك.

كانت زهرة ترغب في أن تقبّل واحدًا من الأولاد... كانت هذه حقيقة. ثم إن تلك الرغبة لم تكن مقتصرة على التقبيل. أرادت أن تفهم ما كان يجري في جسدها، أن تفهم فهمًا أفضل ذلك الشيء الذي يجعلها تحتضن وسادتها بين ساقيها عندما تكون في السرير، ويجعلها توجّه الماء المندفع من الدوش إلى حلمتي ثدييها. أرادت أن يجعلها شخص آخر تشعر بما تجعل نفسها تشعر به في وقت متأخر من الليل عندما تدسّ يدها بين ساقيها وتتخيل نفسها تسير مقنّعة الوجه في غرفة فيها أولادٌ أكبر سنًا، وتتركهم يفعلون بها أمورًا جديدة، وتفعل بهم أمورًا جديدة، من غير أن يعرف أحد مَن هي. لكن ما من قناع يستطيع تمويه هويتها لأن كل من ترعرعت معهم يعرفون طول قامتها. لذا، لن تفعل شيئًا من هذا كله، لن تفعل شيئًا منه قبل مضي وقت طويل... ربما إلى أن تذهب إلى الجامعة بعيدًا عن الأعين المفترسة في هذا العالم الصغير جدًا الذي تعيش فيه ضمن مدينة فيها ملايين من الناس. لا تستطيع تخيُّل ما هو أكثر هَولًا من أن يتهامس الناس بأشياء عنها ويقولون إنها تصرّفت بطرق لا يصح أن تتصرف بها أي فتاة من أسرة محترمة. في الآونة الأخيرة سمعت أبوها يقول في الهاتف لواحد من أبناء عمومته: «زهرة مسؤولة جدًا، وأنا أثق بها». لم تدرِ تمامًا السبب

الذي جعله يقول ذلك، لكنها شكّت في أن ابن عم أبيها يعبّر عن استيائه من وجود زهرة في مدرسة مختلطة معروفة بأن فيها بناتًا «سريعات». جعلتها إجابة والدها تعتز بنفسها، لكنها جعلتها أيضًا تحسّ أن نفسها تقع تحت ثقل فادح، ثقل أن تكون على مستوى تلك الثقة.

وهناك أيضًا مريم التي لا ترى سببًا لأن يكون لرأي أبيها وأمها -أو لرأي العالم كله- أية علاقة بما ترغب أو بما تفعل حتى تحصل على ما تريد. لم تدرِ زهرة إن كان حمد هو ما تريده مريم. تقول مريم إنه ليس ما تريد، لكنها تكذب أحيانًا. رأتها زهرة تكذب على أبيها وأمها، وعلى المعلمين والطلبة والطالبات، لكنها لم تتعلّم أبدًا كيف تكتشف كذبها. إذ لا يحمرّ وجهها احمرارًا يفضح كذبها، ولا تهرب عيناها، ولا تسرف في الكلام، ولا تتغير نبرة صوتها. تعرف زهرة متى تكذب مريم لأنها -حتى الآن- على علم بكل ما في حياتها. لكنها لم تعد قادرة على أن تكون واثقة من هذا. بدأ بينهما نوع من التباعد الذي سيشهد ازديادًا مع مرور السنين. كانتا تعلمان في قرارة نفسَيهما أن ما من اثنين يظل بينهما في الأربعين من العمر ذلك النوع من الصداقة الذي كان في الرابعة عشرة.

***

أتى المطر أخيرًا. أتى عنيفًا. تكسّرت أغصان الأشجار، وصارت الشوارع بحيرات، وراح الشرار والدخان ينبعثان من عدّادات الكهرباء. جعل المطر الغزير المدينة كلها غارقة في الظلام. لم يدرِ أحد إن كان انقطاع الكهرباء إجراء وقائيًا أم انهيارًا في الشبكة، لأن شركة الكهرباء لا ترد على الاتصالات التي تأتيها عبر خط الشكاوى. من المؤكد أن المدرسة ستظلّ مغلقة يوم غد لأن أحدًا لا يستطيع السير في الشوارع الغارقة. توقيت الأمطار الموسمية في شهر آب معروف؛ ومن السخف ألّا تكون بداية السنة الدراسية ونهايتها في وقت متأخر من الصيف. لكن رد المدرسة على هذا الاقتراح (اقتراح قدَّمه عدد من أولياء الطلبة)، كان أن الطرق والشوارع هي ما ينبغي إصلاحه، لا السنة المدرسية. يقول والد

زهرة: «جمال باكستان هو أن المرء قادرٌ دائمًا على العثور على شخص آخر يلقي عليه باللائمة».

أفضل مكان يستطيع أن يكون فيه الإنسان في كراتشي تلك الليلة هو حيث كانت زهرة: على شرفة شقة من تلك الشقق المواجهة للبحر المشرفة على شاطئ كليفتون مع شبكة واقية من البعوض متدلية حتى قدميها وشمعة على الطاولة عند مرفقها، شمعة تتراقص شعلتها في النسيم الدافئ الآتي من البحر. كانت تأتيها من الظلمة أصوات أمواج البحر المشبعة مطرًا وهي تتكسر على صخور الشاطئ. سيارة تمضي في الشارع ينبعث منها صوت الموسيقى عاليًا تتوقّف تمامًا أمام واحدة من اللوحات القائمة على أعمدة مغروسة في الأرض، لوحات تعلن أن القانون 144 ساري المفعول هنا: قانون يحظّر النشاطات المشتملة على كل ما يعرّض السلامة والنظام العام للخطر. تعلّمت زهرة في دروس التاريخ كيف كان القانون 144 مستخدمًا أثناء فترة الحكم البريطاني لمنع تجمعات المتظاهرين المناهضين للاستعمار. أحسّت الآن بالحرج (نيابة عن بلدها) من أنه صار مستخدمًا لمنع الناس من السباحة في البحر وقت الأمطار الموسمية عندما تصير تياراته شديدة الخطورة.

كم صار العيش شاقًا الآن، في هذا المكان، مع هذا الدكتاتور الكريه ومع الرقابة على التلفزيون ومع العنف اليومي الذي قلّص حياتهم اليومية، وجعلها مقتصرة على الأماكن الخاصة. عندما انتقلوا إلى هذه الشقة، كان أبوها وأمها واضحين في قولهما لها بأن عليها ألّا تعبر الشارع صوب الشاطئ من غير أن يكون معها واحد من الكبار. لكن مريم أتت بعد عدة أيام من ذلك وأقنعتها بأن عليهما أن تتسللا خارجتين عندما لا يكون الأهل في البيت. سارتا معًا على رمل الشاطئ ذي اللون الرمادي الفضي حتى بلغتا البائعين أصحاب العربات الخشبية الذين يشوون الذرة على الجمر. سارت مريم واثقة تصفّر بلحن لم تعرفه زهرة؛ لكن زهرة أحست بنفسها مكشوفة، وراح ذهنها يستعيد قصص الاختطاف التي يتناقلها الطلبة

في باحة المدرسة. في السنة الماضية، فتاة في الصف الثامن تغيب عن المدرسة ثلاثة أيام. صحيح أنها عادت في نهاية الأسبوع وزعمت أن مرضًا أصابها في معدتها، لكن الشائعات التي راجت قالت إنها كانت مختطفة وإن أهلها دفعوا فدية لكنهم لم يريدوا أن يعرف أحد بالأمر لأن الناس سيتساءلون عما جرى للفتاة خلال تلك الأيام الثلاثة التي أمضتها مع رجال مجرمين. أصرّت زهرة على أن تأخذا الذرة إلى البيت لأكلها في غرفتها بدلًا من إطالة البقاء على الشاطئ. اتضح آخر الأمر أن حبات الذرة المنكّهة بالليمون والفلفل الحار كانت شديدة القساوة لأنهم بالغوا في شيّها.

صفعت ذراعها بيدها كي تقتل بعوضة أفلحت في اجتياز الشبكة الواقية، ثم مسحت اللطخة على صفحة من صفحات كتاب التاريخ. أغلقت الكتاب ووضعت السماعة على أذنيها، ثم شغّلت الووكمان. بدا لها بروس سبيرينغستين حزينًا لأنه محشور في ذلك الشريط المتنوع الذي سجلته مريم من «راديو كابيتال» في لندن. انتهت الأغنية، وأتى صوت الـ«دي جي» -أتى ممتلئًا باحتمالات مشرقة من مكان غير هذا المكان- قال: «وهذا ما كان-...»، قبل أن تقطع مريم التسجيل وتنتقل إلى مقدمة أغنية تريسي تشابمان، أغنية من أجل ليالي كراتشي حيث يكون الجلوس في سيارة سريعة مع الأصدقاء والاستماع إلى شريط تسجيل مختلط أجمل ما في الحياة كلها، خاصة إن كان شقيق إحداهن الأكبر يقود تلك السيارة.

ارتفعت يدها إلى شعرها فأبعدته عن رقبتها كي تسمح للنسيم بأن يبلغ جلدها. حتى عندما لا يكون الطقس حارًّا، تظل تلك الرطوبة المُلحّة موجودة في الهواء. رفعت رأسها ناظرة إلى السماء التي صارت الآن مزدحمة بالنجوم بعد أن أفرغت السحب الماطرة أحمالها وتبددت. تركت نفسها تنزلق إلى حالة من الرضا تعرف أنها ستتذكرها بعد بضع سنين عندما تكون في نيويورك أو لندن... ستتذكّرها وتعجَب من ذاتها الأصغر سنًا التي لم تكن مؤمنة إيمانًا تامًّا بالمستقبل الذي ينتظرها. كانت تفاصيل

ذلك المستقبل غامضة، لكنها متألقة كلّها. انفتح باب الشرفة المنزلق وظهر أبوها حاملًا بيده كأس الويسكي الليلية. نزعت زهرة السمّاعة عن رأسها ووضعتها على رأسه فحفرت أخدودًا في شعره الرمادي الخشن. ضغطت على مفتاح التراجع زمنًا قدّرت أنه كاف، ثم شغّلت الشريط من جديد. كان الصوت المتسرّب من السمّاعة كافيًا لأن تعرف أنها أصابت التقدير. عندما استمع أبوها أول مرة إلى أغنية «سيارة سريعة» قال لها: «تريسي هذه لديها صوت. ليست مثل الأخريات اللواتي يعتمدن على جمالهن».

«هذا لطيف، أليس كذلك؟ العيش هنا؟»... أشار بيده كأنه يريد أن يشمل بكلامه نسيم البحر والسماء المرصّعة بالنجوم وموقع الشقة.

تمنت زهرة لو أنها أقصر قامة حتى تستطيع أن تسند رأسها إلى كتفه. لكنها استعاضت عن ذلك بأن شبكت ذراعها بذراعه ومالت صوبه متكئة على جسده المكتنز المريح. منذ بضع سنين، ونتيجة انزعاجه من اضطراره إلى قيادة السيارة من ملعب الكريكيت إلى كليفتون أثناء متابعته واحدة من المباريات كي يوصل ابنته إلى بيت مريم، سأل زهرة عما يمنع مريم من أن تأتي كي تزورها في بيتهم. أجابته زهرة: «لماذا يأتي أحد إلى هذا المكان إن كان يعيش هناك؟». كانت تعني بهذا الشقة التي تسكنها مع والديها في ذلك المبنى الكئيب، وكذلك الحي نفسه الذي كان بعيدًا عن منطقتي «الدفاع» و«كليفتون» حيث يعيش زملاؤها وزميلاتها. استجاب والدها لهذا السؤال بصمت استمر طيلة ما تبقّى من ذلك اليوم. وفي السنة الماضية، عندما شهد دخله الذي يأتيه من عمله مراسلًا للصحيفة الأولى الناطقة بلغة الأوردو زيادة ضخمة بعد أن بدأ يقدّم برنامجًا تلفزيونيًا عن الكريكيت، أخذ زهرة وأمها إلى بناية من ثلاثة طوابق قائمة عند البحر. صعد بهما إلى الطابق الثاني، وفتح باب الشقة بمفتاح أخرجه من جيبه، ثم قال لابنته: «هل هذا جيد بالقدر الكافي من أجل مريم؟».

الآن، كانت شفتاه تتحرّكان، لكن ليس مع الأغنية: عرفت أنه يكرر عبارات استخدمها في الحلقة الجديدة من برنامجه، «*ثلاثة آراء* وعلي

واحد»، التي سوف يجري بثها عمّا قريب. كان النجاح الكبير الذي حققه البرنامج مفاجأة للجميع، فتحول حبيب علي إلى شخصية شهيرة. صار غير قادر على دخول باحة المدرسة كي يأخذ زهرة بعد أن تُعرض حلقة من حلقات برنامجه من غير أن يجتمع الطلبة من حوله للكلام عليها. مهما تكن «الوصمة» الاجتماعية التي لحقت به لأنه كان يكتب لصحيفة ناطقة بالأوردو، لا بالإنكليزية، فقد غسل دوره التلفزيوني الجديد آثار تلك الوصمة كلها، فهذا البرنامج فيه استخدام كثير لعبارات إنكليزية على نحو كافٍ لجعل أي شخص يدرك أن الرجل طلق اللسان في اللغتين معًا، وأنه اختار أن تكون الأوردو لغة تواصله الرئيسية مع الناس لكثرة من يستطيعون متابعتها. في الآونة الأخيرة فقط، صار التكلم بالأوردو ممكنًا في باحة المدرسة من غير أن يتدخّل واحد من المعلمين مؤنّبًا المتكلم بها لأنه انزلق إلى استخدام لغة يقتصر حضورها كله على درس واحد في اليوم مدته نصف ساعة.

قالت له: «صحيح... هذا جميل جدًّا»، وعادت أفكارها إلى السماء والنسيم وإلى البحر الذي لا يفصلها عنه غير الشارع.

كان السجاد لا يزال رقيقًا تحت الأقدام، والأثاث قديمًا، ومشغّل الـ«سي دي» حلمًا بعيدًا. وأما على هذه الشرفة، فهي تستطيع الوقوف مع أبيها ورؤية اعتزازه بنفسه عندما يتأمل ما استطاع تحقيقه من أجله ومن أجل أسرته. في أوقاتٍ مثل هذه الأمسية، يكون الأمر أكثر متعة حتى من وقوفها مع أعز صديقاتها ونظرها إليها وهي تستنشق نسيم البحر، وإدراكها أنها -لو مرة واحدة- تتمنى لو كان هذا لها.

توهج العالم من حولهما. حمت زهرة عينيها من ضوء المصباح الساطع على الشرفة الذي تألق بشكل مخيف: زيادة في قوة التيار الكهربائي من شأنها أن تحرق الأجهزة الإلكترونية كلّها، إن استمرت. لكنها لم تستمر. خفت الضوء وعاد إلى سويته المعتادة. نقر والد زهرة على ساعة يده وقال: «في الوقت الصحيح تمامًا». نفخت زهرة على الشمعة فأطفأتها،

ثم تبعته إلى الداخل كي تتابع برنامج: «*ثلاثة آراء وعلي واحد*». كانت والدتها تجلس في غرفة المعيشة، تقرأ رواية بابسي سيدوا الجديدة «رجل المثلجات». مع دخول زوجها وابنتها، قلبت عدة صفحات رجوعًا كي تقرأ لهما مقطعًا أعجبها كثيرًا.

عبّر الأب عن استحسانه، ثم دار جدل قصير بينه وبين زهرة: مَن منهما سيقرأ الكتاب بعدها؟

قالت له زهرة: «أنت تستغرق زمنًا طويلًا جدًا في قراءة أي شيء»؛ فأجابها: «لم أعرف أنك مهتمة بكتب ليست لها عناوين مطبوعة على أغلفتها بحروف مذهبة». كانت هذه الكلمات الوحيدة التي قالها منتقدًا الروايات الضخمة التي بدأت تلتهمها في الآونة الأخيرة.

ثم بدأ البرنامج فصمت الجميع. لا تزال تحسّ أمرًا غريبًا كلما رأت والدها على الشاشة - كل شيء فيه مألوف لديها، لكنه يصير غريبًا لمعرفتها أن الناس يشاهدونه الآن في مختلف أنحاء البلاد. كان الموضوع الأول في حلقة اليوم مباراة تجريبية فاز فيها فريق «الهند الغربية» على الفريق الإنكليزي؛ وكان يناقش مجريات تلك المباراة بتلك الهيئة الراضية لرجل يعتبر زمن الحكم الاستعماري ذكرى شخصية أكثر منه تاريخًا، مع أنه كان في الخامسة من العمر عندما انتهى ذلك الحكم. صحيح أن حضوره التلفزيوني كان واثقًا ومتمكنًا من نفسه، لكنه يجلس الآن في البيت يسترق نظرات إلى زوجته للتحقّق من استحسانها: استحسان لا تحرمه منه أبدًا، وهو عنده أكثر أهمية حتى من مباراة الكريكيت نفسها. ثلاثة ضيوف يرافقونه على الشاشة دائمًا. تقول والدة زهرة إن سبب وجودهم مقتصر على تبرير اسم البرنامج. لكن الفقرة الختامية التي تحمل عنوان «كيف كان هذا؟» كانت ميدانًا منفردًا لحبيب علي إذ يذكّر المشاهدين بلحظة مهمة في تاريخ لعبة الكريكيت في باكستان، مستعينًا بمقاطع مصوَّرة، أو بمقاطع إذاعية. كثيرًا ما يعود إلى ما قبل عشرات السنين؛ لكن فوز فريق «الهند الغربية» اليوم دفعه إلى استعادة مباراة جرَت منذ بضعة شهور فحسب في

بريدجتاون، مباراة بين فريق «الهند الغربية» والفريق الباكستاني. بالتأكيد، بل بكل تأكيد، لو لم يتخذ الحكام سلسلة قرارات ظالمة، لفازت باكستان في تلك المباراة، ولفازت معها في سلسلة التصفيات كلّها. كان حبيب علي في أحسن أحواله وهو يعيد إحياء تلك المباراة ويذكّر بأهميتها. صحيح أن زهرة -والمشاهدين جميعًا- تعرف تمامًا كيف كانت مجريات المباراة، لكن والدها يعرف كيف يجعل المشاهد متعلّقًا بشاشة التلفزيون، مترقّبًا كلماته، وهو يمضي به عبر مراحل المباراة الأخيرة. لم تنته الفقرة إلا وكانت زهرة على يقين تام من أن باكستان لعبت أفضل من أقوى منافسيها، لكنها لم تستطع النجاة من ظلم الحكام: كانت هذه الخسارة ظلمًا، لا هزيمة!

سألت والدها: «لماذا أحس بأن هذا أكثر سوءًا؟».

«عندما تعيشين في عالم ظالم، تريدين أن تكون الرياضة مكانًا تلتجئين إليه، لا أن تكون شيئًا يذكّرك بالظلم».

رأت في عينيه ذلك الألق، ذلك المزيج الذي ينتجه الأثر المشترك الناجم عن اجتماع الكريكيت والويسكي. لم يكن الكلام على اللعبة والكتابة عنها مهنة له فحسب، بل غاية في الحياة. ففي أمةٍ كلها اضطهاد وخسائر، كانت لعبة الكريكيت نورًا مشعًا، وكانت ميدانًا يستطيع المرء فيه أن يعتز ببلده وأن يتحد مع مواطنيه. تقول لك اللعبة إن الموهبة والعمل الدؤوب وقوة الشخصية ستفوز في نهاية الأمر، وإن هزيمة العمالقة الجبارين أمر ممكن، وإن هزيمة اليوم يمكن، دائمًا، أن يعقبها نصرٌ يوم غد. صحيح أن هناك أخطاء، وهناك ظلمًا، بل حتى قسوة، لكن اللعبة نفسها تظل باقية بعد ذلك كله، تظل متألقة، غير ملوثة. صارت الآن كبيرة إلى حد يسمح لها بإدراك أن والدها يحاول، عندما يخاطب مشاهديه، أن ينقل إليهم شيئًا أكبر من اللعبة نفسها، شيئًا عن الحياة وعن كيفية عيشها باستقامة دائمًا، مع الأمل دائمًا.

مع أنها لا تحب أحدًا في العالم أكثر منه، فقد كانت أحيانًا تجد نفسها

أنها تعتبره رجلًا أحمقَ، ضعيف الاستعداد للعيش في العالم الذي وجد نفسه فيه.

***

في معظم صباحات أيام السبت، يمكن أن تكون مريم موجودة في الملعب الواقع خلف مبنى المكاتب في شركة خان للجلديات تتمرن على ضربات الكريكيت، وعلى رميات الإرسال. كان اللاعبون الآخرون يتغيرون مع انتهاء فترات عملهم في المستودع أو في مبنى العمال المهرة. بعض الأحيان، إذا كانت اللعبة مع واحد منهم جيدة جدًا، تكتب مريم لجدها رسالة نصية تسأله فيها إن كان في وسع هاريس أو لامبو أو كاشف أن يبقى في الملعب وقتًا أطول.

منذ سن مبكرة جدًا، كانت تستمتع بحمل مضرب الكريكيت والانضمام إلى العمال في ذلك الملعب. أول الأمر، كانوا يقذفون إليها بكرات سهلة، وكان المدافعون «يفشلون» في صد ضربات مضربها مطلقين صيحات خيبة أمل مبالغًا فيها. لكن قدراتها لم تلبث أن صارت واضحة، فأرسلها جدها كي تتمرن على يد لاعب دولي سابق. الآن، لم يعد ممكنًا أبدًا أن يعاملها أحد على أنها «حفيدة السيد» لأنها صارت أفضل لاعب في الملعب. في أرجاء المصنع، كان اسمها «مريم بيبي»؛ وأما في الملعب فهي لاعبة ماهرة. لم يقل لها جدها أبدًا إن ملعب الكريكيت هو المكان الذي ستتجاوز فيه ضعف أنوثتها وتعلّم الرجال كيف يرونها قائدة لهم. لكنها أدركت أن هذا هو السبب الذي جعله يصرّ على أن تتلقى تدريبًا رفيعًا.

لهذا السبب، كانت توّاقة للعودة إلى اللعبة بعد الصيف الطويل الذي أمضته في لندن، فطلبت من السائق أبي بكر أن يأخذها إلى المصنع القائم في منطقة «فيدرال ب» في وقت أبكر من المعتاد. بعد أن تركوا تلك الأجزاء من المدينة حيث من المحتمل كثيرًا أن يراهما أشخاص من معارفهم، أوقف أبو بكر السيارة إلى جانب الطريق وانتقل إلى المقعد المجاور.

قبل عشر سنين، عندما كان عمرُ مريم أربع سنين فقط وكانت في طريق العودة من حضانة الأطفال، أمرت سائق الأسرة أن يتوقّف عند بيت ضخم في حديقته شجرة فالسا، ثم جعلته يرفعها فوق السور حتى تقطف عن أغصانها ثمارها ذات اللون الأرجواني الداكن. شاءت المصادفة أن تصل الأسرة القاطنة في ذلك البيت في اللحظة نفسها فترى هذه الفعلة، فعلة السرقة والاعتداء على أملاك الغير. هال ذلك والديها، لكن جدها كان مسرورًا بها. قال إن الغلطة غلطة السائق، وإنها في حاجة إلى شخص موثوق صاحب إرادة قوية كي يرافقها. اقترح لهذه المهمة سائقه أبا بكر، فكانت تلك أول إشارة إلى اهتمامه بمريم. ومع مرّ السنين، توصل أبو بكر ومريم إلى التوفيق بين طبيعتها وواجبه: كان مستعدًا لأن يتواطأ معها في خرق بعض القواعد، لكن ليس عندما يرى أن ذلك يمكن أن يعرّضها إلى الخطر.

الآن، أمسكت بالمقود وسارت بالسيارة واثقة عبر زحام الباصات المزينة بالزينات اللامعة والباصات الصغيرة الصفراء، بين عربات النقل الصغيرة والدراجات الآلية والمشاة الذين يعبرون الطريق أحيانًا. صارت المباني السكنية ومباني المكاتب إلى جانبي الطريق رمادية نتيجة عوادم السيارات. في لحظة من اللحظات، سارت دراجة آلية على مقربة شديدة من نافذة السيارة، وظلت هناك زمنًا طويلًا، فأنزل أبو بكر زجاج النافذة ورفع طرف قميصه حتى يجعل الرجل يرى المسدس الذي في حزامه. انطلق قائد الدراجة مسرعًا، وتابعت مريم سيرها، لكنها تركت أبا بكر يعود إلى عجلة القيادة قبل دقائق معدودة من وصولهما إلى الشركة.

أدّى الحارس عند البوابة التحية بهمّة متناسبة مع الأسابيع الكثيرة التي أمضتها مريم في لندن، ومع شدة ترحيبه بعودتها. أوقف أبو بكر السيارة أمام مبنى المكاتب فخرجت منها وغمرها إحساس شديد بالأرض التي تحت قدميها، إحساس بأن أرض المصنع الكبيرة هذه ميراثها، بأنها مملكتها.

صار جلدها متعرّقًا دبقًا عندما سارت صوب الحدائق التي تظللها الأشجار خلف مبنى المكاتب حيث ستنتظر قدوم لاعبي الكريكيت. عادة ما تكون أوراق الأشجار مثقلة بالغبار، لكن الطقس الماطر في وقت سابق من الأسبوع غسلها وجعل كل شيء يبدو جديدًا، لامعًا. وقفت تحت شجرة وراحت تأكل ثمرة جوافة خضراء مصفرّة قطفتها منها. راقبت ضياء الشمس المتسلل عبر أوراق الشجرة، وأصغت إلى إيقاع آلات القص والخياطة في الداخل. كانت رائحة الجلد الآتي من المدابغ إيحاءً، لا أكثر... لعله إيحاء بفعل الذاكرة... لأن ما من جلود تأتي في هذا الوقت المبكر من النهار. أتى لامبو وهاريس إلى الملعب. كانا يتقاذفان بينهما كرة حمراء اللون. كان كل شيء في العالم مثلما ينبغي أن يكون تمامًا؛ وصارت الأيام غير المتمايزة، أيام لندن التي لا نهاية لها، ذكرى بعيدة جدًا.

لكن الأمر بدأ يسوء أثناء تمرينات الإحماء قبل المباراة. جرت مريم كي تؤدي ضربة الإرسال الأولى. كان ثدياها يعلوان ويهبطان مع كل خطوة تخطوها ساقاها. كانا يتقافزان... إنها الكلمة الوحيدة الصالحة هنا. أبطأت خطواتها فلم تعد مستعدة لضربة الإرسال. كان عليها أن تعود أدراجها وتبدأ من جديد. لم يُظهر اللاعبان أنهما لاحظا شيئًا. لكن، ما الذي يستطيعان فعله غير هذا. جرت من جديد، لكن الوضع كله غير سليم! لم يعد جسدها يتحرك مثلما تريد له أن يتحرك: حركة سريعة، ليس فيها ما يلفت الأنظار. رمت بالكرة إلى لامبو وقالت إنها ستصد ضربته.

هنا، صارت الأمور أفضل قليلًا. كان صوت اصطدام الكرة بوسط مضربها من أعمق المتع في الحياة. انتهى الإحماء، وبدأت اللعبة. كان على مريم وكاشف أن يفتتحا ضربات الإرسال. كانت قادرة على الانحناء قليلًا عند جريها في الملعب، وهذا ما جعل ثدييها المترجرجَيْن أقل وضوحًا، أقل سخفًا. لكنها نظرت إلى قميصها بعد بضع دقائق فقط. تعرّقها جعل نسيج القميص يلتصق بجلدها؛ وهناك، كان شكل حلمتيها واضحًا من خلال النسيج القطني، صار واضحًا لا تخطئه العين.

دست مضربها تحت ذراعها وقالت: «الجو حارّ جدًا. اليوم، يكفي هذا».

عادة ما يناكفها اللاعبون بكلمات خالية من الطابع الرسمي، بتلك الكلمات التي لا وجود لها إلا في الملعب -«صرت شديدة الاعتياد على أجهزة التكييف!»- وأما اليوم، فلم يقولوا شيئًا. بدأ الارتياح على كاشف. جذبت قميصها فأبعدته عن جلدها وظلت ممسكة به هكذا أثناء سيرها إلى مبنى المكاتب.

صعدت السلم واتجهت صوب مكتب جدّها. فتحت الباب. كان جدّها يجلس خلف مكتبه في مقعده الضخم ذي المسندين اللذين يشبهان جناحين. رأته يناول الرجل الجالس قبالته شيئًا. نظر الرجلان صوب الباب الذي انفتح -لمحت وجه الغريب ذا الأنف المكسور عندما التفت- صاح جدها بها، (اخرجي!) قالها بنبرة لا يستخدمها معها أبدًا.

أغلقت الباب، ومضت مسرعة إلى الباب التالي، باب مكتب والدها الذي يكون خاليًا أيام السبت. تجاهلت الآرائك الجلدية والكنبات في ركن الجلوس في أحد جانبي الغرفة وسارت إلى طاولة المكتب فجلست خلفها. فيما مضى، كان هذا المكتب مكتب جدها. علبة الأقلام، وحامل المستندات، ومسند اليدين فوق الطاولة، وعلبة المناديل... كانت كلها من منتجات شركة خان للجلديات. أراحت رأسها على الطاولة، أراحته على ذراعيها، ولم تستطع أن تجد اسمًا لهذا الإحساس بالبشاعة.

أخيرًا، أتى جدها باحثًا عنها.

وسألها: «لماذا لستِ في الملعب؟».

هزت كتفيها وحاولت جعل وجهها يعبر عن أنها غير مهتمة بالأمر.

«لا، لا يجوز أن تتصرفي معي بهذه الوقاحة». قال هذا ودار حول طاولة المكتب حتى بلغ الكرسي. نقر على ظهر الكرسي كي تفهم أن عليها أن تترك هذا الموقع له وتجد لنفسها مكانًا آخر. نهضت واقفة، لكنها لم تنظر إليه.

قال لها: «تعلمين أن عليك أن تدقّي الباب قبل الدخول. لكني آسف لأنني كلمتك بتلك الحدّة».

«ألا تظن أن عليك أن تعرّفني به؟ سوف يكون عليه أن يتعامل معي آخر الأمر».

استند جدها إلى ظهر الكرسي، وراحت أصابعه تنقر على حافة الطاولة، وسألها: «هل تعرفين من هو؟».

«أنت تدفع له مالًا من أجل الحماية. لكن حقيقة الأمر هي أنك تشتري الحماية من الأشخاص الذي يعمل لديهم».

علمت هذا من أبي بكر. وأما بقية الكلام، فكانت تتشكل في ذهنها في تلك اللحظة، «وأنت تدفع له أيضًا مالًا إضافيًا، شيئًا جانبيًا. إنه الاتصال الهاتفي، أليس هذا صحيحًا؟».

يتصل والداها بجدّها عندما يكون بعض معارفهم في حاجة إلى أمر من الأمور. قد يودون أن يُدخلوا إلى البلاد حقيبة من المشروبات الكحولية من غير أن تمر على الجمارك. وقد يكونون في حاجة إلى حجز مقعد في درجة رجال الأعمال في رحلة للخطوط الجوية الباكستانية لم تبقَ فيها أماكن شاغرة. قد يريدون «تصريحًا» يسمح لضيوفهم الأجانب بدخول مناطق لا يجوز للأجانب دخولها. مهما يكن ما يريدون، يقول جدها: «دعوني أجري اتصالًا هاتفيًا»، ثم يرتّب لهم ما يريدون.

قال جدها: «الاتصال الهاتفي ليس شخصًا واحدًا. عليكِ دائمًا أن تنوّعي مصادرك. لكن ما قلتِه صحيح لأن بيلو واحدًا من الأشخاص المستعدين لتقديم خدماتهم مقابل ثمن يحصلون عليه».

قالت: «كيف سيكون شعوره عندما يجد نفسه يتعامل مع فتاة ذات يوم؟».

«كيف هو شعور الفتاة إزاء هذا الأمر؟».

مضت إلى البراد الصغير في زاوية الغرفة وأخرجت منه عبوة من عصير الفاكهة. ثقبت العبوة بطرف القشة وتظاهرت بأنها في حاجة إلى لحظة

للتفكير في الأمر، مع أن رأيها كان واضحًا تمامًا بالنسبة لها. قالت له: «لست أمانع في إعطائه المال حتى يكون مفيدًا لنا». مدّ جدها يده فناولته عبوة العصير. فقال: «لا يرى والدك شيئًا من هذا كله. يريد الأمير الصغير وضع التاج على رأسه مع بقاء يديه نظيفتين. لا يمكن الحصول على الأمرين معًا. لماذا أنت صغيرة السن هكذا؟».

قالت: «أنا في الرابعة عشرة».

«وأنا في الحادية والسبعين». تناول رشفة من العصير امتصها عبر القشة مُصدرًا صوتًا مسموعًا... «إذا كنتِ راغبة في أن تتعرفي على الأشخاص الذين سيكون عليهم ذات يوم أن يأخذوك على محمل الجد، فليس عليكِ أن تدخلي مكتبي عندما يكون مظهرك كأنك واحدة من الممثلات في تلك الأفلام الهندية... عندما يُغرق المطر ثوب الممثلة الأبيض».

طوت مريم ذراعيها على صدرها وأتاها من جديد ذلك الإحساس الغريب، إحساس البشاعة.

***

كانت زهرة تجلس في مقعد السيارة الخلفي، وشفتاها تشتعلان نارًا، مخدّرتين بعد الـ«غول غوباس» في مطعم سِلفر سبون. كان والدها يحب أن يفرحها بأن يأخذها إلى ذلك المطعم مثلما فعل هذا المساء - لا يأخذها إلا بعد أن يتأكد مِن أن ما مِن اختبار مدرسي لديها في اليوم التالي، لأنه من شأن ذلك أن يرغمها على اختيار صعب، بين جولة مراجعة جديدة لدروسها وبين أفضل «غول غوباس» في العالم كله. الآن، صارت سيارة أسرة علي عالقة في زحام منطقة «شاهراه إي فيصل» ولن تصل إلى البيت قبل نصف ساعة على الأقل. يعني هذا أنهم سيتأخرون على موعد برنامج «نيلام غار» - حقًا، لا مشكلة في هذا لأن زهرة تمضي معظم وقت برنامج المسابقات دافنة وجهها في كتابها؛ لكن والدها يحب متابعة طارق عزيز عندما يطرح الأسئلة على المتسابقين، مع أنه يشتمه أحيانًا لأنه خان معتقداته السياسية وطأطأ رأسه للجنرال ضياء الحق، كي يظل محتفظًا ببرنامجه التلفزيوني.

لكن، فكّروا في جميع أولئك الناس الذين سيخسرون جوائز مبردات الماء إن كف برنامج المسابقات عن الوجود. ترد عليه والدة زهرة بأن تناكفه، فتستمتع زهرة أحيانًا بتلك المشاحنات المألوفة؛ لكنها، في أحيان أخرى، يضجرها هذا التكرار الذي لا نهاية له للأحاديث نفسها التي تبدو كأنها جوهر الحياة الزوجية.

عند إشارة السير الضوئية، توقّفت سيارة إلى جانب سيارة أسرة علي. كانت زهرة قد لاحظتها قبل ذلك: سيارة سوزوكي إف إكس حمراء من النوع نفسه الذي كانت أمها تقوده منذ وقت قريب. لكن زجاج السيارة المظلل منحها طابعًا غامضًا، فحولها إلى واحدة من تلك السيارات التي تكون على زجاجها الخلفي صورة سيلفستر ستالون في دور رامبو، أو شعار فيراري، أو عينان أنثويتان مع الكثير من مستحضرات التجميل. أحيانًا، تأتيها لحظة نشوة عابرة عندما يخفض شبان يقودون سياراتهم زجاج نوافذهم وينظرون إليها تلك النظرة التي تكاد تقول: *فقط، لو أن أباك وأمك ليسا هنا!* تعلم زهرة أن عليها أن تشيح بنظرها على الفور عندما يفعلون ذلك، لكنها لا تشيح بنظرها أحيانًا. يجعلها وجود أبيها في المقعد الأمامي مطمئنة لمعرفتها أن هناك من يمنع أولئك الشبان من ملاحقتها.

تراجعت سيارة السوزوكي قليلًا إلى أن صارت نافذة السائق قبالة نافذتها. في المقعد الأمامي، كان أبوها وأمها غارقَيْن في مناقشة ما سيطلبانه من القصّاب الجديد في «سوق الدفاع» بعد أن نُصحا بتجربته. أنزل السائق زجاج النافذة وزمّ شفتيه ناظرًا إلى زهرة. كانت شفتاه حمراوين ممتلئتين، ومن فوقهما شارِب يشبه شارِب توم سيليك في مسلسل ماغنوم. كان أكبر سنًا من معظم الشبان الذين يحبون قيادة سياراتهم بمحاذاة الفتيات، أو ملاحقتهن في الطرقات؛ لكنه لم يكن كبير السن إلى ذلك الحد الذي يجعله مقزّزًا. نظرت زهرة إلى والدَيها، ثم عادت عيناها تنظر إلى الرجل. مسّت أصابعها ياقة بلوزتها عند ترقوتها، ثم سحبت أصابعها بضعة سنتيمرات.

انسحبت البلوزة مع الأصابع كاشفة القسم الأكبر من الكتف وعن بياض شريط حمّالة الثديين.

رفع الرجل إحدى يديه عن مقود السيارة وخفضها إلى حجره. في الروايات، كثيرًا ما تأتي كلمة «خِفيةً» مع ما أدركت أن الرجل يفعله؛ لكنه لم يشأ إخفاء شيء بل أرادها أن تعرف ما كان يجري. راحت يده تتحرك جيئة وذهابًا، وتعلقت عيناه بوجهها. من جديد، ألقت نظرة صوب المقعد الأمامي، لا يزال والداها ماضيَين في حديثهما، غير منتبهين. تحوّل لون الإشارة الضوئية إلى البرتقالي. دسّت إصبعًا تحت رباط حمالة الثديين ودفعته حتى نزل منزلقًا على انحناءة كتفها. قالت لها شفتا الرجل: «عاهرة». تحرّكت سيارة والدها. وأما الرجل الذي كان انتباهه منصرفًا إلى أمر آخر، فقد تأخر عن اللحاق بهم.

أعادت زهرة رباط حمالة الثديين وياقة القميص إلى وضعيهما؛ وكان قلبها يخفق مجنونًا. انتبهت على الفور إلى إحساسها بالعار، ذلك الإحساس الذي داهمها لحظة دعاها الرجل عاهرة. لكن، من تحت ذلك الإحساس، من بعد ذلك الإحساس، كان ثمة أمر آخر شق طريقه إلى وعيها، أمر رائع جعل الخدر الذي في شفتيها ينتقل إلى جوفها فيملأها كلها، يتغلغل فيها أعمق مما عرفته في حياتها كلها. كان معها في السيارة كتاب، مثلما يكون معها دائمًا. وضعت الكتاب في حجرها وأدخلت يدها تحت الكتاب. انفرجت ساقاها قليلًا، وضغطت أصابعها نزولًا. أغمضت عينيها، لكنها أدارت وجهها تاركة شعرها يحجب تعبير وجهها. إذا التفت أبوها وأمها إليها، فلن يريا إلا زهرة نفسها التي كانت جالسة في السيارة قبل خمس دقائق. وكان هذا -عدم معرفتهما ما يجري- جزءًا من لذة تلك الأمسية. من الممكن أن تكون مرغوبة مثل أية فتاة أخرى. ومن الممكن أن تستجيب إلى تلك الرغبة من غير أن يدري أحد. سَرَت فيها مسرّة تلك الفكرة، وازداد ضغط يدها بين ساقيها.

***

بعد ظهر يوم الأحد، رنّ جرس الباب رجل طويل القامة، منتصب الظهر. ذهبت زهرة إلى الباب وحيّت الرجل عبر النافذة ذات الشبك المعدني؛ حيّته بكلمة «Hello» بنبرة متسائلة. أجابها بـ«السلام عليكم» واضحة جعلتها تتراجع معتذرة إلى عبارة «وعليكم السلام». في تلك اللحظة، كان أبوها قد أتى إلى الممر، فنظر الرجل عبر النافذة وناداه، «هابو»، بالاسم الذي لا يخاطبه به إلا أصدقاءه القدامى من أيام المدرسة. رحّب به أبوها مظهِرًا قدرًا من الحماسة، ثم عانقه بعد أن فتحت زهرة قفل الباب كي يدخل. لكن أباها قال بصوت أعلى مما كان ضروريًا: «كنتَ عقيدًا عندما سمعتُ أخبارك آخر مرة. فأين أصبحت الآن؟». أدركت زهرة أن هذا تحذير لها ولأمها من قول ما لا ينبغي قوله ومن افتراض ما لا ينبغي افتراضه في حضور هذا الرجل.

كان الرجل عميدًا. إن لأمها ابن عم في البحرية، ولأبيها ابن أخ في القوات الجوية؛ لكن شخصًا برتبة عميد في الجيش كان شيئًا مختلفًا تمامًا. لحقت زهرة بأمها إلى المطبخ وسألتها: «لماذا هو هنا؟». عند وصوله، كانت شاميما في استراحة بعد الظهر، فأعدّت زهرة عربة الشاي، في حين سكبت أمها زيتًا في المقلاة لإعداد فطائر الباكورا.

قالت أمها: «سمعتِ ما قال». كان الرجل قد قال إنه كان مارًا بسيارته فأحبّ أن يتوقف كي يرى صديقه القديم، والدها، الذي يشاهده على شاشة التلفزيون كل أسبوع، لكنه لم يره شخصيًا منذ زمن بعيد جدًا، ولم يقُل كيف عرف مكان إقامة صديقه القديم بعد عشرات السنين من آخر لقاء بينهما.

سأل العميد والدة زهرة عندما عادت إلى غرفة المعيشة، وزهرة تسير خلفها وهي تدفع عربة الشاي أمامها: «ما شعورك بعد أن صار لك زوج من المشاهير؟ يتابع الجميع برنامجه... الجميع. هل تعرفين أن الرئيس نفسه معجب به؟».

قالت والدة زهرة: «لم أكن أعرف هذا». وقال أبوها: «أهو معجب بالبرنامج حقًا؟».

ابتسم والدا زهرة وبدا عليهما ارتياح لما سمعا، لكن من غير كبير اهتمام. أشار والدها إليها بأن تناول العميد طبقًا وبضع فطائر باكورا. وسألته أمها كيف يحب الشاي.

تناول العميد الطبق من زهرة من غير أن يبدو عليه ما يشير إلى أنه انتبه أن زهرة مدت ذراعها إلى أقصاها حتى لا تضطر إلى الاقتراب منه أكثر مما هو ضروري. قال: «الحقيقة... تعرف أن الجنرال ضياء مولع كثيرًا بلعبة الكريكيت». نظر إليها أبوها نظرة تحذير فاقتربت من الرجل خطوة، «هو من أقنع عمران خان بالتراجع عن اعتزاله كي يقود الفريق عندما ذهب إلى الهند الغربية. أنت تعرف هذا! ألا تعرفه، يا هابو؟».

قال أبوها: «بالطبع، بالطبع».

تناول العميد قضمة من الفطيرة. قال لزهرة: «يا ابنتي، أليس لديكم كاتشب؟».

تواردت إلى ذهن زهرة صورة عبوة الكاتشب الفارغة، العبوة التي كان ينبغي شراء واحدة غيرها في وقت سابق من الأسبوع. لقد ذهبت إلى سوبر ماركت دلتون كي تشتري بضعة أشياء في حين كان أبوها يشتري الخضار من متجر يقع إلى الناحية الأخرى من الشارع، لكنها وضعت سلة التسوّق عند صندوق المحاسبة، فوبخها الرجل الذي يعمل عليه لأنها وضعت عبوة الفوط النسائية في أعلى السلة. قال لها إن هذه الأشياء ينبغي أن تظل دائمًا بعيدة عن الأنظار، ثم أسرع فغلّف العبوة بكيس من النايلون وربط مقبضيه في عقدة محكمة لم تترك أية فتحات يمكن لأحد أن يرى شيئًا من خلالها. اضطربت زهرة، وارتبكت ونسيت أن تأخذ الكيس الثاني الذي وضع فيه الرجل بقية مشترياتها. ثم وجدت نفسها في حرج شديد منعها من أن تشرح لوالدَيها ما حدث. قالت إنها نسيت أن تشتري الكاتشب وعصير البرتقال. ويوم أمس، قلبت عبوة الكاتشب القديمة رأسًا على عقب كي تستطيع أن

تستخلص منها ما بقي فيها لتأكله مع رقائق البطاطس. الآن، لم يبق فيها شيء. وعلى العميد أن يأكل فطائره جافة.

قالت أمها: «لدينا صلصة تشوتني»، ثم قرّبت الصلصة منه.

قال العميد: «هذا أفضل كثيرًا»، فأحسّت زهرة بأن الانقباض في صدرها قد خفّ قليلًا.

قال العميد وهو يغمس فطيرة باكورا في الصلصة: «كنت أتساءل... كنت أتساءل، يا هابو، إن كنت الشخص الوحيد في البلاد الذي لا يعرف أن تدخّل الرئيس هو ما جعل عمران يقود الفريق بتلك الطريقة الرائعة في الهند الغربية - وبالطبع، كان من المؤكد أن نفوز بالبطولة لولا تحيّز الحكام. الجميع غاضب على أولئك الحكام. حتى أنت كنت غاضبًا ذلك اليوم في التلفزيون. لكني أقول إنهم وطنيون وإنهم لم يحبّوا أن يخسر فريقهم أمام فريق أجنبي. يمكنني فهم هذا، بل إني معجب به أيضًا».

كانت زهرة واقفة، تحمل صحن الفطائر بيدها. صبّت أمها الشاي، لكنها لم تناول أحدًا فنجانه. صارت ابتسامة والدها عريضة، لكن من غير معنى.

قال والدها للعميد، «ندرك كلنا الدور الذي قام به الرئيس». سادت لحظة صمت طويلة مدّ العميد خلالها يده فناولته والدة زهرة فنجان الشاي معتذرة منه. ثم أضاف بصوت خافت جدًا: «ونحن شاكرون له أيضًا».

قال العميد: «يسرني سماعك تقول هذا. هذه الفطائر ممتازة حقًا. نسبة النعناع في الصلصة مناسبة تمامًا. أتعلم أنني فكرت الليلة الماضية في أنك كنت تتكلّم عن المباريات كل أسبوع، في موسمها، لكنك لم تذكر الجنرال ضياء أبدًا. لم تذكره الليلة الماضية أبدًا. كما قلت لكَ، هو من المعجبين ببرنامجك؛ ولا بد أنه كان يشاهده. ليس الرئيس واحدًا ممن يطلبون مديحًا أو شكرًا، لكن، مع ذلك، يظل مخلوقًا بشريًا. أظنه -وهذا ظن، لا أكثر - قد أحس شيئًا من الانزعاج».

جاءت والدة زهرة ووقفت إلى جوار زوجها حاملة فنجان الشاي كي

تناوله إياه. رفع رأسه ونظر إليها، ثم نظر إلى زهرة قبل أن يعود إلى العميد مبتسمًا تلك الابتسامة التي لا تشبه ابتسامته أبدًا.

«سوف أتذكّر أن أُشيد بما فعله الرئيس عندما أتحدّث عن المباريات».

قال العميد: «لعلك تفعل هذا في الحلقة القادمة... بضع كلمات شكر من أجل الوطن».

قالت والدة زهرة كأنها مازحة: «أوه، لا جدوى من محاولة جعل زوجي يكشف عما سيقوله في حلقة الأسبوع القادم. يتعامل مع هذا الأمر كأنه سر من أسرار الدولة».

ضحك العميد ضحكة عميقة بدت كأنها من بطنه. قال: «لا يحب أبدًا أن يكشف عن أي شيء، حتى عندما كان في المدرسة. هل أخبرك عن تلك المرة عندما عبث بدراجة المعلم؟ كم كان عمرنا آنذاك؟ هل كنا في العاشرة؟».

لم يمكث طويلًا بعد ذلك. بضع نكت، وبعض الذكريات، وأسئلة مهذبة عن مدرسة والدة زهرة الجديدة وعن أداء زهرة في مدرستها. وعندما نهض كي ينصرف، عانق والد زهرة من جديد وقال: «نحن صديقان، يا هابو، على الرغم من مضي تلك السنين كلها».

قال والد زهرة: «أنا في غاية الامتنان لزيارتك». وللمرة الأولى، فكّرت زهرة في الطرق الأخرى التي كان ممكنًا إيصال هذه الرسالة من خلالها. تبادر إلى ذهنها أن عليها ألا تكره هذا الرجل ذي الظهر المنتصب، بل أرادت أن تقبّل يده.

انصرف العميد وأغلقت والدة زهرة نافذة الباب الشبكية، ثم أقفلت الباب، أقفلته بالقفلين معًا. خرج والدها إلى الشرفة ووقف هناك برهة. عندما استدار آخر الأمر وأومأ لأمها برأسه، علمت زهرة أن سيارة العميد قد ابتعدت.

قالت زهرة: «ماذا سيحدث الآن؟».

جلس أبوها وأمها على الأريكة متقاربين، وعدّل والدها الوسادة

الصغيرة خلف ظهره. لكن زهرة ظلت واقفة حيث كانت. رفعت إحدى قدميها عن الأرض وظلت واقفة على قدم واحدة، لا لسبب إلا لأن عملية التوازن هذه تمنحها شيئًا تركز انتباهها عليه كي تهرب من ذلك الإحساس بالخواء في أعلى بطنها.

قالت أمها: «تستطيع أن تذكر حقائق حيادية».

أجابها: «كان من غير الممكن أن تجري المباريات على هذا النحو الممتاز لولا قدرات عمران الذي نعرف جميعًا أنه عاد عن اعتزاله نزولًا عند طلب الرئيس».

مدت يدها إلى الفطائر التي لم تمسها أثناء وجود العميد في بيتها. قالت: «أليس هذا حادًّا بعض الشيء؟ '*نعرف جميعًا*' ألن تبدو كأنك تقول: لماذا تجعلونني أذكر ما هو واضح للجميع؟».

قالت زهرة: «يريدون منك أن تشكر الرئيس. عليك أن تشكره».

«لن أشكر ذلك الرجل، يا ابنتي. ينبغي أن أظلّ قادرًا على النظر في عيني إقبال».

إقبال... صديق والدها وزميله في وقت من الأوقات. لقد كان واحدًا من الصحافيين الذين أعلنوا الإضراب عن الطعام احتجاجًا على الرقابة المفروضة على الصحافة منذ أولى سنوات الحكم العسكري. اعتقلوه مع ثلاثة صحافيين آخرين، وجلدوه. جلدوا كلًا منهم عشر جلدات. كانت زهرة آنذاك في الرابعة من عمرها. تذكّرت كيف دخلت غرفة أبيها فوجدته مستلقيًا على سريره محدّقًا في السقف وعلى وجهه شيء غريب لم يلبث أن اتضح لها أنه دموع. كانت تلك واحدة من أولى ذكرياتها، لكن سنوات كثيرة مرّت قبل أن يقدّم إليها أبوها وأمها المعلومات الضرورية لفهم معنى تلك الذكرى.

قالت زهرة: «أرجوك، يا بابا. أرجوك».

أتى إليها واحتضنها بين ذراعيه. قال لها: «ما هذا؟ ما هذه الدموع؟».

قالت: «سوف يؤذونك». لقد قيّدوا يدي إقبال وقدميه إلى إطار من الخشب، واستخدموا حزامًا كي يثبّتوا جذعه على ذلك الإطار.

قبّل والدها شعرها وقال: «أوهووو! لا يفعلون ذلك النوع من الأمور من أجل هذا. في أسوأ الأحوال، سيمنعونني من الظهور الإذاعي والتلفزيوني مثلما فعلوا مع إقبال بانو عندما غنّت قصيدة فايز. لا بأس. سأظل قادرًا على الكتابة في الصحيفة».

قالت أمها: «سيكون عليهم أن يغيروا اسم البرنامج، أو أن يعثروا على خبير كريكيت آخر اسمه علي».

قال أبوها: «من الأسهل كثيرًا أن يعثروا على علي آخر».

كانا يتكلمان من غير أن يبدو عليهما أنهما يعيران الأمر كبير اهتمام. لكن زهرة كانت قادرة على رؤية خوفهما. فمنذ أبعد ما تستطيع ذاكرتها استعادته، كان لديها هذا الإحساس بالخطر الماثل من حولها، الخطر الموجود في كل مكان. قُل كلمة خاطئة، أو ادخل شارعًا خاطئًا، أو اسمح لنفسك بأدنى قدر من التجاوز، ولسوف يثب عليك مخلوق بشع غير معروف وينشب مخالبه في لحمك. والآن، صار هذا المخلوق هنا، وسطهم؛ وقد دخل متنكرًا في هيئة صديق كي يؤكد فكرة أن ما من شيء آمن، وما من أحد آمن، وما من مكان آمن. تشبّثت بأبيها وأحسّت بطرواة لحمه، أحست بعظامه التي لا يصعب كسرها.

قال لها: «سيكون كل شيء على أحسن ما يرام»، فكان هذا أكثر غباء من كل ما سمعته منه في حياتها كلها.

***

في يوم أربعاء، كانت زهرة ومريم مستلقيتين على أرض غرفة مريم لأن بلاطها أكثر برودة من أي سطح آخر بعد ثلاث ساعات من انقطاع التيار الكهربائي. اتفقتا قبل دقائق على أن أثر تكييف الهواء المركزي لم يبق منه شيء، اختفى، وعلى أن الوقت قد حان لفتح النوافذ كي يدخل النسيم،

مهما يكن ذلك النسيم، لكن أيًا منهما لم تكن قادرة على احتمال مشقّة النهوض عن الأرض.

كانت مريم منبطحة على بطنها تنظر في نماذج جديدة محتملة لشعار شركة جدها، تلك النماذج التي صممتها باستخدام برنامج «MacPaint». كان حرفا K و L في شعار الشركة الحالي يبدوان عتيقي الطراز أكثر منهما كلاسيكيين؛ لكنها شكّت في إمكانية إقناع جدها باستخدام حرفين أصغر حجمًا في الشعار الذي ستقدمه إليه كي يكون بديلًا عن الشعار القديم: حرفان كأن كل واحد منهما انعكاس للآخر، منحنياتهما متشابهة تمامًا. كانت زهرة مستلقية على ظهرها واضعة رأسها على ظهر مريم كأنه وسادة. وكانت تقرأ، في مجلة، مقالة عن نيلسون مانديلا، أو تتظاهر بالقراءة لأن مريم لم تسمعها تقلب الصفحة منذ وقت طويل مع أن من عادتها أن تقرأ بسرعة البرق.

سألتها مريم آخر الأمر: «هل أنت غاضبة مني؟». كانت تدرك أن زهرة قد سمعت حمد يقول لها *«كلميني اليوم»* عندما مرَّ بهما في باحة المدرسة وقت الانصراف. توقّعت أن يعقب ذلك استجواب. لكن زهرة لم تذكر الأمر أبدًا. الحقيقة أنها لم تقل أي شيء خلال ذلك النهار كله.

أجابتها زهرة بصوت غريب: «لا».

«إذًا، ما الأمر؟».

قالت زهرة: «لا شيء». ثم أضافت بعد لحظة، «مسألة عائلية».

«أوه، لا بأس. طيب، إذا أردت الكلام في أي شيء، فأنا هنا».

«أعرف هذا. شكرًا».

انفتح الباب وأطلّ وجه والد مريم. قال لهما: «لدينا ثلج جليد. إنه في الخارج».

نهضت الفتاتان عن الأرض وتبعتاه خارجتين إلى الحديقة حيث كان واحد من الحراس يستخدم عقب الكلاشنيكوف في تكسير لوح جليد كبير. كانت شظايا الجليد تلمع متطايرة في الهواء. أتوا بالجليد من البازار،

يعني هذا أنه غير صالح للشرب، لكن يمكن وضعه في أحواض كبيرة من البلاستيك وإضافة ماء من خرطوم الحديقة إليه.

قالت مريم وزهرة: «آآآآآه». جلستا على العشب جنبًا إلى جنب تغمران أقدامهما في حوض واحد فيه ماء وجليد. جلس والدا مريم على كرسيين من الخيزران ووضع كل منهما قدميه في حوضه. كان ظل شجرة الغلمُهار وارفًا، وأزهارها حمراء كالنار. حملت شقيقتا مريم الصغيرتان حوضًا وسارتا به إلى آخر الحديقة حيث تستطيعان أن تقهقها معًا وتتكلما في ما قد يكون بينهما من أسرار.

كان والد مريم قد أتى من البيت بدراقة كبيرة. قطعها إلى نصفين ففاح عبيرها في الهواء. سار الحارس عائدًا صوب الممر وهو يمسح عقب بندقيته بيده ويرطب رقبته بالماء البارد.

«ما رأيكِ؟»، سألتها مريم، ووضعت أمامها ورقة أتت بها معها... «تصميم الشعار الجديد».

انحنى والدها صوبها: «هل هذا من أجل صف الكمبيوتر في المدرسة؟».

قالت: «لا. إنه من أجل الشركة».

أطلق والدها صوتًا فيه مزيج من الإعجاب وقلة الاهتمام، واستخرج النواة المتغضنة من الدراقة الصفراء الذهبية.

قالت أمها: «أنت مولعة حقًّا بالعمل على الكمبيوتر. هل تظنين أن لهذا مستقبلًا؟».

«هل أظن أن للكمبيوترات مستقبلًا؟».

«لا، بل لعملك على الكمبيوتر».

«في شركة خان للجلديات؟ نعم، بالطبع. سرعان ما نتحول إلى استخدام الكمبيوتر في كل شيء».

«لا أعني هذا. ما أعنيه هو أنه ربما كان عليك أن تتخيلي لنفسك مستقبلًا آخر، في مكانٍ آخر».

«ولماذا أفعل هذا؟».

قال الأب: «زهرة، أنت تخطّطين للذهاب إلى الجامعة خارج البلاد، أليس هذا صحيحًا؟ هل تظنين أنك ستبقين هناك؟».

«أسرتي ليست لديها شركة هنا». قالت زهرة هذا ومسّت مريم بأصابعها كأنها تقول لها إنها تتخذ جانبها مهما يكن ما يقوله أبوها وأمها.

أتت الأم إلى الفتاتين. قالت: «إن في الخارج إمكانات كثيرة جدًا». غير أنها، عندما همّت بالجلوس، مست كفّ يدها بقعة التراب الرطبة حيث انسكب الماء من الحوض فاكتفت بأن قرفصت بطريقة غريبة كي لا تبتلّ ملابسها... «إمكانات كثيرة، من غير إنذارات بوجود قنبلة في المدرسة، ومن غير حرّاس عند البوابة».

قالت مريم: «لسنا في حاجة إلى حراس. إنهم رمز للمكانة الاجتماعية لأن أصدقاءكما جميعًا لديهم حراس مثلهم».

قالت أمها: «هل تعلمين عدد أصدقائنا الذين أتى إلى بيوتهم من سددوا أسلحة إلى رؤوسهم؟».

ما تعلمه مريم هو أن تلك القصص كلها عن حوادث السطو المسلح في منتصف الليل جعلت أمها تصرُّ على أن تنام بناتها بملابس «محتشمة» بدلًا من قمصان النوم التي اعتدن ارتداءها. نعلم أيضًا أن أحدًا ممن تعرضوا لحوادث السطو تلك لم يصِبه أذى، بل خرج بقصص تنافس قصص الآخرين وظل يرويها أسابيع كثيرة بعد ذلك.

قالت مريم: «على أية حال، اتفقنا أنا وجدي على أن أذهب إلى الجامعة في الخارج ثم أعود كي أبدأ العمل في الشركة».

نهضت أمها واقفة وقالت: «نحن والداك حتى وإن كنتما، على ما يبدو، أنت وجدك، تنسيان هذه الحقيقة».

قال لها الأب بنبرة محذّرة: «زينو!».

رفعت والدة مريم يدَيها في الهواء وقالت: «ماذا سينتج عن هذا؟».

قال الأب: «كفاكِ الآن». ثم ناول زوجته قطعة من الدراقة ومد الطبّق صوب ابنته وزهرة.

مدت مريم يدها كي تأخذ هدية السلام هذه؛ وكانت سعيدة لأن ذِكر جدها كان كافيًا لإنهاء هذا الحديث الذي لا ضرورة له.

***

بعد الحديث الأول الذي أعقب زيارة العميد، صار والدا زهرة يرفضان مناقشة الأمر في حضورها. علمت أن أباها زار عددًا من أصدقائه طالبًا النصح - أصدقاء المدرسة الذين يعرفون العميد، وأصدقاء صحافيون أمضوا سنوات طويلة في استكشاف طريق وسط بين الضمير وسلامة العاقبة. لكنه لم يقل شيئًا لزهرة غير: «كُفي عن القلق. سيكون كل شيء في أحسن حال». لو كان واثقًا من أن كل شيء سيكون في أحسن حال، فلماذا أخذ الأسرة كلها إلى مطعمهم المفضل «يوان تونغ»، مع أن اليوم التالي كان يوم مدرسة؟ ولماذا أصرّ كثيرًا على أن تضع زهرة دروسها جانبًا وتخرج معه في نزهة طويلة عند البحر حكى لها فيها قصصًا من أيام طفولته؟ لماذا يمسك بيد زوجته عندما يجلسان ليلًا ويتابعان أفلام فيديو مستأجرة؟

سألت زهرة أمها عندما أتت لأخذها من بيت مريم في حين كان أبوها لا يزال في استوديو التلفزيون يسجل حلقة البرنامج الذي سيجري بثها ذلك المساء: «ماذا قال؟».

أجابتها أمها: «لا أعلم. لم يكن قد اتخذ قرارًا حتى هذا الصباح».

عادة ما تدخل زهرة غرفتها مع مسجلتها بعد عودتها من بيت مريم. لكنها جلست هذا المساء في غرفة المعيشة كي ترى والدها لحظة دخوله البيت. أتت أمها وجلست معها على الأريكة. في يدها رزمة من أوراق اللعب. لعبا معًا، ثم لعبا من جديد. كانتا ترميان الأوراق سريعًا على الوسادة بينهما.

في منتصف اللعبة، أحسّت زهرة أن أطرافها فقدت قوتها. وضعت

الأوراق من يدها ونظرت إلى «ملك السباتي» المحدّق فيها حاملًا بيديه سيفين... وجهه من غير تعبير. مهما يكن ذلك الذي سيحدث، لماذا لا يحدث الآن؟ لم تكن قادرة على احتمال يوم آخر من هذه الحياة العادية التي ليس فيها أي شيء عادي. على نحو مفاجئ، صارت الأفعال العادية جدًا -كأن تُناوِل أباها المملحة- قادرة على أن تصير مثقلة بالمعاني. ماذا إن أخذوه وصارت غير قادرة على أن تناوله المملحة بعد الآن؟ صار كل شيء أكثر غرابة لأن والدَيها قالا لها ألا تخبر أحدًا بما جرى. كان معنى هذا أن مريم لا يجوز أن تعرف بالأمر. لو عرفت، فسوف يصبح كل شيء أكثر سهولة، لمجرد أنها تعرف.

سمعت والدها يغني وهو يصعد السلم. قالت زهرة: «أوه، لا». لقد كان يغني قصيدة فايز المحظورة التي أدتها إقبال بانو في «الحمراء» في لاهور منذ سنتين، فأثارت لدى الجمهور حماسة كبيرة لم تلبث أن تحولت إلى صرخات تدعو إلى الثورة. إنها من أوسع المغنين شعبية في باكستان. لم تظهر على شاشة التلفزيون بعد ذلك، ولم تظهر في أية مناسبة رسمية.

قالت أمها: «هذا الرجل!». هزّت رأسها، لكنها كانت باسمة.

دخل والدها وفتح ذراعيه على اتساعهما. وقال: «يا حبيبتيّ». فانجلى ثقل الأيام الماضية كله عنه.

نهضت زهرة واقفة وقالت: «ماذا قلت؟».

قال: «لا شيء»، ثم رسم بيده إشارة X في الهواء كأنه يمحو كل شيء... «لم أذكر الرئيس ولو مرة واحدة، تمامًا مثلما يكون الأمر في كل أسبوع، تمامًا مثلما سيكون الأمر كل أسبوع. فليأتوا ويعتقلوني لأنني لم أقل شيئًا. فليكشفوا خوفهم وعجزهم!».

قالت أمها: «لا بأس، لا بأس، يا بطل! لن يعتقلك أحد. كف عن إخافة ابنتك!».

صاحت زهرة: «ماذا أصابكما، أنتما الاثنين؟»، ثم جرت فدخلت غرفتها.

أتى إليها أبوها. حاول أن يشرح لها أن قراره ليس غبيًا. لقد كلّم أشخاصًا كثيرين واستفاد من نصائحهم القيّمة. لا تود الحكومة أن تظهر بمظهر الضعف؛ وأي ضعف أكثر من اعتقال رجل أو إبعاده عن التلفزيون لأنه لم يقل «شكرًا». سوف يتجاهلونه، ولن يحدث شيء غير ذلك.

قالت: «أنت تخمّن الأمر تخمينًا. وأنت تأمل في أن يكون هكذا. من أجل ماذا؟ لن تكسب شيئًا. لن تكسب أي شيء على الإطلاق».

نهض وقال لها: «كان هذا الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله. آمل أن تفهمي ذات يوم».

خرج من الغرفة فأقفلت زهرة الباب من خلفه. أدارت المفتاح في القفل يمينًا ويسارًا حتى تتأكد من سماعه الصوت. شغّلت أغنية بروس سبرينغستين ورفعت الصوت إلى أقصى ما تستطيعه الآلة من غير أن تبدأ مكبرات الصوت هسيسها. راحت ترقص. رقصت رقصًا سريعًا، جامحًا، وحاولت أن تنفض عنها كل شيء غير الموسيقى. كانت لا تزال ماضية في رقصها عندما رُن الهاتف. خفضت صوت الأغنية. تعلم أن المتصل هو العميد. لقد علموا الآن. وقد جاءت العاقبة. كانت فرقة «بت شوب بويز» تغني *إنها، إنها، إنها غلطة*.

صاحت أمها منادية والدها. جرت زهرة خارجة من غرفتها في اللحظة المناسبة فسمعت صوت أمها الفرح: «لقد مات! لقد مات. قتله أحدهم آخر الأمر».

قال أبوها: «ماذا؟»؛ فأجابته زوجته: «انفجرت طائرته».

قال: «أليست هذه شائعة؟».

أجابته: «لا. تأكد النبأ».

لم ينطقا اسمه؛ لكن ثمة شخصًا واحدًا يمكن أن يكون مقصودًا بكلامهما، وقد وقفا معًا وأمسك كل منهما يد الآخر.

قالت زهرة: «لا يمكن أن يموت».

التفت والداها صوبها. انفكّت يداهما، وفتح كل منهما ذراعيه لها كي تأتي وتعانقهما.

قال أبوها: «يا إلهي! اليوم من بين الأيام كلّها! الشكر لله. عدتُ مؤمنًا من جديد».

«لكن، ماذا سيحدث الآن؟». لم تدرك سبب عدم ظهور أي خوف عليهما. من غير الدكتاتور الذي حكم البلاد طيلة حياتها تقريبًا، من عساه يعلم ماذا سيحدث؟

قال أبوها: «الآن، سنرى. وسوف ترين ما تستطيع هذه البلاد أن تكونه».

نطقت أمها الكلمات التي لم يكن تخيُّلها ممكنًا: «انتخابات. بنازير بوتو».

راح أبوها يبكي بطريقة أنبأتها بأن الدموع التي ذرفها عندما هزمت باكستان إنكلترا في مباراة الكريكيت لم تكن إلا تمرينًا من أجل هذه اللحظة، من أجل هذا الانعطاف في التاريخ، هذا الانعطاف صوب النور. احتضنت زهرة والديْها لأنها لم تشأ أن تكون الشخص الذي يقول لهما إنهما مخطئان. لم يحدث شيء من هذا، فكيف يمكن أن يحدث؟ سوف يأتي دكتاتور آخر، وسيكون أسوأ من سابقه.

شغّل أبوها التلفزيون. ظهرت على الشاشة رسالة تقول إن البث المعتاد سوف يُستأنف عما قريب. وقفت زهرة مع أبيها وأمها ينظرون إلى تلك الرسالة، ثم فتح أبوها درجًا في الخزانة وأخرج آلة التصوير فالتقط صورة للشاشة.

قالت زهرة: «هل سيبثون برنامجك الليلة؟».

«أشك في هذا، يا ابنتي. قد يظل الإرسال متوقفًا بعض الوقت».

قالت: «الحمد لله».

ابتسم لها أبوها: «أظنك لا تركزين انتباهك على التفاصيل الصحيحة هنا».

رُن جرس الهاتف من جديد. إنها مريم.

«هل سمعت النبأ؟».

«نعم. سمعته منذ لحظات».

الكلام عن النبأ جعل مريم تشعر به حقيقة. وأما اتفاقهما من غير كلام على الحديث عن الأمر في الهاتف من غير ذكر اسم له جعلها تدرك أن مريم تفهم -مثلها- أن قواعد العالم لم تتغير؛ بل لعلها لن تتغير أبدًا.

قالت مريم: «أنا حزينة من أجل أسرته».

«هممم... صحيح». حاولت جعل نبرة صوتها توحي أنها كانت تفكّر هكذا بدورها.

«آمل ألا يصير الوضع غير مستقرٍّ».

«أهذا ما يقوله أهلك؟».

«أبي وجدِّي فقط. أمي تفكّر في صديقتها القديمة منذ أيام المدرسة. لكن ما من أحد يصدّق أن هذا يمكن أن يحدث فعلًا».

كانت والدة مريم على معرفة ببنازير بوتو منذ أيام المدرسة. لكن مريم لم تسمع قبل الآن تعبير «صديقة» مستخدَمًا في الإشارة إليها.

«حزن أبي لأنه قد يضطر إلى إلغاء حفلة عيد ميلاده الأربعين».

«هذا سيئ. لكن على الأقل، لن يكونوا مضطرين إلى دعوة ذلك الشخص المتهم بجريمة المخدرات إلى البيت».

فتح والد زهرة الباب الزجاجي المنزلق المفضي إلى الشرفة فكان الصوت الذي اقتحم الغرفة صوتًا مرتفعًا لأغنية من أغاني الزفاف صادرًا عن سيارة - لا، بل عن سيارتين، ثلاث سيارات... اختلاف بسيط جدًا في التوقيت. صفّق أبوها بيديه وفرقع بأصابعه. استجابت والدتها ففعلت مثله، ثم راحا يرقصان ويضحكان معًا.

قالت مريم في الهاتف: «ما هذا الضجيج؟».

«هذا ليس ضجيجًا. هذه موسيقى».

***

ما كان ممكنًا إحصاء عدد مئات آلاف المشيعين في شوارع إسلام أباد يوم دفن الرئيس. كان رجالٌ -رجال كلهم- يرتدون ملابس بيضاء يعبرون الشاشة صوب مسجد شاه فيصل المبني برخام أبيض. حرارة منبعثة من شاشة التلفزيون جعلت كل شيء يبدو غير واقعي. لعله لم يكن واقعيًا! فأي واقع يوافق أولئك المشيّعين جميعًا، أو يوافق المذيع الذي ظل ماضيًا في مرثاته إلى أن انفجر باكيًا بعد أن أقنعه حزنه بهول الأمر، حتى إن لم يقنع أحدًا غيره؟ وفي كراتشي، كان الجيش على أهبة الاستعداد؛ لكن ذلك كان نوعًا من الدعاية، أو لعله كان أسلوب القوات المسلحة في التعبير عن احترام قائدها العام، فراحت تتظاهر بأن ثمة احتمالًا بأن يشتد حزن المدينة إلى حد يجعله يتحوّل إلى عنف.

«قولوا عن الرجل ما تشاؤون، فقد قلت ما فيه الكفاية على مر السنين؛ لكن عليكم أن تفوه حقه». قال جدها هذا وهو يستخرج حبة فول سوَداني من قشرتها بإحدى يديه، ويحمل بيده الأخرى سماعة الهاتف إلى أذنه. لقد أمر مريم ووالديها بالمجيء لمتابعة الجنازة معه. لكن التغطية التلفزيونية دخلت ساعتها الثانية ولم تظهر الجثة في موقع الدفن، فتحول اهتمامه إلى إجراء اتصالات هاتفية مع أصدقائه في حين جلس والد مريم يحل الكلمات المتقاطعة في مجلة المساء.

تركت أمها الغرفة منذ وقت طويل. ولعلّها تتكلّم مع صديقاتها عبر خط الهاتف الثاني.

أتى قادة ما كان يُسمى «العالم الحر»، أو أرسلوا ممثلين عنهم لحضور جنازة الدكتاتور الذي لعب دورًا مركزيًا في إخراج السوفييت من أفغانستان. الآن، كان جدها يقول في الهاتف: «لقد وضع هذه البلاد على الخريطة الجيوبوليتيكية». وفي الوقت نفسه، كان مذيع التلفزيون يشير إلى وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز، ووزير خارجية بريطانية جيفري هاو الواقفَين بين الشخصيات البارزة في الجنازة. «جماعة الديمقراطية

كلهم مهتمون بالأمر كثيرًا. القوة تحترم القوة سواء أكانت مستمدة من صندوق الاقتراع أو من طلقات الرصاص».

نهضت مريم وخرجت من غرفة المكتب وقد أضجرها ذلك كله. كان بيت جدها في «باث آيلاند» يعود إلى عقد الثلاثينيات: بيت من طابقين ذي جدران من الحجر وسقوف مرتفعة وبلاط أبيض وأسود يدوي الصنع. في حياة جدتها، كان هذا البيت معروفًا بكثرة احتفالاته الباذخة اللامعة. ذات مرة، قالت واحدة من صديقات جدتها: «دائمًا، يجد المرء نفسه موضع ترحيب، سواء أكان مدعوًا أم غير مدعو». لكن الحفلات قلّت الآن فصارت حفلتين في السنة فقط - عيد ميلاد جدتها مع أنها متوفاة منذ قرابة عشر سنين، ويوم رأس السنة. في يوم ميلاد جدتها، يدعو جدها أشخاصًا يعجبونه. وأما حفلة رأس السنة الجديدة فهي أكبر كثيرًا، إذ يكون في عداد المدعوين ضيوف «معرفتهم مفيدة». يقول جدها: «عندما ترين فرصة لزيادة قربك من السلطة، اغتنميها». وعندما سألته أليس كون المرء في السلطة أفضل من قربه منها؟ لوّح بيده رافضًا الفكرة.

خرجت إلى الحديقة وصفرت لداش، كلب جدها من نوع «جرمان شيبارد»، فأتاها مندفعًا وكاد يسقطها أرضًا لشدّة فرحه. تصارعا حينًا من الزمن، وراحت ترمي عصا صغيرة فيجري خلفها. ثم تبعها إلى داخل البيت إلى الغرفة التي ترعرع فيها والدها. كانت غرفته أكبر كثيرًا من غرفتي شقيقتيه الأكبر منه سنًا. وجدت كيسًا من الفول السوداني فراحت تلتهمه، وأقعى داش أمامها واضعًا رأسه على قدميها. بدأت تقرأ مجلات مصورة كانت وضعتها هناك كي تستعين بها على قضاء الأوقات المضجرة. سمعت أحدهم ينادي أبا بكر، فتساءلت في نفسها عمّا قد يكون سبب استدعائه؛ لكن تفكيرها في الأمر لم يطُل.

بعد ذلك، أتى شاه نواز، ساعي جدها، وقال إن عليها أن تذهب إلى مكتب جدها. ودّعت داش آسفة وعادت إلى حيث يجلس الكبار - كان

دخوله غرفة المكتب محظورًا منذ أن أوقع ذيله الذي لا يكفّ عن الحركة وعاءين من مجموعة «غاردنر» عند جدها، فتحطّما.

عندما دخلت غرفة المكتب، كان واضحًا لها أنهم في انتظارها. قال لها جدها: «أغلقي الباب. لا نريد أن يسمع الخدم هذا». كان أحدهم -لم يكشف لها جدها عن هويته- قد شاهدها تقود سيارة المرسيدس في شارع شاهرا إي فيصل.

قالت: «كثيرون من الأطفال في عمري يقودون السيارات. شقيق صبا يعيدنا من الحفلات ومن المناسبات المدرسية منذ أن كان في الرابعة عشرة. لم يعترض أحد على ذلك». وأشارت إلى والديها، «هما يعرفان هذا».

قالت أمها: «صحيح، نعرف أنه يقود السيارة. يعرف أبوه وأمه أنه يقودها. لكنك كنت تختلسين الأمر اختلاسًا وتجعلين السائق يتستّر عليكِ».

قالت: «هو ليس مذنبًا في هذا».

قال جدها: «صحيح، فالذنب ذنبك أنت. لكن أبا بكر هو من سيفقد عمله نتيجة هذا».

«لا يمكن أن تطرده».

قال أبوها غاضبًا - نادرًا ما يغضب: «أتظنين أننا راغبون في طرده؟ لكن، أي خيار تتركين لنا؟ هل ينبغي أن يظن الخدم جميعًا أن من المسموح لهم أن يساعدوا أطفالنا في خرق القواعد التي نضعها لهم؟».

قالت أمها: «وماذا عن القانون؟». لكنها لم تبدُ شديدة الاقتناع بما قالته، فلم يعقّب أحد على كلامها.

قال جدها: «تقودين السيارة في ذلك الشارع! هذا غباء! كيف ظننت أنه لا يمكن أن يراك واحد ممن يعرفوننا؟ في كراتشي كلّها، لا توجد سيارة مرسيدس أخرى من هذا الموديل».

«عادة، لا أقود السيارة إلا بعد أن نقترب من المكتب». لسعها اتهامها بالغباء، «أرجوك يا جدي، لا تطرد أبا بكر».

قال لها: «لقد أفسدك الدلال». تغضَّن منخراه كأنه يرى أمامه ثمرة متعفنة، «أريدك أن تكوني جريئة؛ وأريدك مختلفة عن البنات السخيفات. بدلًا من ذلك، أفسدك الدلال، وصرتِ متهوِّرة».

شهقت أمها شهقة مفاجئة، لكن ما اتضح هو أنها لم تكن نتيجة الاتهامات الموجَّهة إلى ابنتها. فعلى الشاشة كانوا يضعون شيئًا ملفوفًا بقماش أخضر في حفرة في الأرض. رفع جدها صوت التلفزيون.

قالت أمها: «يا إلهي! يا إلهي! لقد مات حقًا».

ذلك الخزي الذي نزل بمريم دفعها إلى زاوية صغيرة من زوايا العالم. فالرجل الذي جعل البلاد تسير وفق مشيئته يجري دفنه الآن. حتى جدّها نفسه، انحنى في جلسته مائلًا صوب الشاشة كأنه يريد أن يكون أكثر قربًا إلى الحدث الذي بدا غير حقيقي مثله مثل كل ما يتابعونه في التلفزيون، بما في ذلك شخصيات المسلسلات التلفزيونية. خرجت مريم من الغرفة، نادت أبا بكر. لكنها لم تجده مع السائقين والطباخين والساعين المتحلقين جميعًا حول الراديو يصغون إلى صوت المجارف.

رفع شاه نواز رأسه وقال: «لقد مات».

قال الطباخ: «مات الجنرال ضياء الحق»، فضحك الجميع، ثم عادوا إلى متابعة ما يُقال في الراديو.

تمسّح داش بساقيها مستشعرًا اضطرابها، فقرفصت على الأرض وأراحت رأسها على رقبة الحيوان الدافئة. أدركت -لكنها تستطيع تغيير هذا- بشاعة حقيقة أن انزعاجها في ما يخص مصير أبي بكر كان أقل من انزعاجها من نبرة التقزز التي سمعتها في صوت جدها عندما قال لها إنه لم يعد يراها متميِّزة.

***

في كل متجر من متاجر أفلام الفيديو في منطقتي كليفتون والدفاع، يعثر المرء على المزيج نفسه من الأفلام الهندية وأفلام هوليوود والمسلسلات التلفزيونية الأمريكية. لكن نقل ولائك من متجر إلى آخر يظلّ مسألة كبيرة لا يمكن التعامل معها بخفّة. تذهب مريم منذ سنوات إلى متجر «ستار فيديو»؛ لكنها عندما سألت الأسبوع الماضي عن فيلم «بول دورهام»، فإن الرجل الذي يناولها منذ سنين ما تطلبه من غير أي تعليق قال لها إن ذلك الفيلم غير ملائم لأن فيه «مقاطع وسخة» كثيرة جدًا. مع هذا، تجاهلت نصيحته، فكانت تلك نهاية العلاقة بينهما. قالت لها زهرة إن عليها أن تذهب إلى «كريستال بالاس»؛ وقالت صبا إن «إفريست» هو الخيار الأفضل؛ وقال بابار إن ما من متجر يستطيع منافسة «فيديو تك».

هي الآن في «أوشن فيديو» في منطقة «بوت بيسن» تتجول عيناها بين رفوف أفلام الفيديو الطويلة كأنها يمكن أن تكون مهتمة بشيء مما هو معروض أمامها، مع أنها تعرف أن كل متجر فيديو يحتفظ بأحدث ما لديه من إصدارات «تحت الطاولة» من أجل الزبائن المميزين؛ وهي الآن غير مستعدة للقبول بأي شيء أقل من «غوريلاز إن ذا ميست»، الذي وصلت نسخته النظيفة إلى كراتشي بعد أسابيع طويلة من اقتصار ما هو متوفر في المدينة على نسخة مشوشة فيها أصوات أشخاص يتحدّثون في الخلفية. سمعت صوت فتح باب المتجر ودخول شخص يغني «تلفون بايار» لنازيا وزوهايب. اقترب الشخص من رفوف تسجيلات الفيديو ووقف على مقربة منها بحيث يستطيعان تبادل الكلام همسًا من غير أن تكون المسافة بينهما صغيرة إلى حد يوحي لأي شخص يدخل المكان بأنهما واقفان معًا.

قال لها حمد: «هذا أول موعد بيننا».

التفتت إليه التفاتة سريعة. لم تره قبل الآن إلا في ملابس المدرسة. بنطلون جينز أزرق، وقميص تنس أبيض، وسلسلة ذهبية في رقبته مثل سلسلة أندريه آغاسي. تعرف أن اللعبة الوحيدة التي يلعبها هي لعبة الفيديو «ساغار» حيث يمضي كل أمسية مع أصدقاء، من خارج المدرسة، قبل أن

يعود إلى البيت ويكلمها بالهاتف. كانت مكالماته مضجرة لأن مساهمته فيها مقتصرة، إلى حدٍ كبير، على أمور من قبيل «وماذا أيضًا؟ أخبريني شيئًا آخر». لكنه كان وسيمًا، وكان أكبر منها سنًا. صحيح أنه يبدو سخيفًا عندما يخفض صوته حتى الهمس ويقول لها عبارات من قبيل: «أتمنى أن ألمس نهديك»، إلا أنه يثير فضولها أن تعرف إن كان الأمر سيعجبها عندما يحدث في الواقع، أو إن كان أي شيء آخر مما يقوله لها سيعجبها. وجود الحراس على باب بيتها يعني أنها لا تستطيع الخروج متسللة من غير أن يراها أحد كي تصعد إلى سيارته في موعد مرتب مسبقًا، كما أن زهرة سترفض وتتعفّف إن أرادت استخدام شقَّتها كي يأتي بسيارته ويأخذها. لذا لم يكن عليها إلا أن تنفذ تعليماته في شأن متجر الفيديو الذي سيأخذها إليه السائق الجديد وفي شأن التوقيت المناسب لأن يأتي من بيته في «شوغار» كي يراها.

وضع شريط تسجيل أمامها على رف المسلسلات الأميركية - داينستي، دالاس، فالكون كريست. قال لها: «جعلتهم يجمعون هذا الشريط من أجلك». تناولت الشريط المتنوّع ونظرت إلى قائمة الأغاني المطبوعة المرئية عبر غلافه. كانت الأغنية الأولى على الوجه الأول «اخرجي من أحلامي وادخلي سيارتي».

«شكرًا. هل تستطيع القول له إنني أريد نسخة أصلية من غوريلاز إن ذا مست؟»، قالت هذا وأشارت إلى الرجل خلف طاولة البيع والذي كانت قادرة على الإحساس بأنه يراقبها.

تحرّك حمد من عند الرف وسار إلى الطاولة. قال: «يا معلم!»؛ ازداد إعجابها به الآن لأنه تكلّم بهذه النبرة الموحية بالقوة، وقال للبائع أن يريها كل ما لديه من أفلام جديدة شريطة أن تكون نسخًا أصلية. لكنها لم تلبث أن أحست ضيقًا عندما رأت وقفته -الساقان متباعدتان، واليدان على الخصر، والصدر مشدود- وقفة.تجوز له لأنه ذكر، لكنها لا تستطيع أن تقف مثلها في أي مكان، ولا حتى في ملعب الكريكيت!

مد البائع يده تحت الطاولة وأخرج كومة أشرطة فيديو قائلًا لها إنهم لا

يعيرون من هذه المجموعة الخاصة أكثر من شريط واحد في اليوم، لكن في وسعها أن تأخذ شريطين. أخذت «غوريلاز إن ذا مست» و«ميستِك بيتزا». سأله حمد إن كان لديه أي فيلم «WWF» جديد من أجله. كان قد قال لها في واحدة من مكالماتهما الهاتفية المسائية إن هذا هو الرمز المتعارف عليه للإشارة إلى الأفلام الإباحية.

قالت له: «عليَّ أن أذهب الآن. إن طال بقائي هنا، فسوف يدخل السائق باحثًا عني».

هكذا كانت نهاية موعدها الأول.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الشِّتاء

بدا الأمل مغريًا أول الأمر، متردِّدًا، ملموسًا حينًا، سرابًا حينًا آخر. سوف تجري انتخابات ديمقراطية حقيقية على أساس حزبي. لن تجري انتخابات. ستجري انتخابات. وسوف يتم توقيت الانتخابات على نحو يضمن إجراءها وقت ولادة بنازير بوتو الحبلى كي لا تتمكّن من خوض حملة انتخابية - لا، فقد كانت بنازير أذكى منهم جميعًا إذ راحت ترتدي ملابس فضفاضة تجعل من المتعذّر معرفة إن كانت في منتصف حملها أو في آخره؛ ثم أنجبت وليدها في شهر أيلول، أي في الوقت المناسب كي تقوم بدور نشط في انتخابات شهر تشرين الثاني. سوف تقع أحداث عنف مخطط لها بحيث تستلزم تدخل الجيش من أجل المصلحة العامة. لا؛ فبدلًا من ذلك كان هناك حزب عملاق حوّل كراتشي إلى مدينة زاخرة بالآمال وبحياة الليل المجنونة.

كان الجنون يبدأ كل مساء على امتداد الواجهة البحرية عند بيت زهرة، ثم يتواصل حتى ساعات الصباح الأولى. وكانت الأغنيات كلها أغنيات انتخابية. ولأول مرة، صارت أصوات الناس وأبواق السيارات تدرك ما لها من قوة. صيحات: «عاشت بنازير بوتو»، و«عاش ألطاف حسين». في تلك اللحظة، بدا أن لا أهمية لاختيارك مساندة هذا الحزب أو ذاك. علِقت زهرة ومريم في حشدين انتخابيين بينما كانتا في سيارة والد زهرة -حشد لحزب بنازير، حزب الشعب الباكستاني، وآخر لحزب الحركة القومية المتحدة بزعامة ألطاف حسين- وفي المرتين، انساق الثلاثة مع الموسيقى ومع ما في الحشد من بهجة غامرة، فحملوا أعلام الحزبين التي ناولهم إياها عبر نوافذ السيارة المفتوحة شبان لامعون على دراجات آلية وغنوا معهم

أغنية حزبهم الانتخابية، وهتفوا بشعاراته كأنهم لم يؤمنوا بشيء يومًا إيمانًا أعمق من هذا الإيمان الحزبي، أو أشد منه ثباتًا. في أي ظرف آخر، يرشق والد زهرة أي فتيان على درجات يقتربون من الفتاتين المراهقتين بنظرة تحذير غاضبة؛ لكنه صاح اليوم في وجههم «تحيا باكستان»، فتلقّف الفتيان العبارة ومضوا بها بين الجموع.

في الحفلات، فقدت مادونا الأولوية في القدرة على اجتذاب الناس إلى حلبة الرقص، وحلت محلها شابانا نوشي، المغنية الآتية من ناحية من نواحي كراتشي التي لم تذهب إليها زهرة، ولا مريم، ولا أي من صديقاتهما وأصدقائهما. كانت شابانا نوشي صاحبة أغنية «ديلا تير بيجا» البهيجة الجذابة التي كانت أغنية حملة بنازير بوتو الانتخابية. لقد سُمع شاب إنكليزي يقول في حفلة من الحفلات: «لا أستطيع تخيل أن يجن المراهقون في لندن بأغنية تقول، 'عاشت مارغريت تاتشر'». كان هذا تأكيدًا على قناعة راسخة عند الجميع: كل مكان في العالم جدير بالشفقة لأنه ليس باكستان في شتاء سنة 1988!

في ليلة من ليالي شهر تشرين الثاني عندما كان الجميع في انتظار نتائج الانتخابات التي ستنبئهم إن كان الأمر حقيقة أم إنهم حالمون، باتت مريم ليلتها في بيت زهرة. ففي بيت مريم المنزوي بعيدًا في شارع هادئ، لم يكن ممكنًا سماع نبض المدينة مثلما هي الحال في شقة زهرة عند البحر. ثم إن الحماسة للديمقراطية تضاءلت في أسرة مريم بعد محاولة والدتها في إحياء الصداقة المدرسية القديمة بينها وبين بنازير التي أثبتت فشلها (صداقة لم تكن موجودة في يوم من الأيام)؛ إلا أن مريم نفسها رأت في بنازير مثالًا لم تدرك أنها كانت في انتظاره. حتى شقيقتاها الصغيرتان -في الثامنة والتاسعة من العمر- صارتا تقولان هذه العبارة التي سمعتاها من والدهما، «كيف يمكن لتلك الفتاة أن تحلم بالحكم؟».

أدركت مريم أن كلمة فتاة لا علاقة لها بعمر بنازير لأنها في الخامسة والثلاثين، أي أصغر من والد مريم بخمس سنين فقط.

قالت مريم: «أهذا ما ستقوله عندما يأتي وقت استلامي مقاليد الأمور في الشركة؟».

بسط أبوها يديه بطريقة تقول إن الوضع هناك بعيد كل البعد عن أن يكون مثاليًا. دخل جدُّها الغرفة في اللحظة نفسها وقال: «أنت لست فتاة. أنت قوة من قوى الطبيعة». كان نصف هذا مديحًا، ونصفه توبيخًا لها جرّاء ما أظهرته من غباء عندما قادت السيارة حيث لا بد أن يراها أحد. مر زمن طويل قبل أن يستطيع مسامحتها على هذه الغلطة. لم يكن لدى جدها وقت للاهتمام بالديمقراطية لأن من شأنها أن تُدخل في اللعبة متغيرات كثيرة جدًا؛ لكنه كان واثقًا من أن أشخاصًا من قبيل أولئك الذين يعمل بيلو (رجل المكالمة الهاتفية) لحسابهم سيلعبون دورًا هامًا في التركيبة الديمقراطية الجديدة. سوف يكون استمرار تلقي بيلو مخصصاته الشهرية غير الرسمية أهم من أي وقت مضى.

عندما بدأت ليلة التغطية الإخبارية على مدار الساعة لنتائج الانتخابات، كانت مريم وزهرة في غرفة المعيشة في شقة زهرة. جلستا متقابلتين وقد ثنت كل منهما ساقيها حتى بلغت ركبتاها صدرها ثم أمسكت كل منهما ركبتي الأخرى. كان والدا زهرة في الشقة المجاورة يتابعان التغطية الإخبارية مع الجيران فظلت الشقة كلها للصديقتين. رسمتا لتسجيل النتائج مخططًا ذا نظام رموز لونية معقّد. لعبتا الورق خلال فترة الانتظار المرهقة. غنتا «ديلا تير بيجا» عندما أعلنت أولى النتائج، فكانت في صالح حزب الشعب الباكستاني. وعندما تطاول الليل إلى أن تجاوز النقطة التي يستطيع فيها لعب الورق أو تناول الآيس كريم إبقاءهما ساهرتين، صارتا تنامان على التناوب: تنام الواحدة منهما على الأريكة أمام جهاز التلفزيون ثم توقظها الأخرى وتنام بدلًا منها كي لا تمر لحظة من لحظات التاريخ من غير أن تكون واحدة منهما، على الأقل، شاهدًا عليها. عاد والدا زهرة في الصباح الباكر قائلين إن النتائج صارت واضحة، وإن وقت نوم الجميع قد حان. رفضت مريم وزهرة أن تناما قائلتين إن ثمة أمرًا يستوجب أن تظلا

ساهرتين. ابتسم الأب والأم ابتسامة متسامحة كانت جديدة كل الجدة، ولم يناقشانهما.

أتى الفجر، فخرجت الفتاتان إلى الشرفة لمشاهدة شروق الشمس على باكستان الديمقراطية التي سرعان ما ستصير بنازير بوتو على رأس حكومتها.

قالت مريم: «كيف تستطيعين التفكير في العيش في مكان آخر؟ نحن منتميتان إلى هذا المكان».

الآن، صارت في العالم قدوات جديدة جعلت كل قدوة سابقة قليلة الأهمية: بنازير بوتو نفسها، وشابانا نوشي، وكل الذين واجهوا الهراوات والغاز المسيل للدموع وأحكام الحبس والنفي من أجل مستقبل ديمقراطي لم تكن زهرة مصدّقة أنه ممكن الوجود. كان هذا اليوم منتميًا إليهم انتماء حقيقيًا، منتميًا إلى من لم يستسلموا حين قال لهم العالم إنهم يخوضون معركة خاسرة... إلى من قالت لهم بناتهم إنهم لن يكسبوا من شجاعتهم شيئًا. عاهدت نفسها على أن تكون واحدة من أولئك الناس، في المرة التالية.

***

كانت مريم تدرك أنْ ليس من ذنب السائق الجديد أنه ليس أبا بكر. مع هذا، ظلّت تشير إليه بكلمة «السائق» وحدها كي يفهم أبوها وأمها وجدّها أنها لن تسامحهم على تعاملهم مع شخص كان شديد الإخلاص لها على أنه قابل للاستبدال. لم ينتبه أحد إلى ذلك -كل واحد من سائقي الشركة كان ليس أكثر من «سائق»- لكنها لم تفطُن إلى هذا الأمر إلا بعد زمن طويل، فوجدت صعوبة في التحول إلى مناداته باسمه الأول لأن من شأن هذا أن يجعله يحار في أمر هذه الألفة المفاجئة.

أخذها «السائق» إلى شركة خان للجلديات صباح يوم سبت، بعد أسبوعين من الانتخابات، عندما بدأت تشوب الفرحة الغامرة أسئلة في شأن صفقات تقاسم السلطة التي لا بد من إبرامها، وما قد تعنيه هذه الصفقات بالنسبة إلى أهل كراتشي المنقسمين. سالت دماء في شهر تشرين الأول،

ووقعت حوادث عنف على أساس إثني كانت انتقامًا لمجزرة في حيدر أباد. فُرض حظر التجول، ونزل الجيش إلى الشوارع. قال لها جدها إن الديمقراطية ستؤدي إلى جعل هذه الأمور أسوأ من ذي قبل، لأن الأحزاب السياسية القائمة وفق خطوط إثنية ستحاول تأكيد قوَّتها في الشارع - كانت ممتنّة له عندما قال هذا لأن كلامه معها في سير شؤون العالم كان أسلوبه الخاص في القول إنه عاد راضيًا عنها. وقد كان ذلك السبت علامة إضافية على أنها استعادت الحظوة لديه: دخلت السيارة البوابة الخارجية فاستوقفها الحارس المسلح وقال لها إن جدها يريد منها أن تقابل أحدهم، وإنه يطلب ذهابها إلى مكتبه بدلًا من التوجه إلى ملعب الكريكيت.

صعدت درجات السلم ونظرت إلى صدرها أكثر من مرة شاكرة فضل قطعة الملابس التي تركتها لها أمها على سريرها بعد وقت قصير من استخدام جدها عبارة «الساري الأبيض في المطر»، مع أنها لم تعرف بعد مَن التي (ضمن شبكة علاقات أمها) أتت بهذه الأعجوبة المسمّاة «حمّالة الثديين الرياضية». لم تكن مريحة جدًا، لكنها مكّنتها من الجري والتعرّق في ملعب الكريكيت من غير أن ترغم أعين الرجال على البقاء مثبتة على وجهها أو قدميها.

دخلت المكتب فوجدت بيلو ذا الأنف المكسور جالسًا هناك. نهض واقفًا ووضع يده على صدره وأحنى رأسه قليلًا.

قال جدها: «أخبرت ضيفنا قبل قليل أنك ستديرين الشركة بعد رحيلي». قبل اليوم لم يقل هذا لأي شخص غير مريم نفسها. كانت غير مستعدّة لضخامة هذا الإعلان الذي سيجعلها تنصب ظهرها وتشد كتفيها. كان لا بد لها من لحظة كي تستوعب ذلك الإحساس الذي لم تستطع أن تضع له اسمًا، لكنها تخيلته صورةً شديدة الوضوح أمامها: ثوب من جلد مبطّن بالحرير، ثقيل وجميل... «وقد كان يهّم بأن يطرح عليّ سؤالًا عن هذا الأمر لحظة دخولك».

بسط بيلو ذراعيه بحركة فلسفية. قال: «صار تولي الفتيات مقاليد

الأمور هو الموضة الجديدة». أدركت أن السؤال الذي قرر ألا يطرحه سؤال متصل بوالدها.

ولم يقل جدها غير «لقد رأيت ابني». أو لعله لم ير أنه في حاجة إلى قول أكثر من هذا.

لم تعرف مريم أبدًا طبيعة الكلام الذي جرى بين جدها ووالدها فيما يتصل بهذا الأمر كله... بل ربما لم يدُر بينهما أي كلام. كان توفيق يعرف، وكان الجميع يعرف، أن مريم ستأتي للعمل في شركة خان للجلديات بعد إنهاء الجامعة. وعندما يموت جدها، ستكون مستعدة لأن تحلّ محلّه، ولن يطرأ أي تغيير على دور توفيق التزييني. لم تكن مريم شديدة الاهتمام بالألقاب. في وسع والدها أن يتخذ لنفسه في الشركة لقبًا يعلو لقبها... ليست لديها أي نية في إحراجه أمام الناس.

انتقلت عينا بيلو من جدها إليها، ثم عادتا إلى جدها مرة أخرى: «هل هي باقية هنا؟».

قال جدها: «أنا وهي سنكون هنا»، وأشار إلى واحدة من نوافذ غرفة المكتب، إشارة لم تدرك مريم سببها.

كانت دهشة بيلو واضحة، لكنه اكتفى بالقول: «هل أذهب الآن؟». فأشار جدها إليه بالذهاب.

وبعد خروجه طلب منها جدّها أن تجلس على الكرسي الذي كان بيلو يجلس عليه. صارت مساحة طاولة المكتب المصنوع من خشب الورد فاصلة بينهما. جلست، لكنها لم تلبث أن نهضت سريعًا فور إحساسها بحرارة جسد بيلو على ظهر الكرسي. ضحك جدها ووقف مثلها. سارت صوب النافذة التي أشار إليها قبل قليل وطلب منها أن تأتي إليه.

قالت له: «إلام تنظر؟».

كانت الحديقة التي غرسها والد جدها في الشهور التي أعقبت الانفصال ممتدة تحت النافذة: أشجار مثمرة ضخمة تتخلل ظلالها ممرات اصطفت على امتدادها أحواض زهور تتغير بتغير الفصول. تصير الخيارات محدودة

مع اقتراب الشتاء، لذا، ليس في الأحواض الآن إلا أزهار سادا باهار التي تتدرج ألوانها بين الوردي الداكن والوردي الخفيف. يصرّ والدها على تسميتها باسمها الإنكليزي، بيريوينكلز، بذلك المَيْل الواضح إلى التظاهر الذي يجعله يشير إلى أنواع التوابل المختلفة بأسمائها الإنكليزية. حتى تهذيب زهرة إزاء والدَيّ مريم لم يظلّ متماسكًا يوم سمعت توفيق يسمي الحِلْبة «فينوغريك».

«هل علمتِ أن لدينا من يسرق المواد من المستودع؟»، سألها جدها وهو يدعك إطار النافذة المتّسخ بمنديله مع أن الأوساخ المتراكمة عليه كانت من الجهة الخارجية لأنهم ينظّفون غرفته من الداخل تنظيفًا دقيقًا قبل وصوله كل صباح... «هل ذكر لك أبوك هذا؟».

«أهو واحد من العاملين هنا؟».

أومأ برأسه وبدت عليه حالة من الجَد الشديد لم ترَ مثلها من قبل. «نعرف السارق. إذًا... إذا كنتِ من يدير هذه الشركة، فماذا تفعلين؟».

قالت تلقائيًا: «لن أطلب الشرطة». في يوم من الأيام وقعت حادثة سرقة في بيت صديقتها صبا -السارق واحد ممن في البيت- فأقدم والدها على تلك الخطوة النادرة، خطوة طلب الشرطة. اعتقلوا الخدم جميعًا. وبعد بضع ساعات قالوا لوالدَي صبا إنهم واثقون من أن المربية التي كانت مشرفة عليها بريئة لأنهم وضعوا في ثوبها فئرانًا، وضعوها عدة مرات، فأغمي عليها في لحظة، لكنها ظلت تقسم على أنها لا تعرف عن الجريمة شيئًا. عادت المربية إلى عملها صباح اليوم التالي، ولم يتطرق أحد إلى ذكر الاعتقال أمامها، أو إلى ذكر الفئران. قصّت صبا تلك الحكاية على مريم، وشاب صوتها نوع من الاستهجان عندما همست قائلة لها: «إن الناس من تلك الطبقة، لا يرتدون ملابس داخلية». إلى اليوم، لا تستطيع مريم أن تنظر إلى المربية من غير أن تتخيل الفئران المذعورة تجري على فخذيها، تصعد بينهما منجذبة إلى الحرارة والرائحة.

قال لها: «هذه هي الخطوة الأولى الصحيحة». كان استحسانه الذي لم يبالغ في التعبير عنه مهمًا بالنسبة إليها أكثر من أي شيء آخر.

قالت: «هل نجعله يعيد ما أخذه من مواد أو مال؟».

عبس جدها. قال: «سيقول إنه استخدم المال من أجل بائنة أخته، أو من أجل شراء أدوية لأمه المريضه، أو من أجل إصلاح سقف البيت المتداعي».

«أليس من الممكن أن يكون هذا صحيحًا؟».

«يعرف الرجال أنهم يستطيعون أن يقصدوني عندما يكونون في حاجة حقيقية. دفعتُ نفقات تعليم بعض أطفالهم في الجامعات، وأعدت بناء بيوتهم المتهاوية، وسدّدت فواتير أدوية كثيرة. بدلًا من ذلك، كان عليَّ أن أستخدم ذلك المال في بناء مستشفى هنا في الشركة. نفعل ما نستطيع فعله، من أجل أولئك الناس، لأننا مسؤولون عنهم. نفعل ما هو صائب. مع هذا، لا يُعقل أن نتحمّل تكاليف البائنة... عادةٌ غير متحضرة. إذًا، لن نطلب الشرطة، ولن نطلب إعادة المال. فماذا نفعل؟».

راحت تفكر، وراح لسانها يدور في فمها حائرًا. سألته: «هل نطرده؟».

«لا بأس. نطرده بالطبع. أهذا كل شيء؟ أهذه هي الرسالة التي نريد أن نوصلها لكل الرجال. إن سرقتم مالنا، فأنتم لا تغامرون بشيء إلا بوظيفتكم».

«إذًا...»، صوت جلبة في الأسفل، صياحٌ آتٍ من جهة المستودع، «إذًا، هل نطلب الشرطة على الرغم من كل شيء؟».

«لا سبيل إلى الثقة بأن تكون استجابة الشرطة متناسبة مع الأمر». صار الصياح صوتًا واحدًا ينادي عاليًا، ينادي جدّها طالبًا المغفرة. تنهّد جدّها وقال: «ليس أمرًا فظيعًا ألا تكوني قادرة على التفكير في الإجابة الصحيحة».

ظهر بيلو آتيًا في الممر وفي يده مضرب كريكيت. صفحة المضرب مستقرة على كتفه استقرارًا رشيقًا. من خلفه، ظهر كاشف ولامبو

يجرّان خلفهما رجلًا - الحمد لله، الحمد لله، ليس واحدًا ممن يلعبون الكريكيت معها. كان الرجل على ظهره؛ وكان يصيح. بقعة رطوبة على ثوبه، قرب وسطه. اتسعت البقعة وصارت كأنها جدول على امتداد ساقه اليمنى. جماعة من عمال المستودع سارت في إثر هؤلاء، صامتة. ومن الجهة الأخرى، كان عمال الورشة آتين في الممر. رفع كاشف رأسه ونظر إلى النافذة فتراجعت مريم إلى الخلف.

«هل أنا مضطرة لرؤية هذا؟».

وضع جدها يده فوق رأسها، «لا. اذهبي إلى مكتب والدك. هناك، لن تسمعي شيئًا».

على الفور، مضت إلى الحمام الملحق بمكتب جدها، وتقيأت.

عندما أتى جدها باحثًا عنها بعد دقائق قليلة، كانت جالسة على كرسي المكتب ترسم شخصيات من أفلام الصور المتحركة - سنوبي، وغارفيلد، وساحر إد. كانت أغنية لنور جيهان تنبعث من الراديو لأن الأصوات استطاعت النفاذ إلى مكتب والدها. بسط ذراعيه -تصرف نادر- فرمت بنفسها بينهما.

قالت له: «آسفة».

شد عليها بذراعيه، «لا يجوز أبدًا أن تحسّي بأن رؤية هذا الأمر شيئًا عاديًا. يسعدني أنك لم تريدي رؤيته».

خرجت من بين ذراعيه، فوضعت كفَّيْها على ذراعيه، «يعرف بيلو كيف يسبب ألمًا من غير أذية دائمة. لن تكون الشرطة حريصة مثله. لا أريد حرمان أسرةٍ من الذي يؤمن لها قوتها. هل تفهمين هذا؟».

أومأت برأسها.

قال: «تستطيعين أن تطرحي عليّ أي سؤال».

«هل يعرف أبي بالأمر؟».

«لم يحاول منع حدوثه، لكنه لم يرِد أن يكون هنا عندما يحدث. هكذا هو أبوك، وهكذا هم معظم الناس. العدل ليس لطيفًا، لكنه ضروري. ولهذا

السبب، كان لا بد من رحيل أبي بكر. كان ذلك ضروريًا حتى تفهمي أن ثمة تصرفات لا يمكن أن تمر من غير عقاب. هل تفهمين هذا؟».

أومأت برأسها من جديد.

قبّل جبهتها.

«أتمنى أن يمر وقت طويل جدًا قبل أن تصيري مضطرة إلى حمل هذه المسؤولية على عاتقك».

كادت تقول إن الشرطة قد تصير مختلفة بحلول ذلك الوقت، لكنها أدركت أنها ستخيّب أمله إذا رفضت أن ترى العالم على حقيقته. بدلًا من ذلك، قالت له: «أظنني لن ألعب الكريكيت اليوم».

قال: «بالطبع. لماذا لا تساعدينني في التوصل إلى قرار من أجل هذا التصميم الذي أعمل عليه. الآن، صار لدى كثيرين من الناس جنسيات أخرى، وصرنا في حاجة إلى حامل جواز سفر يستوعب جوازين اثنين. اخترت تصميمين اثنين من بين التصميمات الكثيرة التي فكرت فيها. اختاري واحدًا منهما كي أجعله ضمن المجموعة التي سننتجها في الربيع».

ابتسمت مع أن هذا كان يبدو مستحيلًا قبل لحظات فقط. سارت معه إلى غرفة مكتبه، وكانت شبه قادرة على سماع حفيف ثوبها المصنوع من الحرير والجلد.

***

اقترب شهر تشرين الثاني من نهايته. من ناحية أولى، اقتراب موعد تنصيب بنازير بوتو جعل كل شيء رائعًا؛ ومن ناحية ثانية، لم يؤدِّ هذا إلى جعل سن الرابعة عشرة أكثر سهولة. أمضت زهرة المساء السابق كله في السير جيئة وذهابًا في غرفتها مرتدية الساري كي تتأكد من قدرتها على التعامل مع هذا اللباس الخاص بالكبيرات من غير أن تتعثر به، ومن غير أن تبدو كأنها طفلة تجرِّب ملابس أمها. ستكون الليلة أول خروج لها بالساري، فهي ستذهب إلى حفل زفاف يُقام في حديقة فندق «بيتش لَكجري» المحاطة بأشجار النخيل، حيث ستكون رفيقة والدها نيابة عن

أمها التي لا بد لها من حضور مناسبة مدرسية في مكان آخر. كان من المستبعد كثيرًا أن تصادف أحدًا من المدرسة، فهذا زفاف ابنة واحد من زملاء والدها في الصحيفة. حتى إن بدت أقل ثقة مما ينبغي فلن يكون من حولها أحدٌ ممن تهمها آراؤهم فيها.

هذا ما حسبته وهي تسير مع أبيها. انزعجت بشدّة لأنها اضطرت لحضور هذه المناسبة حد أنها نسيت (معتبرة زميل والدها مجرد «عمّ» آخر كثير الكلام) أن صاحب الدعوة صحافي عرف قيود الرقابة على الصحافة طيلة سنوات الدكتاتورية، وفاز بعدد من الجوائز نظير شجاعته. من هنا، كان على زهرة أن تفطن إلى أن مئات المدعوين القادمين هذه الليلة سيكون بينهم سياسيون أمضوا سنوات الدكتاتورية في المنفى، ومراسلون صحافيون أجانب كانوا يستخدمون «هذا العم» مصدرًا لتقاريرهم التي يقولون فيها ما لا يستطيع قوله أحد في باكستان، وناشطون في حقوق الإنسان من بينهم محامية صغيرة الجسم لها قلب أسد وحضور عملاق.

أمسكت زهرة بذراع أبيها وأشارت إلى فهميدا داوود. كانت ضحكات تلك المرأة صادحة في أرجاء الحديقة، فذكّرت جرأتها زهرة بأنها سألت والدها ذات يوم عن لقاءاته مع هذه المرأة التي كانت تجسيدًا للعدالة -وكانت من المهتمين كثيرًا بمباريات الكريكيت حيث تستخدم شهرتها كي تجلس في مقصورة الصحافيين أثناء المباريات التجريبية وتتبادل أنباء اللاعبين-. كانت إجابة والدها غير متوقّعة - «تحكي نكاتًا شديدة البذاءة، نكاتًا لا أستطيع تكرارها».

سألها أبوها الآن: «أتحبين مقابلتها؟». أومأت برأسها وحلّ عليها خجل مفاجئ.

قال لها: «تعالي»، وسار بها عبر الحديقة بين الأشجار المزينة بأنوار حالمة، وبين خدم يحملون زجاجات الكوكا كولا والميراندا المثلجة ماضين بها صوب المدعوين الواقفين هنا وهناك -رجال يكلمون رجالًا، ونساء يكلمن نساءً- لم يكن ظاهرًا على أي من أولئك اهتمام بما يجري

على المنصة المقامة في آخر الحديقة حيث كان العريس والعروس واقفَيْن من أجل التقاط سلسلة صور لا نهاية لها مع الأصدقاء والأقارب، ومع أشخاص مهمين كانوا يُستدعون إلى المنصة حتى يعلموا أن حضورهم موضع تقدير كبير يستحق التخليد في ألبوم صور الزفاف.

مع اقترابهم من فهميدا داوود، تساءلت زهرة كيف سيستطيع والدها اختراق جمع المعجبين -رجالًا ونساء- الملتف من حولها. لكنها فوجئت عندما رفعت المحامية يدها ونادت والدها بكلمات قد يمكن اعتبارها شتائم ودّية.

قالت بينما يقترب: «ها هو مؤمن حقيقي آخر. سمعتُ، يا حبيب، أنك جرحت مشاعر الجنرال ضياء الحق في آخر أيام حياته. إنّ على حكومة بنازير بوتو أن تجعل من بين أهم أولوياتها أن تقلّدك وسامًا. من هذه التي أتيت بها معك؟».

ما كاد يُسنح لزهرة وقتٌ كافٍ كي تستطيع استيعاب ألقَ كونها ابنة أبيها، ابنة البطل، حتى دفعها والدها واضعًا يده على كتفها يحثها على التقدم. وقال: «هذه ابنتي، زهرة».

«زهرة. في سنّك هذه، كيف هو الإحساس بأن العالم يتغير؟». أحست زهرة بأنها على وشك أن يغمى عليها، أو أن تتقيأ، لكن فهميدا داوود كانت تنظر إليها، وكان الجميع ينظر إليها وكأنهم أشخاص مهتمون حقًا بما ستقول، لا أشخاص يتصرفون معها بطريقة مهذّبة إكرامًا لوالدها. صارت فجأة شديدة الانتباه إلى أن حذاءها ذا الكعب المنخفض غير مريح، وإلى أن ثقلها كله مستقر على راحتَي قدميها. ألهاها هذا عن كل شيء فما عادت قادرة على التفكير إلا في التخلص من هذا الألم. نقلت ثقل جسدها من قدم إلى أخرى. انغرس كعبا حذاءها في العشب فكادت تفقد توازنها. رفعت ذراعيها بحركة تلقائية فانزلق الساري عن كتفها.

أمسكتها فهميدا داوود من يدها وكأنّ ذلك أكثر الأشياء الطبيعية في

العالم، وبيدها الثانية أعادت الساري إلى كتفها. قالت لها المحامية وهي لا تزال ممسكة يدها: «أنا راغبة حقًا في معرفة كيف هو إحساسك؟».

قالت زهرة: «إنه أمر رائع». كانت تدرك هذه العظمة التي تمسّها وأن عليها أن تقول شيئًا لا يبدو مثل أي شيء آخر يمكن أن تقوله أي مراهقة سخيفة... «أحس بأن في العالم أشياء ممكنة أكثر مما كنت أظن». ليس هذا ما أرادت قوله. بدت كأنها تؤدي شخصية الملكة في «أليس في بلاد العجائب» وهي تقول: «أصدق أحيانًا ستة أشياء مستحيلة، قبل الإفطار».

لكن فهميدا داوود تراجعت خطوة إلى الخلف وابتسمت لها ابتسامة كبيرة دافئة، وكأن عبارة زهرة قد لخّصت كل ما هو رائع في العالم. قالت لها: «أليست معرفة هذا أمرًا رائعًا؟ تذكّريه دائمًا. كم عمرك الآن؟» ستة عشر؟»

أجابتها: «أربعة عشر».

«ساري وإجابة ذكية في الرابعة عشر! يا إلهي! ماذا تحبين أن تصيري عندما تكبرين؟ هل ستكونين صحافية مثل والدك؟».

«لا، بل محامية مثلك».

سمعت والدها يقول: «هذا خبر جديد لم أسمعه قبل الآن».

«أظن أن جيلك كله راغب في الذهاب إلى الجامعة في أميركا».

قالت: «لا، بل إلى إنكلترا. أود الذهاب إلى كامبريدج».

قالت فهميدا داوود وكأنها لم تدرك ما جعل زهرة تقول هذا: «أنت زميلتي إذًا. اتصلي بي عند تقديمك طلب الانتساب، وسوف أقول بضع كلمات لبضعة أشخاص هناك».

انتهى الأمر بعد ذلك، وانقضت اللحظة التي كانت فيها مركز الكون. عاد الكبار إلى تبادل الأحاديث. اقتربت منها فتاة مراهقة كانت ابنة واحد من أولئك الناس. جعلوهما تتبادلان الحديث، فكان واحدًا من تلك الأحاديث التي لا يحب أحد متابعتها ولا يعرف أحد كيف ينهيها. استمر الحديث من غير نهاية إلى أن انضمت إليهما فتاة أخرى فصار الخلاص

ممكنًا. في تلك اللحظة، كان والد زهرة يقف مع عدد من الصحافيين في غيمة من دخان السجائر، فابتعدت زهرة عن الحديقة وسارت على الممر عند الجدول. كانت المصابيح في آخر الحديقة منعكسة على صفحة الماء كأنها كرات ضوء غارقة. كان نورها كافيًا لجعل أشكال أشجار المانغروف الجاثمة على الضفة الأخرى واضحة. رفعت أطراف الساري ودقّت بكعبها على الأرض كي تُخلّص حذاءها من التراب العالق به.

«انظروا إلى من تغيرت هذا التغير كله منذ أن كنا في المدرسة بعد ظهر هذا اليوم».

التفتت زهرة وصاحت: «حمد!».

قال وهو ينظر إليها بطريقة تعرف أنها ينبغي ألا تعجبها، «كم ستصير الأمور مختلفة لو أن الساري كان زيّ المدرسة الرسمي». كانت سترته ملقاة على كتفه؛ إصبعه معقوفة داخل ياقتها. نظرت إلى جذعه تحت قميصه الأسود الضيق المزرّر عليه، فتبادرت إلى ذهنها كلمة «مشدود» - كلمة لها صلة بالصفحات ذات العلامات السريّة في تلك الكتب على الرفّ في بيت مريم.

أجابت محاولة أن تبدو غير مبالية: «هل ستكون مختلفة؟». عاودها ذلك الإحساس بالتحول الذي عرفته عندما أزاحت شريط حمالة الثديين على كتفها وجعلت ذلك الرجل يتلوّى رغبة - ها هي هنا، نسخة ناضجة من زهرة الماضية في هذا العالم، زهرة التي ما عادت محط إعجاب الطلبة والمعلمين فقط، بل أيضًا محط إعجاب نساء مثل فهميدا داوود، ومحط إعجاب فتيان كانت نظراتهم في ما مضى تمر بها مرورًا من دون التوقف عندها.

ضحك حمد ومدّ يده فمسّ شريط الجلد العاري على بطنها بأطراف أصابعه. أسرعت بالابتعاد عنه لأنها لم ترد أن يرى ذلك أحد من الواقفين في الحديقة. لكن الظاهر أن ما من أحد ينظر صوبهما. لقد بدأ تقديم الطعام في الناحية الأخرى من الحديقة، فاجتمع المدعوون بسرعة شديدة مشكّلين خطًا متعرجًا من حول الطاولات ذات المفارش البيضاء. وراحوا

يملأون أطباقهم بالكباب والبولاو والبورما والجمبري المقلي. ظل أثر أصابعه محسوسًا على جلدها، أثرٌ بعث فيها إحساسًا أشبه بالدغدغة. لم يمسّها أحد هكذا من قبل؛ ولم تظن أبدًا أن من الممكن أن يحدث هذا بكل سهولة من غير أن تكون في حاجة إلى فعل أي شيء غير الوقوف هناك.

خطا متقدّمًا، مقتربًا من الجدول. ما من شيء متحرّك غير قارب خشبي يصدر مجذافاه صوتًا خفيضًا. نور مصباح الكيروسين على الزورق كشف أن مَنْ عليه فتى لم يكد يبلغ سن المراهقة. كان يدخن سيجارة. أطلق حمد صفرة خفيضة فجذف الفتى مقتربًا.

قال حمد: «سوتا؟»، فقذف إليه الصبي بعلبة السجائر. التقطها بمهارة وفتحها. كانت فيها سيجارة واحدة وعلبة عود ثقاب. قال لها: «علينا أن نعطيه شيئًا مقابل هذا». مدّ يده إلى معصم زهرة، لكنه لم يمس جلدها هذه المرة. أمسكت أصابعه سوار الياسمين الذي كان هناك كأنهما في مسلسل على التلفزيون الباكستاني حيث يوحون بالتقارب الجسدي إيحاء فقط. نزع السوار من ذراعها فأحست الياسمين باردًا على رسغها ويدها. رفعه إلى أنفه لحظة مدوّخة، ثم قذف به صوب القارب. التقطه الصبي بطرف مجذافه، ثم كانت حركة واحدة من المجذاف كافية لأن يطير السوار ويسقط في كفه المفتوحة. وقفت زهرة تنظر إليهما معًا معجبة ببساطة حركاتهما.

أشعل حمد السيجارة، وعرض عليها أن تأخذ نفسًا منها، لكنها رفضت. سحب من السيجارة أنفاسًا طويلة، فتحول من بطل مسلسل تلفزيوني باكستاني إلى رجل دنيوي في واحد من تلك الإعلانات التي تظهر خلال الفواصل الدعائية في مباريات الكريكيت.

قال لها: «إذًا، ماذا تقول عني؟».

«من هي؟». سمعت تجهّمًا في صوتها، وتساءلت إن كان حمد قد سمعه أيضًا.

«ماذا بك؟ هل تحاولين مضايقتي؟ إنها صديقتك الأولى، أعرف أنها تقول لك كل شيء».

هزت زهرة كتفيها، «ولماذا أقول لك ما تخبرني به؟». لقد أَلِفتْ أن يسير حمد مع مريم من بوابة المدرسة وإليها في بداية اليوم المدرسي وآخره، وصارت على علم بأنه يكلمها أحيانًا ـ قالت لها مريم فلم يقنعها سؤالها: «من يدري كيف حصل على رقمي؟» ـ وكان واضحًا أن مريم مستمتعة بتلك الملاحقة، لكنها غير معجبة بحمد. هذا ما جعل الأمر كله يكف عن كونه مزعجًا بالنسبة إلى زهرة. كم يمكن أن يطول اهتمام فتى في السابعة عشرة بفتاة في الرابعة عشرة لا تمنحه إلا جزءًا صغيرًا من اهتمامها. وأما الآن، فقد صار شذا عطره حضورًا واهيًا جعلها راغبة في أن تلصق وجهها إلى رقبته حتى تصل إلى أصل ذلك الشذا. لم تكن قادرة على تصديق أن تلك النزهات العفيفة في المدرسة، وتلك المكالمات الهاتفية، هي كل ما أرادته مريم من حمد.

سألها: «ماذا عنها؟ أعني... هناك ما يراه الجميع. لكنّ هناك أمرًا آخر أيضًا. كأنها... كأنها ستحكم العالم كلّه يومًا من الأيام، فلا تجد في ذلك ما يفاجئها. أتظنين أن بنازير بوتو كانت مثلها عندما كانت في الرابعة عشر».

أتت إجابتها قصيرة: «لا».

«قولي لها كلمة طيبة عني، من فضلك. أو، أخبريني كيف أستطيع المضي معها إلى ما هو أكثر من تلك المواعيد السريعة في أوشن فيديو. هي لا تصغي إلى أحد غيرك».

فهمت زهرة الآن ما جعل مريم ترفض عرضها بأن تأخذها إلى متجر «كريستال بالاس» كي تعرّفها على البائع الذي سيعطيها أفضل النسخ من أحدث الأفلام.

«إلا إذا... ». قال حمد هذا ببطء شديد.

«إلا إذا ماذا؟».

ابتسم فأدركت الأمر. تخلّلتها الفكرة إلى آخرها فجعلتها تحس بساقيها غير مستقرتين. قال لها وهو يرمي السيجارة بعيدًا في اتجاه غير اتجاه الأضواء والمدعوين إلى حفل الزفاف: «أتحبين السير قليلًا؟». امتدت يده

من جديد وداعبت جلدها العاري فتوقف كل شيء في عقلها عدا كلمة واحدة: «نعم».

لكن كلمة أخرى أتتها. «مريم». تراجعت خطوة إلى الخلف، تراجعت مبتعدة عن شذا عطره المسكر، عن دنوّه الشديد منها.

قالت: «أنت غير لطيف أبدًا»، فابتسم لها تلك الابتسامة نفسها، الابتسامة التي تقول، لا، لست لطيفًا، لست لطيفًا أبدًا! عند هذا، صار عليها أن تبتعد عنه سريعًا. كادت تتعثر وتدوس على أطراف الساري عندما سارت عائدة إلى الحديقة ماضية صوب العالم الذي هي فيه جديرة بالوقوف مع أعقل الناس وأكثرهم حكمة من غير أن تشوبها شائبة، من غير أن تكون عندها أية رغبات مظلمة.

***

في الليلة التي أعقبت أداء بنازير القسَم كي تصير رئيسة الوزراء، وصلت زهرة ومريم إلى غيزري حيث كان شقيق صبا الأكبر يقيم حفلة. إنه الرياضي النجم في المدرسة. لقد دعت صبا عددًا من زملائها وزميلاتها في الصف، وكانت من بينهم زهرة ومريم. لكن شقيقها أتى إلى مريم في باحة المدرسة وأعلن أنها على قائمة مدعوّيه أيضًا، معبرًا عن أمله بأن تكون قد اعتزمت حضور الحفلة. لم يكد يلقي بالًا إلى زهرة إلى أن قالت له مريم: «سآتي إن أتت زهرة». ثم أضافت تخاطبها: «زهرة، ألا تأتين؟».

أخذهما إلى الحفلة سائق مريم الجديد. قالت له مريم عندما نزلتا من السيارة: «تعلم أنك لست مضطرًا إلى انتظارنا، أليس كذلك؟».

أضافت مريم رافعة صوتها أعلى من صوت الموسيقى القادم من صوب حلبة الرقص: «سيكون هنا كثيرون ممن يستطيعون إعادتنا معهم».

لم تجد زهرة نفسها في حاجة إلى التساؤل عمّا إذا كانت مريم قد كذبت على والديها وقالت لهم إن والد زهرة سيأتي إلى أخذهما من الحفلة وإعادتهما إلى بيت زهرة، مع أنها كانت قد قالت لها إنه ليس على والدها أن يشغل باله بالأمر لأنها ستطلب من سائقها أن يظل معهما إلى

ساعة متأخرة. سُرّت زهرة كثيرًا عندما اقترحت مريم عليها أن تنام عندها فلم تفكر في دوافعها. كانت شاردة الذهن بطريقة غريبة أثناء وجودهما في السيارة. استغلت زهرة اللحظة كي تحكي لها عن زيارة العميد -الآن، بات مأمونًا، آخر الأمر، افتراض أن الجيش قد صار خارج السلطة- لكن مريم لم تجبها إلّا أن الأمر جاء في وقت مناسب تمامًا، وكأن تصرف حبيب علي بوحي من ضميره لم يكن فيه شيء مما يستحق التوقف عنده. جلست مستاءة تنظر إلى مريم وهي تخلع بلوزتها الفضفاضة تركوازية اللون وتضعها في كيس رقيق من النايلون كان في جيب بنطلونها الجينز. تحت تلك البلوزة، كانت ترتدي بلوزة بيضاء من غير كمَّيْن، وكان واضحًا أنها مستوحاة من صورة ويتني هاوستن على غلاف ألبومها «ألبوم ويتني». وضعت الكيس خلف صف من أصص الزهور، ثم مررت أصابعها عبر شعرها الذي صارت فيه خصلات هفهافة بعد ذهابها إلى صالون التجميل في وقت سابق من ذلك اليوم. من غير أن تنظر إلى زهرة قالت لها: «هيا بنا». كانت زهرة تظن نفسها متأنّقة في قميص الجينز الذي رفعت كميه وارتدت تحته بلوزة مقلّمةً. لكنها أحست الآن بأن حذاءها الأحمر ضيق عند أصابع قدميها، وأن طوله غير متناسب مع بنطلون الجينز.

نادت مريم مجموعة من طلبة الصف المتقدّم، لكن زهرة تابعت سيرها إلى طاولة في آخر الحديقة حيث كانت المشروبات المثلجة موضوعة في حوض من الستانلس ستيل فسارت مريم خلفها. وقفتا في الحديقة متجاورتين، لكن من غير كلام، وقفتا ترتشفان الباكولا من زجاجتيهما بقشتين من البلاستيك، ينطبق جدار الواحدة منهما إذا امتص المرء السائل بقوة زائدة. روائح زهور الليل ملأت الهواء بعطرها الثقيل. مصابيح تزيينية معلقة من أغصان الأشجار. وشرفة كبيرة تحولت إلى حلبة رقص حيث كان خط فاصل غير مرئي يعزل طلبة الصف العاشر عن طلبة الصف المتقدّم. في الهواء برودة لاذعة جعلت بلوزة مريم التي من غير كمّين أكثر

إثارة للحنق. اقترب حمد منهما: سترة جلدية، وشعر مصفف بالجِلّ وتلك الكولونيا نفسها من جديد.

سأل من غير أن ينظر إلى زهرة: «هل نرقص؟». ثم شدَّ مريم من يدها، كان ذلك من أكثر الأمور طبيعية في العالم. قادها إلى حلبة الرقص فمرت بزميلاتها وزملائها في الصف من غير أن تنظر إليهم.

ظلت زهرة واقفة في الحديقة وحدها. كانت غير قادرة على الانضمام إلى زملائها وزميلاتها لأنهم وقفوا جميعًا ينظرون إلى مريم ويتهامسون فيما بينهم. كان غير معقول أيضًا أن تحاول إقحام نفسها في أية مجموعة من مجموعات الطالبات الأكبر سنًا. لكن أسوأ من هذا كله كان بقاؤها وحدها في تلك الأمسية في حين كانت مريم ترقص مع حمد مقتربة منه أكثر مما ينبغي. بدأ جلد ذراعيها يقشعرّ لبرودة الطقس. تساءلت في نفسها إن كان إنزال الكمين المطويين سيفسد مظهرها.

لا شك في أن العالم لا ينبغي أن يظل هكذا. صارت بنازير رئيسة وزراء. أدّت القسَم مرتدية ثوبًا أخضر زاهيًا ووشاحًا أبيض اللون: لونا علم باكستان. جعلت الرجال من حولها يبدون أقزامًا. رجال الجيش والبيروقراطيون ورجال الحرس القديم... لكنها صارت الآن هنا. كانوا يؤدون القسم أمامها، ويحيّونها. كان قادة الجيش يحيون بنازير. تكاد دموع المرء تنهمر عندما يتذكر هذا؛ بل لعلها ستظل تنهمر كلما تذكّره، مهما طال العمر على هذه الأرض. لقد شنقوا والدها، وزجّوا بها في السجن، وأرسلوها إلى المنفى. لكنهم يحيّونها الآن، يؤدّون التحية أمام هذه المرأة التي لم تتجاوز الخامسة والثلاثين لأن ملايين وملايين الناس ذهبوا إلى صناديق الاقتراع وقالوا إن عليهم أن يؤدوا التحية لها. مسحت زهرة عينيها بيدها. ما أهمية هذا كله... شُلل المدرسة، وسلوك مريم الفظيع، ولا مبالاة حمد، وأصابع قدميها المتألمة في حذائها. كيف يمكن أن يكون أي شيء من هذا كله مهمًا عندما يتغير العالم كله؟

أتى بابار عبر الحديقة متجهًا إليها مباشرة. سألها: «ما إحساسك وأنت

بعيدة عن صديقتك؟». كانت على قميصه الأزرق المزرّر رقعة غير متقنة عند موضع القلب حيث انتزع عنه شعار شركة الأزياء. يذهب الفتيان إلى بلاد أجنبية ويشترون قمصانًا غالية الثمن؛ لكنهم أيضًا قادرون -من غير خجل- على ارتداء ملابس مقلدة محلية الصنع. وأما إذا كان المرء لا يرتدي غير الملابس المقلّدة من غير أن يستطيع شراء النُسخ الحقيقية فسوف يبدو مدّعيًا: هذا ما شرحه لها قبل بضعة أسابيع عندما سألته عن الجروح الحمراء الصغيرة في إصبعه، تلك الجروح التي خلّفتها الإبرة التي استخدمها من غير إتقان. جذبتها طريقته في قول هذا لها، ونفّرتها أيضًا... كأن كلامه كان تأكيدًا على فهم مشترك بينهما بشأن حياته وحياتها.

قالت: «أنا ومريم لسنا ملتصقتين. ظننتك قلت إنك لن تأتي اليوم».

«كنت غير راغب في المجيء؛ لكنك قلتِ إنك ستأتين».

رأت ابتسامته المفعمة أملًا، وكيف كانت كتفاه ممتلئتين من تحت قميصه، ورأت استقامة أنفه المثالية. قالت في نفسها إنه أكثر وسامة من حمد، وحاولت أن ترى هذا أمرًا مهمًا. وقفت ترتشف الباكولا وتنظر صوب حلقة الرقص. كان مريم وحمد قد اختفيا في مكان ما داخل كتلة الأجساد هناك؛ لكنها التقطت نظرة صبا الغاضبة.

قالت لبابار: «اذهب وارقص مع الجميع».

«عليك أن تأتي معي، وإلا فسوف أظل واقفًا هنا أشعر بالارتباك».

سهّل عليها الانضمام إلى رفاقهما ورفيقاتهما. توقّف الهمس بينهم مع أنهم ظلوا يتابعون مريم وحمد. كانت صبا شديدة السرور بوجود بابار ضمن كتلة الأجساد نفسها التي كانت ترقص داخلها، فاتسعت ابتسامتها وشملت الجميع، حتى زهرة. لم يلبث أن اختفى كل شيء عدا إيقاع الموسيقى نابضًا مع نبضات قلب زهرة، وكذلك ذلك التلامس العارض -المقصود- بين ذراع بابار وذراعها. راحت ترقص مغمضة عينيها. ليست هذه ذراع بابار، بل ذراع شخص آخر، شخص مجهول. ذلك الاضطراب المألوف داخلها. رقصا، ورقصا. تركت مريم حلبة الرقص وجلست في

حضن حمد على واحدة من كراسي البلاستيك في الحديقة. سترته على كتفيها. رمقتها صبا بنظرة مفادها أن عليها أن تذهب وتجرّ صديقتها مبتعدة بها عن هذه الفضيحة التي ستلاحقها في باحة المدرسة يوم غد. لكن زهرة اكتفت بأن أغمضت عينيها وتركت الموسيقى تحمل جسدها وتحرّكه وتلغي كل شيء آخر.

كان الناس يدخلون حلبة الرقص ويخرجون منها. سأل بابار زهرة إن كانت راغبة في الذهاب لتناول مشروب بارد، لكنها رفضت، فبقي معها. بدأ شقيق صبا الرقص على الحلبة خلف زهرة -بنيته الجسدية الرياضية كانت طاغية على خراقة حركاته المتخشّبة- مالت إلى الخلف ثلاث مرات فمست كتفها ساقه. في المرة الثالثة، اعتذر وابتعد عنها. تغيرت الموسيقى إلى أغنية «فاست كار»، فتعالت أصوات الاحتجاج مِن كل مَن يرقصون فُرادى. خلت حلبة الرقص من نصف الراقصين، لكن صبا ظلت حيث كانت وتباطأ رقصها إلى جوار بابار الذي تباطأ رقصه إلى جوار زهرة. عاد حمد ومريم إلى الحلبة. وضع حمد يديه على خصرها، وشبكت يديها خلف ظهره. راح جسداهما يتمايلان معًا. صوت تريسي تشابمان اخترق زهرة اختراقًا وشق قلبها وجعلها تبصر كم كان هناك من توق. اقترب منها بابار فأغمضت عينيها من جديد. ذراع تمس ذراعها، وظهر يدٍ على ظهر يدها، وأصابع موشكة على أن تشبك أصابعها. أمسكتها صبا من مرفقها (متظاهرة بالمودة) وشدّتها صوبها. وضعت ذراعها على كتفي زهرة كي تتحركا معًا على إيقاع الموسيقى. صارتا قبالة بابار الذي بدا مسحوقًا بعد هذه المناورة، لكنه واصل الرقص بكل بسالة. أدارت زهرة وجهها صوب الحديقة كي لا تكون مضطرة إلى رؤية أي من أزواج الراقصين - الأمر لم يكن مقتصرًا على حمد ومريم، لأن كل من وضع يديه على خصر فتاة كان يثير في نفسها ذلك الإحساس ذاته. جماعة من فتيان وقفوا معًا تحت شجرة الفرانغيباني. لمعت بين أيديهم قارورة معدنية كانوا يضيفون منها شيئًا إلى زجاجات الكوكا كولا. كان الكل في حاجة إلى أكثر مما

تسمح به أنظمة المدرسة... ليست وحدها في ذلك. الأزواج الراقصون رقصًا بطيئًا، والفتيان مع تلك القارورة المعدنية، وصبا، وبابار، وكلهم، كلهم. لماذا تكون عليهم هذه القيود كلها؟ لعلهم متماثلون في ملابسهم المدرسية الموحّدة، مرغمون على اتخاذ الجانب الأيمن من السلم عندما يصعدون إلى غرف الصفوف في بداية كل يوم؛ فلماذا لا يُسمح لهم بأن يتحرّروا؟ صار العالم الآن جديدًا، صار مختلفًا، فكيف لأي منهم أن يبقى مثلما كان؟

قالت صبا بهمس قريب من أذن زهرة لم تهتم كثيرًا بإبقائه خافتًا: «أين تذهب مريم؟».

ها هي هناك تسير مع حمد، يدًا بيد، متّجهان صوب البوابة. ركّزت زهرة إرادتها، *انظري إليَّ!* فالتفتت مريم برأسها صوبها وتركت يد حمد. خرجت زهرة من حلبة الرقص فأتت مريم إليها.

قالت لها: «أنت مستمتعة هنا، ومن الأفضل أن تَبقي بعض الوقت». يدها في جيبها، ووِركها بارز كأنها واقفة من أجل التقاط صورة لها... «سوف أذهب بالسيارة مع حمد ثم نعود لأخذك».

«إذا ذهبت معه في السيارة فسوف تقول المدرسة كلّها غدًا إنك فعلتِها معه».

«عظيم، يا صاحبة حزام العفّة... إذًا، تعالي معنا».

كان ذلك حمد الذي اقترب منهما من غير أن تلاحظه زهرة. انفتح فم مريم دهشة.

قال لهما: «هيا بنا! فلتأتِ مَنْ تأتي! هيا بنا! نحن منطلقون». استدار وسار على العشب بخطى واسعة. انطلقت مريم لاحقة به.

أتاها صوت بابار يطمئنها: «سوف يأتي أخي لأخذي عما قريب، نستطيع إيصالك إلى البيت، أو نستطيع إيصالكما». لكن زهرة عادت تنظر إلى حلبة الرقص فرأت العيون كلها متجهة إلى مريم. سارت خلف صديقتها خارجة من البوابة.

تابع حمد سيره بعد البوابة، ومضى في الشارع متجاوزًا صف السيارات الواقفة ومجموعة السائقين الجالسين على حواف أحواض الزهور المتطاولة يدخّنون ويتلاصقون طالبين الدفء. رفع بعض السائقين رؤوسهم ناظرين إلى مريم وزهرة قبل أن يشيحوا بوجوههم عنهما. ألقت مريم نظرة سريعة صوب البيت عندما تذكّرت، مثلما تذكرت زهرة أن كيس النايلون الذي وضعت فيه بلوزتها التركوازية لا يزال هناك. في الشارع أمامهما، ظهرت أضواء سيارة، ثم انطفأت. رفع حمد يده وتسارعت خطواته.

قالت زهرة: «لماذا أوقف سائقه السيارة بعيدًا هكذا؟». هزت مريم رأسها ناظرة إلى زهرة. نظرت إليها حقًا لأول مرة في تلك الأمسية.

بدا لها غريبًا أن تكونا واقفتين هناك، في الشارع، وقت الليل. ما عادت الآن تحس بالبرد، ليس بعد ذلك الرقص كلّه، لكنها أحست بأن من الصائب أن تُنزل كمَّيها المطويَّيْن وأن تزرّرهما عند المعصمين. إلى الجانب الآخر من البوابة، ثمة عالم من الأضواء والموسيقى حيث يستطيع الفتيان والفتيات أن يرقصوا معًا، حيث كل شيء مألوف، من الموسيقى إلى المشاركين في الحفلة إلى بيت صبا نفسه، ذلك البيت الذي تعرفه زهرة وتعرفه مريم منذ أن كانتا في سن حفلات عيد الميلاد ذات البالونات على أشكال الحيوانات والألعاب المسلية. لكن الشارع نفسه كان ظلمة، وكان كله ظِلالًا. إحساس بالانكشاف يعزّزه النسيم الذي تغلغل في قميصها وبلغ جلدها. أدركت على الفور أن العالم الخالي من قواعد المدرسة وأنظمتها موجود هنا، إلى الجانب الآخر من البوابة. أحست بأنها مخدّرة، أو سكرى. مع أنها ليست مخدرة ولا سكرى؛ وتمنت أن تستطيع إزالة حمالة الثديين عن جسدها حتى يستطيع النسيم الدخول إلى ذلك المكان، حتى يلعب هناك على هواه.

قالت مريم: «دعينا نعود إلى الحفلة».

عودة إلى إغماض الأعين وتخيل أن ثمة شخصًا غير بابار يريد الرقص معك. عودة إلى مريم الجالسة في حضن حمد. عودة إلى انتظار قدوم أمر مثير.

«ألا تريدين انتظار حمد كي تخبريه؟». كان قد جلس في السيارة التي تحرّكت مقتربة منهما. كانت سيارة سوزوكي إف إكس بيضاء، نوافذها مظلّلة. خرج حمد من السيارة وقال لهما: «سيداتي، العربة في انتظاركما».

ابتسم لمريم، فأحست زهرة -مثلما أحست عند الجدول- قوةَ أن تكون الفتاة موضع اهتمامه. ليس بابار إلا صبيًا؛ وأما في ابتسامة حمد، في قوة يده التي مدها إلى مريم، فإن ثمة أمرًا مختلفًا، أمرًا مدوّخًا جعل زهرة تحسّ بدغدغة في أحشائها. وضعت يدها على ذلك الموضع، على جذعها، حيث مستها أصابعه. سمعت مريم تقول: «لسنا ذاهبتين، هيا يا زهرة». تظاهرت زهرة بأنها تخرِج حصاة من حذائها كي تمنحه لحظة يحاول فيها تغيير رأي مريم.

«سيدتي، في وسعي أن أوصل كلًا منكما إلى بيتها». كان الصوت آتيًا من مكان قرب البوابة. عرفت فيه صوت مانزور، سائق صبا.

انفتحت نافذة سائق سيارة السوزوكي وظهر فيها رجل. قال: «هيا!»، بنبرة فيها مزيج من الأمر والتشجيع. كان أكبر من حمد ببضع سنين؛ وكان مرتديًا قميصًا زاهيًا. فاحت منه رائحة كولونيا نفّاذة، لكنها غير مزعجة. شعره مقصوص على طريقة لاعب الكريكيت وسيم أكرم، شديد الكثافة والعمق في الأعلى، شعر يمكن أن تختفي فيه كرة كريكيت. ذلك ما جعل حبّ الشباب في وجهه مقبولًا لأنه كان سِمة مشتركة بينه وبين اللاعب الشهير.

قال حمد: «هيا، فلنذهب. السائقون ينظرون إلينا». أشار إلى زهرة بأن تجلس إلى جوار السائق. ففعلت مثلما أراد. التفّت من خلف السيارة حيث رأت لصاقتين على شكل قفازَي ملاكمة مكتوبًا تحتهما «GOOD 4 U». قد يعني هذا مديحًا؛ وقد يكون نوعًا من التشدّق؛ بحسب ما أراد صاحب السيارة. لحظة همّت بفتح الباب، سمعت مريم تناديها. رأتها تشير صوب البوابة. مال سائق السيارة وفتح لها الباب. جلست زهرة في مقعدها. وبعد لحظة، صارت مريم جالسة على المقعد الخلفي، ولحق بها حمد فجلس إلى جوارها. نظر الرجل - كان رجلًا حقًا، لا فتى فحسب، إلى زهرة من

غير كبير اهتمام، ثم عدّل وضع المرآة كي ينظر إلى مريم. أطال النظر إليها تمامًا بما يكفي لأن تكون نظرته استحسانًا.

شغّل محرك السيارة، وقال: «أهلًا بكما في سيارة جيمي». كان قد أمال مقعده إلى الحد الأقصى فبدا كأنه مستلق فيه. هذا ما وفّر لحمد حجة (كأنه في حاجة إلى حجة) كي يجلس ملتصقاً بمريم.

انطلق جيمي بالسيارة مبتعدًا عن الحفلة. قال حمد: «مريم، زهرة، جيمي. أيًا يكن ما يلزمكما في كراتشي، فهذا هو الرجل الذي سينجزه من أجلكما».

قالت مريم كأنها تخاطب سائقًا: «في هذه الحالة، يا جيمي، هل تستطيع أن توصلنا إلى بيت زهرة، إنه في سي فيو». كرهتها زهرة أكثر مما كرهتها في أية لحظة أخرى من لحظات تلك الأمسية.

اتجه جيمي صوب المقعد الخلفي. قال: «إنها راغبة في الفرار منكَ منذ الآن، أيها العاشق». قالها بالأوردو، عدا الكلمتين الأخيرتين. رفع صوت ستيريو السيارة، فأغرق أية إجابة محتملة بأغنية «بيت إت». انعطف صوب بوليفار «صن سِت» بدلًا من «فيز فايف». أحست زهرة بغبطة لأن غطرسة مريم -هذه المرة- كانت من غير أثر.

ما إن صارت السيارة في بوليفار «صن ست» المتسع حتى زاد جيمي سرعتها كثيرًا. كان ذلك أشبه بركوب العربة السريعة في «فن لاند»، لكن زهرة تجلس الآن إلى جوار طالب جامعة، لا إلى جوار واحد من تلامذة صفها. أنزلت النافذة كي تحس بسرعة السيارة بقوة أكبر، فكانت صدمة الهواء البارد ممتعة على نحو غريب. جعلتها أغنية مايكل جاكسون تنقر بكفَّيها على ساقيها وتحرك جذعها مع الإيقاع. كانت أضواء المدينة متألقة، وكانت ملصقات بنازير بوتو معلقة في كل مكان. راح جيمي يتجاوز السيارات والدراجات منطلقًا مع صوت الموسيقى المنتصر. أغنية بنازير بوتو الانتخابية، وأغنية مايكل جاكسون وقد مزجهما الـ«دي جي» معًا. مزيد من الموسيقى آتيًا من أكشاك على قارعة الشارع حيث يشتري الرجال

السجائر واللبان، وفرص قضاء الوقت. على جسر كليفتون سباق لعربات تجرها الحمير... روح معنوية مرتفعة في كل مكان. ومن خلف هذا كله، إحساس بالحرية، إحساس باختيار بدء حياة تتجاوز تلك الدورة المألوفة بين البيوت والأسر التي تحرّكت ضمنها طيلة حياتها. دسّت يدها تحت ياقة قميصها وتحسست جلدها، رباط حمالة الثديين، ثم جلدها من جديد. ها هي هنا، ها هي حياتها نفسها، وها هي فيها أخيرًا. لم تعد الحياة تنظر إليها من سيارة مجاورة، بل هي الآن معها في سيارة واحدة، معها حقًا.

أحست بحركة جسدين في المقعد الخلفي، لكن صوت الموسيقى كان طاغيًا على كل صوت غيره. عضت زهرة على رأس إبهامها كي تستطيع التركيز على الأغنية بدلًا من تخيل يد حمد متسللة من تحت قميص مريم. نظرت إلى جيمي وحاولت أن تصير راغبة في اهتمامه بدلًا من اهتمام حمد. لم يعجبها وجهه كثيرًا، فنظرت إلى يديه على مقود السيارة. شعرات سود على أصابعه كان حريًا بها أن تثير تقززها، لكنها لم تحس بالتقزز. كيف يكون الإحساس بهاتين اليدين على جسدها. كان متجهًا صوب فندق «بيرل كونتيننتال» حيث تعلم أن الطلبة الأكبر سنًا يذهبون في آخر الليل قاصدين المطعم الذي في الطابق الأرضي حيث يأكلون الحلوى ويشربون القهوة تحت ثريات الكريستال. أيكون هذا كل ما سوف يحدث الليلة؟

رأت يد جيمي تقترب من ساقها، لكنه لم يفعِل شيئًا غير الضغط على ولاعة السيارة. ومن المقعد الخلفي، ناوله حمد سيجارة فوضعها جيمي بين شفتيه.

صارت الولاعة جاهزة، فأشار إلى زهرة التي أخرجتها من مكانها، فظهرت نهايتها الدائرية متوهجة. حاولت أن تناوله إياها لكنه أبقى يديه على المقوَد ومال برأسه صوبها مبقيًا عينيه على الطريق أمامه. ظلت قدمه ضاغطة على دواسة السرعة. أبدًا، لم تعِش من قبل لحظة مثل هذه. قرّبت نهاية الولاعة المتوهجة من سيجارة جيمي وصارت أصابعها على مبعدة بضعة سنتيمرات من شفتيه. تمنت أن يكون حمد يشاهدها. أحاط جيمي

السيجارة المشتعلة بين سبابته وإصبعه الأوسط ووضعها في فمه، ثم أخرجها من جديد. ظهر لسانه فلعق شفتيه ثم عاد حيث كان.

اقتضى الأمر تلك اللحظة من النفور كي يختفي إحساسها بالاحتمال، بالفرصة، كي تراه رجلًا أكبر كثيرًا من أن يتصرف بهذه الطريقة مع فتاة في الرابعة عشرة. تافه.

التفتت كي تنظر إلى مريم الجالسة خلفها. لكن رأس مريم كان مرتدًا إلى الخلف، وعيناها مغمضتين، وذراعاها معقودتين فوق صدرها. كان تعبير وجهها يوحي بالضيق، بل ربما بشيء من الضجر. وكان على وجه حمد ملْمح صبي حرموه من هدية عيد ميلاده. رفع جيمي إحدى يديه عن مقود السيارة فمسّ بأطراف أصابعه وجنة زهرة وأدار رأسها إلى الأمام من جديد. كانت اليد نفسها الممسكة بالسيجارة فأحست حرارتها على مقربة من وجهها. كانت لمسته ناعمة، لكنها غير رقيقة، وكأنه يعرف أنها ستُطيع ذلك الضغط البسيط. كان ذلك كأنه يأمرها بأن تطيع كل أمر يعبّر عنه بطريقة ناعمة إن أرادت أن تظل اللغة المستخدمة في إصدار الأوامر لغة ناعمة.

زحف إحساس بالخوف صاعدًا من معدتها إلى حلقها. تنفست عميقًا عبر فمها المفتوح محاولة التخلص من ذلك الانقباض في صدرها. كانت الريح تصفعها وتجعل شعرها سياطًا تضرب وجهها. خدّر البرد شفتيها ووجهها. لكنها لم تدرِ إن كان مسموحًا لها أن ترفع زجاج النافذة.

تجاوز جيمي فندق «بيرل كونتيننتال». أدركت أن مريم تقول شيئًا من المقعد الخلفي، لكن صوت الموسيقى كان عاليًا، فلم تسمع زهرة ما قالته ولم تجرؤ على الالتفات صوبها من جديد. انعطف في طريق بونديرِ، الشريان الرئيسي في المدينة، فجعله بطء الحركة فيه يضغط على دواسة المكبح مثلما لم يفعل عند أية إشارة ضوئية حمراء. رجال جالسون إلى طاولات على الرصيف أمام مكان اسمه «كافيه ڤي آي بي»، على مسافة أقدام منها فحسب. لكز أحدهم رفيقه وأشار برأسه صوبها. رفع جيمي

حاجبه ناظرًا إليها متحديًا إياها أن تفتح السيارة وتخرج. كان هناك رجال، رجال فقط، رجال عند طاولات المقهى وفي السيارات وعلى الدراجات من حولهم. كان مكتب صحيفة والدها قريبًا من ذلك المكان. زارت المكتب مرات كثيرة، لكن في ساعات النهار. ليالي كراتشي ليست للنساء، ولا للفتيات.

حتى من غير أن تلتفت، كان حاضرًا إحساسها بذراعَيّ مريم العاريتين في المقعد الخلفي وببياض قميصها الملتصق بصدرها. قذف جيمي بسيجارته من النافذة، ثم أغلقها مشيرًا إليها بأن تفعل مثله. لم تدرِ أيهما أسوأ -أن ينظر إليها أولئك الرجال على الرصيف، أو أن تصير محبوسة هنا معه- لكنها علمت أن عليها أن تطيعه. كانت يدها مرتبكة عندما أدارت مقبض النافذة، لكنها أفلحت في رفعها فصار كل شيء داخل السيارة أكثر ظلمة. مزيج مزعج من كولونيا جيمي الحلوة الحادة وبقايا دخان السيجارة والموسيقى المتدفقة من مكبرات الصوت الرديئة في السيارة. استؤنفت الحركة في الشارع، فتجاوزت السيارة الرجال الجالسين على الرصيف.

مريم قريبة جدًا، بعيدة عن متناولها. فكرت زهرة بأن تدسّ يدها بين المقعد وإطار الباب باحثة عن يد مريم كي تحس بقوتها، لكن هذا يمكن أن يثير غضب جيمي.

أخرج جيمي شريط الكاسيت وقلَبه على الوجه الآخر، ثم رفع الصوت من جديد... أغنية «الفتاة فتاتي». تجاوز مبنى «بورت ترست» وانعطف في الطريق المؤدية إلى شاطئي السباحة -هاوكزباي وساندسبيد- الواقعَيْن على أطراف المدينة.

خفت حركة السيارات، ثم انقطعت. شاحنات متوقفة على أطراف الطريق، واحدة تلو أخرى. أكياس النايلون وفضلات أخرى امتلأت بها مساحات الأرض الخالية. كلاب تجوس الشوارع. دخل السيارة صوت عويل ثاقب كادت معه تثب من مقعدها، لحظة. كانت تلك الموسيقى الافتتاحية في فيلم «ثريلر» العويل، وصرير الباب، ووقع الخطوات. سمعت

هذا ألف مرة من قبل. ضحك جيمي. كانوا قد تجاوزوا المنطقة السكنية ولم يعد في الطريق شيء غير أكواخ صغيرة تبيع في النهار المشروبات الباردة والفاكهة ومضارب الكريكيت، ما يشتريه مرتادو الشاطئَين... لكنها مغلقة الآن كلها. الطريق خالية أمامهما، ممتدة طيلة المسافة من كراتشي حتى التلال البعيدة. أهكذا تقع حوادث الاختطاف؟ فتاتان في سيارة على طريق مهجورة، رهينتان غير مدركتَين أنهما رهينتان. أسرة مريم قادرة على دفع أية فدية، لكن أسرتها غير قادرة على ذلك. لعله يعرف هذا. قد يأخذ مريم ويرمي زهرة على قارعة الطريق في مكان منعزل. لكن ثمة قرى صيادين على امتداد الساحل. في وسعها أن تذهب إليها طالبة النجدة. ومضة أمل... ما أبشع إدراكها! مريم موجودة في السيارة بسببها هي.

ضغط جيمي على دواسة المكبح ضغطًا مفاجئًا، فكاد رأس زهرة يصطدم بزجاج السيارة الأمامي قبل أن يرتد جسدها عائدًا إلى مقعدها. ما من عقبة في الطريق، وما من حيوان يجري أمام السيارة. أوقف جيمي المحرك وأطفأ الأضواء. ابتلع الموسيقى صمتٌ مطبق. ما من أنوار سيارات قادمة. ظلمة هائلة في كل مكان.

قال مشيرًا إلى شيء لم تستطع زهرة رؤيته أمامها: «أحيانًا، تأتي شاحنات عبر ذلك المنعطف. يعمل السائقون ساعات طويلة جدًا؛ وهم يحرقون أكفهم بالسجائر حتى يظلوا مستيقظين».

قال حمد: «جيمي، هيا يا رجل! أعدنا إلى البيت».

قال جيمي: «هذا كثير على فتى عاشق». أنار مصباح السيارة الداخلي، ثم التفت ونظر إلى مريم: «أتريدون أن آخذكم إلى البيت؟ اطلبوا هذا بطريقة لطيفة، فقد أستجيب!».

جاء صوت مريم باردًا، شديد الوضوح: «ليتك تموت!».

قال وهو يطفئ النور: «ربما أموت. لكن، سنموت جميعًا عند ذلك».

أطلق حمد بضعة أصوات محتجة، لكن جيمي رفع يده كأنه يوبخه فأسكته.

ظلوا جالسين، ينظرون إلى الطريق أمامهم، منتظرين أن تأتي شاحنة مندفعة فتسحقهم. وبعد برهة، بدأت زهرة تسمع صوت الأمواج آتيًا من بعيد.

نظر جيمي إلى ساعته. شغّل المحرك، ثم شغّل مصابيح السيارة الأمامية. أدار السيارة في الاتجاه الآخر فانزلقت عجلاتها مطلِقة زعيقًا. انطلق عائدًا صوب المدينة التي بدت أضواؤها المقتربة جميلة. لم يحدث يومًا أن وجدت زهرة نفسها سعيدة هذه السعادة كلها برؤية حركة شوارع كراتشي في ساعة متأخرة من الليل - أضواء المكابح الحمراء في هذا الاتجاه، وأنوار السيارات الأمامية البيضاء في الاتجاه الآخر.

ساروا خلف شاحنة بطيئة الحركة تحمل كدسًا من أكياس الخيش المحزومة بحبل ثخين. انتقل جيمي إلى الناحية الأخرى من الطريق. باص قادم في اتجاههم. زاد السرعة - بوق الباص، وأنواره الأمامية، ووجه سائقه الغاضب. في آخر لحظة ممكنة، عاد بالسيارة إلى مسارها الأول بعد أن تجاوز الشاحنة. كان حمد يصيح. وكانت زهرة تعضّ على يدها. لكن مريم ظلت صامتة. عبروا جسر «نيتي جيتي» متجهين صوب بوابة الميناء التي عبرتها زهرة مع والدَيها ما لا يُحصى من المرات ذاهبين إلى أمسية على متن قارب الصيد. كادت تشم رائحة مصابيح الكيروسين والوسائد الرطبة وسرطان البحر الحار. تفكيرها في والدَيها وتمنّي وجودها معهما جعلها راغبة في البكاء. سوف يضعهم على زورق ويأخذهم إلى حيث لا يستطيع أحد أن يعثر عليهم أبدًا. على زورق الصيد، سرطانات متزاحمة في صندوق من خشب يحاول كل واحد منها التسلق على أجساد رفاقه كي يفرّ. سرطانات كأنها تدرك أنها سرعان ما سوف ترفع من ذلك الصندوق وتُفتح هياكلها. بدأت زهرة تحس غثيانًا. لا تستطيع أن تتقيأ في سيارة جيمي. استعادت في ذهنها أغنية «دافوديلز»، لكن ذلك لم يفدها شيئًا، فجرّبت «ذا تشارج أوف ذا لايت بريدج» إلى أن بلغت عبارة «وادي الموت» فبدأت تبكي صامتة.

كادوا يبلغون بوابة الميناء عندما توقف جيمي إلى جانب الرصيف.

رجل جاثم عند نهاية المطبّ يرقب السيارات. نهض واقفًا وتناول شيئًا كان في الظل خلفه، ثم سار إلى السيارة حاملًا على كتفه كيسًا من قماش خشن. كانت محتويات الكيس تتصادم وتقعقع... شيء قاسٍ، لعله مصنوع من معدن. الأسلحة في كل مكان في كراتشي، وعبارةً «ثقافة الكلاشنيكوف» صارت جزءًا من حياتهم اليومية. خرج جيمي من السيارة وأخذ المفاتيح معه.

ما كاد يغلق الباب من خلفه حتى أتت من المقعد الخلفي صرخة ألم حادة. كان جيمي خلف السيارة، فالتفتت زهرة كي تنظر. رأت مريم ممسكة إصبع يد حمد الصغير. كانت تلويه قائلة له بصوت خفيض: «عليك الآن أن تعيدنا إلى البيت، وإلا فسوف أجعلهم يطردونك من المدرسة».

قال حمد خائفًا: «أقسم لك، لم أعرف أن هذا سوف يحدث». تصعب معرفة إن كان خوفه من مريم أكبر أم من جيمي.

نظرت مريم إلى زهرة. قالت لها: «كان عليَّ أن أصغي إلى ما قلتِه عنه». لم يكن في صوتها، ولا في تعبير وجهها أية عاطفة غير الانزعاج الشديد. لكنها لم تلبث أن نظرت إلى زهرة عن كثب فتغير تعبير وجهها وعلا صوتها: «هل تبكين؟».

قالت لحمد: «اذهب واجلس مكانها كي تأتي إلى جانبي».

لكن حمد لم يكد يفتح الباب حتى أغلقه جيمي سريعًا وهو يقول: «ابقَ حيث أنت».

عدّلت زهرة جلستها سريعًا. صار وجهها متجهًا إلى الأمام قبل أن يأمرها بذلك.

قالت زهرة لمريم: «لا تُسببي أية مشكلة».

فتح جيمي صندوق السيارة ووضع الكيس القماشي - الآن، صار صوت قعقعة الأسلحة المعدنية واضحًا لا تخطئه الأذن، أسلحة لا يفصلها عن حمد ومريم إلا ظهر المقعد الرقيق. كان يبتسم عندما عاد إلى السيارة.

أفلحت زهرة في أن تقول له: «من فضلك، ألا تعيدنا إلى البيت؟».

شغّل محرك السيارة. قال لها: «إلى البيت! لن آخذكم إلى البيت. إذا أردتِ الخروج فاخرجي، لكن صديقتك ستظل هنا». لم تنتبه زهرة قبل الآن إلى أنه لم يُعِد المرآة إلى وضعها الأول منذ أن جلست مريم في المقعد الخلفي. لا بد أنه كان ينظر إليها طيلة الوقت.

***

قبل بضع ساعات فقط، كانت مريم قد وقفت عارية أمام مرآة الحمام مستمتعة بالنظر إلى نفسها. صار إحساسها مختلفًا منذ تنصيب بنازير بوتو رئيسة حكومة. امرأة صارت في موقع السلطة. كانت مريم تمضي أوقاتًا طويلة تتخيل فيها لقاءً مع بنازير تقول لها فيه إنها ستتولى أعمال العائلة، فتُطوّق بنازير كتفيها بذراعيها وتقول لها: *أهلًا بكِ إلى نادينا!* كانت تحس بشحنة تسري في جسدها عندما تمسك بنازير يدها، شحنة غير تلك التي تحسها عندما تفكر في لمسات حمد. لكن، حتى مع هذا، كان لا بد من تغير شيء في حياتها، فكيف يمكن أن يظل كل شيء مثلما كان قبل أن تضع بنازير يدها على القرآن وترفع اليد الآخرى وتؤدي القسم بصوت كله ثقة وكأنها عرفت دائمًا أن هذه اللحظة سوف تأتي؟ هذا ما جعلها تقول نعم لحمد، وتأمل في أن تكون ابنة عمها الأكبر منها سنًا محقّة عندما أخبرتها أن القبلة يمكن أن تحول الضفدع إلى أمير (قالت لها أيضًا -قالت هذا بلسان معوجّ وصوت باعث على الرهبة- إنها يمكن أيضًا أن تحوّل الأمير إلى ضفدع. لكن مريم لم تُرد أن تفكر في هذا الاحتمال).

عندما رأت سيارة السوزوكي علمت أن عليهما ألا تصعدا إليها. لكن حمد سار بزهرة إلى السيارة، وفتح جيمي الباب أمامها... لسبب من الأسباب، فعلت زهرة ما أراد الشابان أن تفعله. عندما جلس حمد إلى جوار مريم، حاول وضع يده على فخذها فدفعت تلك اليد بعيدًا. لماذا طلب من زهرة أن تأتي معهما؟ ومن يكون هذا الرجل صاحب الكولونيا الرخيصة، والملابس الرخيصة؟... ثم، بحق الرب، إنه يستمع إلى أغنية «بيت إت»! هل يعيش في سنة 1982؟

ثم، ما مشكلة زهرة؟ تغني بصوت عالٍ ويتمايل جسدها. نافذتها مفتوحة بالكامل. أتظن نفسها في فيديو موسيقي؟ وضع حمد ذراعه على ظهر المقعد، على مسافة سنتيمترات من كتفَيّ مريم. استدارت مريم كي تنظر من النافذة. وبعد بضع ثوانٍ، صارت ذراعه على كتفيها. دفعته مريم بعيدًا عنها ونظرت إلى سقف السيارة لأن ذلك كان الاتجاه الوحيد الذي يتيح لها ألا ترى جيمي وحمد. كان إحساسها العميق بالمقت يزداد شدة عندما طال أمد انطلاق جيمي بالسيارة. مقتٌ إزاء الصبي الذي لم يستطع أن يتدبر أمرًا في مثل بساطة العثور على سبيل يسمح لهما بأن يكونا وحيدين معًا؛ ومقتٌ للرجل الذي كشف نفسه، على الفور تقريبًا، كشف أنه واحد من أولئك التافهين الذين يحاولون التعويض عن حقيقة أنهم «لا أحد» بتلك القيادة السريعة وبالإكثار من الكولونيا. كانت مدركة أنه يراقبها، لكنها لم ترد أن يظنها منتبهة إلى مراقبته أو مبالية بها.

وهكذا، ظلت عيناها معلقتين بالسقف، فلم تنتبه عندما اختفى غناء زهرة وتمايُل جسدها، عندما حلت زهرة محلها مذعورة. لقد تركتها وشأنها في المقعد الأمامي، لكن زهرة تبكي الآن. ذلك الحقير جعل زهرة تبكي؛ لا بد من جعله يفهم أن هذا غير مقبول أبدًا.

أغلق صندوق السيارة. ماذا في ذلك الكيس؟ إن كان لها أن تخمّن اعتمادًا على صوت قعقعة محتوياته، فسوف تقول إنها كاسيتات فيديو ـ فيديوهات مقرصنة. أحدث ما ظهر من أفلام إباحية... لا شك في هذا.

لكن، لماذا وجدت زهرة نفسها مضطرة إلى مخاطبته بنبرة الرجاء تلك. فسمحت له، لذلك الـ«لا أحد»، بأن يكلمها كأنها شيء يمكن طرحه جانبًا؟ قال لها: «إن أردتِ الذهاب، فاذهبي، لكن صديقتك ستظل هنا».

مالت مريم إلى الأمام. مدت يدها من بين المقعدين الأماميين ووضعتها على كتف زهرة. قالت بصوت اعتيادي جدًا حتى وهي تحرك إبهام يدها في دوائر على كتف قميص زهرة الجينز محاولة أن تطمئنها: «إذًا، هكذا هو الوضع. انقضت نصف ساعة على الموعد المتوقّع لوصولنا إلى بيت

زهرة. سيكون أهلها قد اتصلوا مع أصحاب الحفلة الذين سيكلمون سائقهم كي يحصلوا منه على وصف لك ولسيارتك. بعد ذلك، سيكلم أهلها أهلي، وسيتصل أهلي مع نائب مدير الشرطة لأنه من أصدقائهم. وسيرسل نائب مدير الشرطة عناصره جميعًا كي يبحثوا عنا إن لم يكن البحث قد بدأ بالفعل». حقيقة الأمر أن نائب مدير الشرطة السابق هو من كان صديقًا لجدها؛ لكنه وقع في مشكلة مهنية فحلّ محله شخص جديد لم يستطع جدها بعد أن يصل إليه... «إذًا، لماذا لا تعود بنا الآن إلى البيت، فقد يكلّم أهلي نائب مدير الشرطة لإخباره أننا عدنا سالمتين؟ لماذا لا تأخذنا إلى البيت قبل أن يعترضوا سبيلك ويفتشوا سيارتك، فيعثرون على ما وضعته في صندوقها؟».

حلّ صمتٌ مُرضٍ بعد فراغها من كلامها. ابتعد حمد عنها قليلًا. شغّل جيمي محرك السيارة وقادها من غير أن ينطق بأية كلمة. الآن، لم تعد قيادته سريعة، ولا متهوّرة. ظلت يد مريم على كتف زهرة آملة أن تسترخي عضلاتها الآن بعد أن تولّت زمام المبادرة. صاروا في طريق بونديري العريض المزدحم. ذراعا حمد معقودتان على صدره؛ وجيمي لا يزال صامتًا. انعطف جيمي في واحد من الشوارع المتفرعة عن طريق بونديري. قال بصوت عادي مثل الصوت الذي خاطبته به مريم: «أتظنين أن الشرطة ستأتي إلى هذا المكان باحثة عنك؟». تباطأت حركة السيارة حتى قاربت على الوقوف. وضعها جيمي على السرعة الأولى، وتابع تقدمه إنشًا فإنشًا.

قالت زهرة: «أين نحن؟».

كانت المباني هنا خليطًا من الجديد والقديم، لكن المباني القديمة هي ما لفتت نظرها بتداعيها الحزين. مبانٍ من حجر رملي أصفر، مثل بيت جد مريم، لها شرفات خشبية منحوتة ناتئة، بعضها مغلق وبعضها مفتوح. قد يذهب تفكيرك إلى روميو وجولييت إن أردت أن تضفي غلالة شفافة على ما يحدث هنا حقًا. أسلاك كهربائية معلقة تقطع الشارع هنا وهناك

كأنها شبكة من أفاع، بعضها متدلٍّ يكاد يمس سقف السيارة، شجرة بيبول منتصبة على الرصيف.

لو نطق أحد اسم هذا الشارع الشهير، لعرفته زهرة على الفور. إنما، ما من لافتة تحمل اسمه. لكن مريم عرفت أين صاروا لأنها كانت تقود السيارة ذات مساء ومعها أبو بكر في تلك الناحية القديمة من المدينة وقد رفض أبو بكر أن تنعطف في هذا الشارع. حاولت أن تُصر على السير فيه وقالت له إنها مهتمة بعمارة المسارح القديمة وصالات الترفيه، لكنه صار على معرفة كافية بها لأن يفهم ما جعلها راغبة في رؤية الشارع الذي تجتمع فيه سمعة الدعارة والوعد بالنجومية بالنسبة إلى القلة التي أفلحت في شق طريقها من نوادي الترفيه إلى عالم السينما. أرادت أن ترفع رأسها وتنظر إلى الشرفات لترى إن كان ممكنًا أن تفوز بلمحة من النساء اللواتي تعشن هنا حياة لا تستطيع تخيلها. لكن الرجل ظل مصرًّا على موقفه؛ وكان جزء منها غير راغب في رؤية أشياء قد تجد نفسها بعد ذلك مضطرة إلى التفكير فيها، فأذعنت وتابعت قيادة السيارة متجاوزة شارع الأضواء الحمراء الذي كان شديد القرب من الميناء وحيّ الأعمال والجامعات والمحكمة العليا.

الآن، في الظلمة، كان رجل يسير عابرًا الشارع حاملًا صينية من شيء لم يلبث أن اتضح أنه كرات حلوى اللادوس عندما سقط عليه الضوء من مدخل البناء الذي ولجه فلمعت تلك الكرات الذهبية. ثم أطبق الباب من خلفه فانقطع صوت الموسيقى المنحدرة إلى الشارع عبر بضع درجات ظهرت داخل ذلك الباب ثم اختفت.

قال حمد: «هيا، يا صديقي! فلنأخذهما إلى البيت. لا أحد منا مستمتع بهذا».

قال جيمي: «أو... يمكن أن يبدأ المرح الآن». كانت السيارة لا تزال تتقدم ببطء شديد؛ وكان جيمي ينظر عبر زجاجها الأمامي إلى الشرفات والنوافذ المغلقة على جانبي الشارع كأنه يحاول العثور على شيء، أو كأنه ينتظر رؤية شيء. لا ترى العين أية نساء هنا: إنهن في الداخل منتظرات

أن يأتيهم القوادون بالرجال. أو، لعلهن منشغلات جميعًا. جعلت كلمة «منشغلات» مريم تحس إحساسًا غريبًا. صار تولّي بنازير بوتو مقاليد القيادة في البلاد أمرًا شديد البعد. في هذا الشارع، يمكنك أن تفعل بامرأة أي شيء فلا يمنعك أحد من ذلك.

كان الشارع يضيق مع تقدمهم عبره. من جديد، نظر جيمي إليها في المرآة. قال: «لماذا لا تطلبين مني بلطف أن آخذك إلى البيت. طلبت ذلك مرتين بطريقة فظة كثيرًا. اطلبي بلطف... فقد أفعل ذلك».

تلاقت أنظارهما في المرآة. كانت عيناه باردتين، قاسيتين فيهما شيء بشع، لم تَرَه في عيني أحد من قبل. قالت العينان لها، *وقد لا أفعل ذلك!* فتحوّل الكره الذي تراكم داخلها طيلة الوقت إلى ذعر. طيلة تلك الشهور، لم تكن راغبة في حمد بل في أن يكون راغبًا فيها. لكن عيني جيمي في المرآة قالتا لها إن رغباتها لا أهمية لها. يستطيع فعل ما يريد، وسوف يفعل ما يريد. وهو يفكر، منذ الآن، كيف سيكون إحساسه بذلك... ابتسامة باردة قاسية متناسبة مع نظرة عينيه.

تستطيع هنا أن تفعل بفتاة ما تشاء من غير أن يوقفك أحد. تستطيع في أي مكان أن تفعل بفتاة أي شيء من غير أن يوقفك أحد إن كانت لديك سيارة ذات زجاج مظلل ونظام ستيريو قادر على أن يطغى على أي صوت أو صراخ.

قالت زهرة: «مريم، من فضلك».

رضخت مريم لرجائها: «من فضلك، ألا تأخذنا إلى البيت؟».

قال جيمي: «بالطبع». انعطف بالسيارة وخرج من طريق نابير وعاد إلى طريق بوندير المألوف. أنزلت مريم زجاج النافذة إلى آخره، وعبّت الهواء المنعش.

***

لم يطل الأمر أكثر من بضع دقائق قبل أن يصيروا في ذلك الجزء من المدينة الذي تجتازه الفتاتان في كل يوم من أيام حياتهما العادية. وبعد

بضع دقائق أخرى، بدأت السيارة تمرّ ببيوت أشخاص من معارفهما. وعندما اقتربوا أخيرًا من البنايات المتماثلة المحاذية للواجهة البحرية، قال جيمي لحمد: «ألا تزال راغبًا في أن أوقف السيارة في مكان مظلم؟».

أجابه حمد: «جيمي، كفانا هذا! حتى أنا سأقع في مشكلة لأنني تأخرت كثيرًا في العودة إلى البيت».

لم يظهر في ضياء المصباح الخافت أمام بناية زهرة غير شبحين لرجلين واقفين في الخارج، أحدهما يدخن والثاني يذرع المكان. اندفعا صوب السيارة لحظة، انعطفت فسقطت أنوارها الأمامية عليهما.

أطلق جيمي شتيمة. كانت نبرة صوته حادة. تراجع بالسيارة على طول الشارع مبتعدًا عن الرجلين المنتظرين عودة ابنتَيْهما إلى البيت. ضغطت قدمه على المكابح وقال: «اخرجا، اخرجا من السيارة».

قالت مريم: «هيا، يا زهرة»، لكن زهرة لم تكن في حاجة إلى من يستحثها. فتحت الباب وخرجت. انطلق جيمي بالسيارة، فجرَت زهرة ورمت بنفسها بين ذراعي أبيها. أحست كيف اقترب والد مريم بخطوات أكثر بطئًا وهو يهز رأسه ناظرًا إلى ابنته.

قال لها: «كيف تفعلين هذا؟».

قال والد زهرة بصوت هادئ: «فلنصعد إلى البيت».

في الأعلى، ظهرت والدة زهرة. بدلًا من التوبيخ المتوقّع، عانقت ابنتها عناقًا شديدًا.

قال والد مريم: «زينو!».

كانت تجلس على الأريكة مسندة مرفقيها إلى ركبتيها وقد دفنت وجهها بين كفيها. عندما أزاحت كفيها، كان الكحل قد ساح على عينيها؛ وللمرة الأولى، رأت زهرة أن زنوبيا خان ليست أكثر جمالًا من شهناز علي – هي أكثر اهتمامًا بزينتها المتقنة، لا أكثر!

نهضت زينو وسارت صوب ابنتها. سألتها: «هل ستقولين لنا شيئًا؟».

قالت مريم مخاطبة والدَي زهرة: «آسفة لأننا تأخّرنا كثيرًا».

قالت والدة مريم: «تأخرتما!؟ لا تظني أننا لا نعرف ما جرى. أخبرتنا صبا. وما لم تره صبا، رآه السائقون. هل تعلمين كم أنت محظوظة لأن لديك صديقة مثل زهرة؟ هل فكّرت في الموقف الذي تضعينها فيه؟».

تشكلت جملة في ذهن زهرة. همّت بالقول إن مريم هي التي أرادت العودة إلى الحفلة لكنها سبقتها فجلست في السيارة عندما كانتا لا تزالان قادرتين على العودة عبر تلك البوابة سالمتين. لكنهم سيسألونها عن السبب، فماذا تستطيع أن تقول؟... هل كان السبب معصم حمد، أم زجاج السيارة المظلل، أم الرجل المجهول الجالس في مقعد السائق.

قال والدة زهرة: «هل أنتما بخير؟».

أومأت زهرة ومريم برأسيهما وابتسمت كل منهما ابتسامة تطمئن بها والديها، وكأنهما ناقشتا الأمر مسبقًا واتفقتا على أن ما من حاجة إلى أن تُسببا للأهل أي مزيد من القلق، بكلامهما على تجاوز إشارات المرور الحمراء، وعلى تجاوز السيارات المتوقفة وسط الظلمة، وعلى ما جرى من استلام أشياء كان واضحًا أنها ممنوعة. تعيشان على مقربة شديدة من العنف، كل يوم... وكانت زهرة تدرك الوجهات التي لا بد أن يكون تفكير والديها قد اتخذها -وجهات ذهب ذهنها إليها عندما كان جيمي منطلقًا بالسيارة في تلك الشوارع الخاوية، واضعًا إحدى يديه على مقود السيارة والأخرى على فخذه. لكن، في نهاية المطاف، لم يحدث أي شيء فظيع. حقًا، لم يحدث أي شيء فظيع. ذهبتا في نزهة بالسيارة، وتوقف في طريقه كي يستلم من أحدهم شيئًا ثم عادتا إلى البيت. حدث قبل الآن أن جلست في سيارات يقودها سائقون أكثر جنونًا. في مرة سابقة، قاد شقيق صبا السيارة عائدًا من الشاطئ متخذًا الناحية الخاطئة من الشارع كي يتفادى الازدحام. كانت الشاحنات والباصات تندفع إليهم فتعميهم أنوارها، واستمر ذلك زمنًا طويلًا. والآن، ليست المسألة أكثر من قصة عن جرأة زائدة روتها صبا لمن لم يكونوا هناك ولم يرَوا شيئًا.

قالت والدة مريم: «إنهما بخير! انظروا إليهما! لقد ذهبتا في مغامرة

رائعة. نحن من كنا جالسين هنا في قلق شديد. حبيب، شهناز... آسفة جدًا لما فعلته ابنتي».

قالت والدة زهرة: «فعل كل منّا أمورًا غبية عندما كنا في مثل سنّهما. مريم فتاة طيبة».

قالت والدة مريم: «هذا لطف منك، لكنه ليس صحيحًا. هيا، يا مريم. سنذهب إلى البيت».

في طريق خروجها، مدت مريم يدها وشدت على يد زهرة، فضغطت زهرة على أصابع صديقتها.

***

استيقظت مريم على شعور لم تعرف حقيقته، لكنه لم يلبث أن انقلب غضبًا لحظة توفر له من يثيره: أبوها وأمها اللذان ألقيا عليها التحية على الإفطار وكأن شيئًا لم يحدث في الليلة الماضية؛ شقيقتاها الصغيرتان اللتان كان إصرارهما على معرفة ما جرى على تضاد شديد مع سلوك الوالدين اللذين لم يرغبا في معرفة شيء. إنه حمد... من الواضح أنه هو الذي كان يتصل دائمًا ثم يغلق الخط عندما يجيبه أحد غير مريم. صبا التي لا بد أن تكون قد أخبرت قريبتها، السيدة هلال مدرّسة البيولوجيا، أن اثنتين من زميلاتها في الصف قد ذهبتا بالسيارة مع حمد ورجل غريب آخر. هذا ما جعل مديرة المدرسة تتصل وتقول إنها تريد رؤية مريم مع والديها في مكتبها صباح يوم الاثنين.

قالت والدة مريم وهي تفتح باب الغرفة بحركة قوية، ثم تظل واقفة بالباب وكأنها لا تستطيع تجاوز ذلك الحد في تأكيد سلطتها على ابنتها البكر: «ماذا نفعل إن كانت قد قررت طردك من المدرسة؟».

رفعت مريم رأسها عن الدفتر الذي كانت ترسم فيه. قالت: «سأترك المدرسة وأذهب للعمل في شركة خان للجلديات».

هزّت أمها رأسها وتراجعت عائدة في الممر. نظرت مريم إلى الرسم بين يديها. لقد رسمت مرآة السيارة الداخلية ورسمت فيها عينين تنظران

إليها. مزقت مريم الورقة ثم طوتها وطوتها إلى أن صارت مربعًا صغيرًا من الورق. وضعتها بين أسنانها وعضت عليها بقوة.

ما هذا؟ ما هذا؟ ما هذا؟... همست لنفسها في تلك الغرفة الخالية. ما هذا الشعور الذي يجعل كل شيء يبدو خاطئًا من غير أي سبيل لإعادته إلى الصواب؟

لقد تعزز الذعر الذي أحسته الليلة الماضية، عزّزته معرفةٌ موجودة داخل جسدها، معرفة متصلة بجسدها. عرفت أن ذعر زهرة كان على صلة بذعرها، مع أن ذلك الرجل -جيمي- لم يكن ينظر إلى زهرة بالطريقة التي نظر بها إليها. عرفت أيضًا أن حمد لم يحس شيئًا من ذلك. لعله كان قلقًا لأن من الممكن أن يصطدم جيمي بسيارة آتية في مواجهتهم. لعله قلق من احتمال أن توقفهم الشرطة عند نقطة تفتيش. أو قد يكون قلقه لأنه سيعود إلى البيت متأخرًا فيصفعه والده على وجهه... لكنه لم يكن ممكنًا أن يعرف هذا الإحساس بأن ما من مهرب أمامه ـ الآن أيضًا، يأتيها هذا الإحساس. منذ أن صار جسدها بيتًا جديدًا غريبًا، وصار عليها أن تتعلم كيف تعيش فيه، هذا ما صارت تلمحه من زاوية عينها، والذي كان متجسدًا في الرجال الذين تحتك أجسادهم بجسدها في المترو، وفي ذلك العم الذي يشدها إليه عندما يعانقها... والذي كان ماثلًا أيضًا في حمد عندما تستقر عيناه على ثدييها وهو سائر صوبها في ممر المدرسة. لقد صارت الآن هدفًا؛ صار جسدها هدفًا. وضعت يديها على ثدييها. تحسست ثقلهما.

بدأت الآن تفهم ما يجعل الرجال والنساء يسيرون بطريقتين مختلفتين كثيرًا، ويقفون بطريقتين مختلفتين كثيرًا. يسير الرجل بخطوات واسعة، يسير ممتلكًا العالم، وتسير النساء بخطوات صغيرة... ترقبن العالم، والعالم يرقبهنّ. اشتد غضبها فصار حنقًا أحست بقوته وأحست معه قوة إرادتها. هذا ليس لها. سوف تسير بخطوات واسعة، دائمًا، حتى في حضور أشخاص من نوع جيمي، بل في حضورهم خاصة. أخرجت الورقة من فمها... صارت مبتلة... آثار أسنانها عليها. وضعتها بين إبهامها وإصبعها،

ثم قذفتها. طارت في الغرفة، طارت راسمة قوسًا دقيقًا قبل أن تسقط في سلة المهملات.

«رمية موفقة»... هذا ما قاله لها الصوت الوحيد في العالم، الصوت الذي أرادت سماعه، الذي أرادت سماعه حقًا. دخلت زهرة إلى الغرفة. فنهضت مريم من الفراش. تعانقتا وطوّقت كل منهما الأخرى بذراعيها. ظلتا هكذا زمنًا طويلًا. أحست مريم بأن العالم قد بدأ يعود إلى وضعه الصحيح.

قالت زهرة بعد أن انتهى عناقهما الطويل، بعد أن جلستا جنبًا إلى جنب على الفراش كعادتهما: «هل أُبلغتِ بالاستدعاء يوم الاثنين؟».

أجابت مريم: «نعم. لماذا يكون هذا أمرًا من شأن المدرسة؟».

قالت زهرة مقلدة صوت مديرة المدرسة تقليدًا متقنًا: «نتوقع من طلبتنا أن يلتزموا معايير محددة طيلة الوقت». التقطت كتابًا كان على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير - رواية «لاكي» التي استعانت بها مريم ليلة أمس كي تهدأ أعصابها. بيدها الأخرى، ضغطت على رقبتها مثلما تفعل عندما يجعلها أمر من الأمور تحسّ شيئًا من قلة الأمان. قالت لمريم: «سأقول لها إنني أنا التي أردت الصعود إلى السيارة عندما أردتِ -بل حاولتِ- العودة إلى الداخل».

كانت تنظر إلى الكتاب وتحاول أن تظل نبرة صوتها خفيفة، عادية. نظرت مريم إلى صديقتها. أدركت ما تطلبه منها. أدركت ذلك الطلب الذي كان البوح به غير ممكن. سوف تتلطخ سمعة زهرة التي تحرص على حمايتها إن غيّرت دورها من الصديقة الحريصة التي تحمي مريم إلى الطرف الذي أصر على الصعود إلى السيارة. قد يمنعها هذا من أن تنال لقب «الفتاة الأولى» في المدرسة؛ وقد يجعل واحدة من المعلمات متحفظة قليلًا في ثنائها عليها برسالة توصية موجهة إلى جامعة من الجامعات.

كان جزء منها راغبًا في أن يصرخ بها، *لماذا فعلتِ ذلك*؟ كان ذلك سلوكًا لا يشبه زهرة أبدًا، بل كان أول شيء غير مفهوم أبدًا تُقدم عليه زهرة

خلال سنوات صداقتهما كلها. أو... لعله غير مفهوم تمامًا. فمنذ بعض الوقت، صار لدى مريم شك في أن زهرة -بصرف النظر عن ذكائها الكتبي bookish كله- يمكن أن تكون غبية كثيرًا فيما يخص العالم الحقيقي. وعلى الرغم من كل أمر آخر، أحست انتصارًا عندما تأكّد لها هذا، ثم لم تلبث أن كرهت نفسها لهذا التفكير وتمنّت ألا تعرف زهرة أبدًا ما جال في ذهنها. من المؤكد تمامًا أنها لن تقول هذا أبدًا. لن تتفوّه زهرة بكلمة واحدة تحمل لومًا على أي شيء مما حدث ليلة أمس؛ وربما -أحست بنفسها كبيرة عندما فكرت هكذا- ربما لا يكون معنى الصداقة كامنًا في ما تقوله الصديقة لصديقتها، بل أيضًا فيما تمتنع عن قوله.

قالت مريم: «لا تكوني سخيفة هكذا! لن تقولي لها شيئًا من هذا القبيل. صعدنا إلى السيارة في وقت واحد. أنا من رتب الأمر كله مع حمد. هل تظنين أن صبا قد عثرت على قميصي في حوض الزهور؟».

«أراهنك على أنها ستظل محتفظة به، وأنها سترتديه في أول حفلة تكون موقنة من أنك ستذهبين إليها».

كان صوت زهرة ينطق الارتياح والعرفان. أمسكت يد مريم وشدّت عليها.

***

جاء يوم الاثنين، وكانوا جميعًا في مكتب مديرة المدرسة - زهرة ومريم ووالديهما ووالدتَيْهما. كانت الغرفة كبيرة تهيمن عليها طاولة مكتب ضخمة جلست عليها مديرة المدرسة مرتدية ثوبًا طويلًا أسود من فوق قميصها البيج الطويل. على الجدران صور من عمِلوا في المدرسة على مر السنين، ومن بينها صور المديرة نفسها في تحولها، عبر عشرات السنين، من خريجة حديثة لامعة العينين إلى امرأة صاحبة سلطة.

رفعت رأسها من غير أن تبتسم عندما دخلت أسرتا علي وخان مع أن والدة زهرة كانت تقف إلى جانبها في كثير من تلك الصور المعلقة على

الجدار. تظل العلاقات الشخصية أمرًا ذا مرتبة ثانوية بالنسبة إلى سمعة المدرسة التي هي غير قابلة أبدًا للفصل عن سمعة طلبتها.

طلبت من زهرة ومريم أن تتقدما صوبها وكان معنى هذا أن تقفا متجاورتين من غير أن تكونا قريبتين من بعضهما في الوقت نفسه. منذ أن اتصلت مديرة المدرسة كي تستدعي زهرة ووالديها إلى هذا الاجتماع، صارت زهرة ترى مستقبلها يختفي في هوّة مظلمة بصرف النظر عما قاله لها أبوها وأمها من أنها تبالغ في ردة فعلها، وبصرف النظر عن تأكيد مريم على أنها لن تقبل بأن تجعل زهرة ملومة في أي شيء. من الممكن أن تُطرد الطالبة من المدرسة لأنها ذهبت في سيارة رجل غريب. وإذا حدث هذا، فستظل تلك الوصمة عالقة بها إلى الأبد. لا تحصل الفتيات المطرودات من المدرسة على منح دراسية في جامعة أوكسبريدج، ولا تتخرجن بدرجة امتياز من جامعات النخبة، ولا تتألقن في العالم، ولا تصلن إلى مواقع القيادة في ميادين عملهنّ المختارة. خزي وفشل. كانت هاتان الكلمتان كأنهما تمرّان بها وتمسّانها خفيفتين كالريشة، مخيفتين مثل لمسة جيمي على ركبتها. على العكس من هذا، لن يكون لأي شيء يحدث لمريم اليوم أهمية كبيرة. سوف ترث الشركة وترث معها المكانة الاجتماعية. يعيش الأثرياء في عالم مختلف.

قالت مديرة المدرسة من غير مقدمات إن المشكلة، في ظاهرها، هي أن الفتاتين قد فعلتا الأمر نفسه: ذهبتا في نزهة بسيارة يقودها فتى لا تعرفان عنه شيئًا، واحد من أولئك الفتيان الذين يتجولون بسيارات ذات زجاج مظلل يفسح متسعًا لتخمينات كثيرة عما يجري في داخلها.

عندما نطقت المديرة كلمة «نزهة»، ألقت مريم على زهرة نظرة سريعة وكأن اللحظة مناسبة للمماحكة والاعتراض على انتقاء المفردات.

تابعت مديرة المدرسة كلامها. قالت إن العقوبة التي تُفرض على واحدة منهما ينبغي أن تفرض على الأخرى أيضًا. يميل القسم الأكبر من المعلمين والمعلمات إلى إيقافهما عن القدوم إلى المدرسة طيلة ما بقي من ذلك

الفصل الدراسي. وبطبيعة الحال، يعني هذا أن الامتحانات ستفوتهما؛ وسوف يظهر هذا في بياناتهما المدرسية مما قد يكون له أثر على فرص القبول في الجامعات. في تلك اللحظة، مدت مريم يدها (التي تحجبها حافة طاولة المكتب عن عيني المديرة) فأمسكت بيد زهرة كي تهدّئها.

رقّ وجه مديرة المدرسة. لا يريد أحد ممن هم في هذه الغرفة أن تقاسي زهرة نتيجة ما يدرك الجميع أنه تصرف ناجم عن الصداقة وعن قلبها الكبير، مع أنه تصرف خاطئ. إنها واحدة من ألمع نجمات المدرسة، فتاة مسؤولة، مجتهدة، محط إعجاب، يمكن أن تكون يومًا من الأيام «الفتاة الأولى» في المدرسة مع أن هذا يقتضي -في ضوء ما حدث مؤخرًا- التزامًا بأشد المعايير- التزامًا أكثر دقة من غير أي استثناء. ومزيّة مريم (تغيرت نبرة صوتها بحيث صار واضحًا أن هذه هي مزية مريم الوحيدة) أنها اختارت زهرة صديقة لها. لعل من الممكن الأمل بأن هذه المغامرة الطائشة ستجعلها تعيد النظر في مسلكها وتتعلّم من زهرة.

من حسن الحظ -هكذا قالت المديرة- أن هناك طريقة أخرى للنظر إلى ما حدث تلك الليلة. قبلت الفتاتان أن يوصلهما إلى البيت واحد من زملائهما، ما من شيء خاطئ في هذا. يجب أن تكون المدرسة مسؤولة عن ألا يكون من بين طلبتها من لا تأمن الفتاة أن يوصلها إلى بيتها سالمة. لم تعرفا -هل عرفتِ، يا زهرة؟- أن فتى آخر من مدرسة أخرى، أو لعله ليس طالب مدرسة على الإطلاق، كان يقود السيارة وفي رأسه نوايا أخرى. لقد قال السائقون -من المؤسف جدًا أن السائقين كانوا شهودًا على هذا كله- إن الفتاتين شرعتا في السير عائدتين إلى البيت. لكن صديق حمد تقدم بالسيارة، وفي بعض الروايات (شددت على كلمة «بعض»)، أقدم حمد على اختطافهما. وبالطبع، طُرد حمد من المدرسة. من المخجل أنهم لم يستطيعوا العثور على طريقة لفعل ذلك في وقت أبكر. لقد كان بذرة فاسدة منذ سن مبكرة.

صار الآن واضحًا أن ثوبها الأسود كان مرادًا منه استحضار صورة ملابس القضاة.

وهكذا -قالت المديرة وقد بسطت راحتيها على سطح طاولة المكتب- لن توجّه المدرسة أية عقوبة إلى الفتاتين. ينبغي أن يُترك للأهل اتخاذ القرار في شأن كيفية تصرفهم معهما.

الآن فقط، نهضت المديرة نصف نهوض كي تمد يدَيْها من فوق الطاولة وتضم يد والدة زهرة بينهما. قالت لها: «يا عزيزتي، اشتقنا إليك كثيرًا». بات مفهومًا أن والدَي زهرة سيظلان عند مديرة المدرسة، وأن البسكويت والشاي لن يلبثا أن يظهرا في الغرفة. لقد تمت تبرئة ابنتهما ووقع اللوم كله على مريم وعلى والدَيها اللذين لم يعرفا كيف يُنشئا ابنتهما كما ينبغي. نظرت زهرة إلى مريم وودّت لو تستطيع أن تنقل إليها إحساسها بالحرج إزاء ما في هذا الحكم من ظلم؛ لكن ما بدا لها هو أن مريم غير منتبهة إلى الأمر كله، أو أنها غير مبالية به.

قالت والدة مريم عندما صاروا في باحة المدرسة من جديد: «يا لهذا الإحساس بالارتياح». ما من أحد حولهم، ولا حتى في الملعب؛ لكن زهرة رفعت رأسها ونظرت إلى النوافذ في مبنى المدرسة متسائلة إن كان ثمة من ينظر إليهم وينقل ما يراه إلى غرفة الصف واصفًا الفتاتين المَخزيّتين وأهلهما.

ربّتت والدة مريم على كتف ابنتها وابتسمت لها ابتسامة حلوة إلى حد يكاد يكون مقززًا. كانت شديدة الرغبة في أن تنال رضا ابنتها.

قال والد مريم: «ارفعا رأسيكما عاليًا ولا تدعا أحدًا يشم رائحة ضعف». لأول مرة، بدا صوته مثل صوت أبيه.

كانت العودة إلى الصف من غير معنى عند انصراف والدَي مريم. تبدأ الاستراحة بعد بضع دقائق؛ وعلى أية حال، أحست زهرة بأن ساقيها غير قادرتين على صعود السلم. ذهبتا إلى حيث جرس المدرسة وجلستا على الأرض مستندتين إلى جدار القنطرة المتين.

«الحمد لله على انتهاء ذلك كله».

قالت مريم: «هل انتهى؟».

«أوه، يا ربي! نسيت أمر حمد».

«أرجوك! أنا سعيدة لأنهم طردوه. ولكن، ماذا عن جيمي؟».

«ماذا عن جيمي؟».

«لقد أفلت من الأمر كله! كيف يمكن أن يكون هذا صائبًا؟». تجهّم وجه مريم قليلًا وظهرت في صوتها نبرة تفكير غير مألوفة عندما قالت: «لا عدالة للفتيات في هذا العالم، أليس كذلك؟».

لم ترِدْ زهرة أبدًا أن تعود إلى التفكير في جيمي. لقد بدأ يغيب عن ذهنها مثلما ينسى المرء كابوسًا. قالت: «لا بأس. في نهاية المطاف، لم يقع أي سوء. أليس هذا صحيحًا؟».

ظلت مريم صامتة. نقرت زهرة على ذراع صديقتها بأصابعها. قالت لها: «طيلة ذلك الزمن في السيارة، كنت أتمنى أن أكون أكثر شبهًا بك. لم تخافي أبدًا. لم أرَكِ يومًا خائفة من أي شيء».

قالت مريم بصوت خفيض: «بل كنت خائفة». نظرت إلى راحة يدها كأنها قادرة على أن تنبئها بالمستقبل الذي سيأتي بعد تلك اللحظة. وعندما رفعت رأسها من جديد، كان وجهها باسمًا. قالت: «خفت أن يفصلوك من المدرسة فصلًا مؤقتًا. لم أدرِ إن كانت صداقتنا قادرة على احتمال ذلك».

بحركة عاطفية، دفعت زهرة كتف مريم بكتفها، وقالت لها: «غبية». لكنها أدركت الأمر: كان ممكنًا ألا تقوى الصداقة بينهما على احتمال ذلك حتى إن كانت هي المذنبة في الأمر كله... كله تقريبًا.

سرعان ما يُرن الجرس، ويندفع الطلبة والطالبات خارجين كي يسمعوا إن كانت مريم خان وزهرة علي قد فُصلتا فصلًا مؤقتًا أو طردتا من المدرسة. ستكون أهمية صبا الآن أكبر من أي وقت مضى، فهي التي روت القصة من منظورها؛ وسيتبادل الطلبة الأصغر سنًا، حتى من الصف السابع اللكزات والغمزات أثناء مرورهم أمام الفتاتين ويقولون: «ها هما!». سيرغب بابار

في الجلوس معهما ومساندتهما. وقد يواصل ما حاوله على حلبة الرقص في تلك الليلة. لكنه فتى مشاغب في الصف، مشاغب إلى الحد الذي يجعل زهرة كأنها تتجاهل الإنذار بالتزام «المعايير الدقيقة» إن هي فكرت في ذلك الاحتمال. سيكون بعض الطلبة والطالبات لطيفًا، وسيكون ذلك مخجلًا. سيكون أصدقاء حمد غاضبين لأن العقوبة كانت من نصيبه وحده مع أن مريم هي التي أتت إلى الحفلة مرتدية بلوزة بيضاء من غير كمين وجلست في حضنه. سيهمس بعضهم بأن زهرة لم تكن غير راغبة حقًا في حدوث ذلك كله مثلما قال الجميع. وسوف يتساءلون كلهم عن حقيقة ما جرى خلال تلك الساعات من حياة الفتاتين. سوف يحدث هذا كله، قريبًا جدًا. وأما الآن، فإن زهرة قادرة على أن تتكئ على كتف أقرب صديقاتها. أصوات المدينة تأتي إليهما من خلف سور المدرسة المرتفع. ستعرفان كم كانتا محظوظتين بأن ينتهي كل شيء على خير ما يرام مع أنه كانت هناك احتمالات كثيرة جدًا لأن يسوء الأمر، لأن يسوء كثيرًا.

***

كان جدها مسافرًا في ماليزيا كي يناقش مع المصممين خط الإنتاج الجديد في شركة خان للجلديات. رحلة مدتها أسبوع كامل بدا لمريم زمنًا لا آخر له وهي في انتظار عودته. كان مقررًا أن يعود يوم السبت. لكنها استدعيت مساء يوم الجمعة لرؤيته في غرفة الاستقبال حيث يحب أن يجلس عندما يزورهم. تحجب ستائر الحرير ضياء الشمس في الصيف، لكن الستائر كانت الآن مزاحة عن النوافذ الفرنسية الطويلة، فصارت كأنها إطار لشجيرة الكركديه وشجرة الفرانجيباني المزهرة. كان يجلس على كنبته، راحة يده مستقرة فوق عكازه. وكان والدا مريم جالسين إلى جانبيه.

تقدّمت مريم منه بخطى سريعة، لكنه حرك رسغ يده فصارت عكّازه موازية للأرض كأنها تحدد المسافة التي ينبغي أن تظل فاصلة بينهما. توقّفت وسط السجادة الفارسية التي تمثل نقوشها لوحة صيد. كان أول ما تبادر إلى ذهنها هو أن إصابة قد لحقت به وأنها قد تؤذيه إن عانقته.

قال لها: «ظننت أن طرد أبي بكر علّمك درسًا عن الكذب والتخابث وتوريط الآخرين في جرائمك. يدهشني أن والدَي زهرة لم يخرجاك من حياتها إخراجًا تامًا».

نظرت إلى والدَيها نظرة ازدراء. بالطبع، قدَّما إليه نسختهما الخاصة عما جرى من غير أن يطرحا على ابنتهما أية أسئلة عما وقع في تلك الليلة.

«فور جلوسنا في السيارة، طلبت منه أن يأخذنا إلى البيت مباشرة».

«هل ورطتِ نفسك في تلك المتاعب كلها لمجرد أن تؤخذي إلى البيت مباشرة؟».

«لم أعلم أن ذلك الشخص -جيمي- سيكون موجودًا. لم يأتِ حمد على ذكره أبدًا».

«أفهم هذا. من يستطيع تخيل أنك يمكن أن تقولي لفتى في السابعة عشرة أنك ستغادرين الحفلة معه فلا يكون شيء مما يحدث بعد ذلك تمامًا مثلما أردت أن يكون».

«أعرف رقم سيارة جيمي. حفظته عندما قادها مبتعدًا ليلة أمس». رفعت ذقنها منتظرة أن يثني على نباهتها. وفي الخارج، كانت أختاها تزحفان على العشب محاولتين الوصول إلى النوافذ الطويلة من غير أن ينتبه إليهما أحد كي تلصقا أذنيهما بالزجاج وتسمعان ما يدور من حديث.

سألها جدها: «وما الغاية من ذلك؟».

«تستطيع العثور على السيارة التي تحمل هذا الرقم». قالت هذا آملة أن يكون صحيحًا في كراتشي ما تراه في المسلسلات البوليسية الأميركية.

«هل تريدين أن أتصل بالشرطة؟ أتريدين أن أجعل الشرطة تتعقبه... ما الجريمة التي ارتكبها على وجه التحديد؟ وماذا يحدث عندما يقولون لي: ما الذي كانت فتاة من أسرة محترمة تفعله في تلك السيارة؟ أأقول لهم إنها كذبت على والدَيها في شأن المكان الذي ذهبت إليه، وفي شأن كيفية ذهابها إلى ذلك المكان، ثم خلعت ملابسها وجلست في سيارة شخص غريب نصف عارية. قد يمنحون ذلك الجيمي وسامًا لأنه أعادك إلى البيت

سالمة، في حين أنّ أكثر الرجال يمكن أن يفعل أمرًا مختلفًا تمامًا عن ذلك».

«ألن يسألني أحد عمّا جرى؟». قالت هذا بصوت طفولي خائف.

رأت جدّها يرشق ابنه وكنَّته بنظرة غاضبة. قال لهما: «ظننت أن ذلك قد حدث».

عض والدها على إصبعه واستقرت عيناه في منتصف المسافة بينه وبين أبيه، واتخذ وجه أمها هيئة من يعترف بأن طريقة تصرّفها كانت غير كافية، لكنها توقفت عند ذلك الحد ولم تتحمل المسؤولية. أحست مريم بالقوة تعود إليها عندما راحت تخبر جدها بكل ما وقع منذ لحظة جلوسهما في السيارة - لا معنى لإقحام زهرة في هذا الأمر؛ ثم إن جدها يقدّر الإخلاص تقديرًا عاليًا. يعني هذا أن ليس من مصلحتها في شيء أن تلقي باللائمة على صديقتها. وصفت رائحة كولونيا جيمي الرخيصة وقميصه البراق وقيادته المتهورة وكيف أطفأ أنوار السيارة في شارع مهجور وسخر منها وضايقها. أخبرته كيف توقف في الميناء كي يأخذ شيئًا... لعله كيس من أشرطة الفيديو.

سألتها أمها: «كيف عرفت أنها أشرطة فيديو؟».

كانت مريم تنظر إلى جدها أثناء كلامها، ففاجأها الآن إدراكها أن أمها كانت مذعورة ذعرًا حقيقيًا... «يمكن أن تكون أي شيء. مخدرات أو أسلحة. هذا ما يجري عند الميناء».

رفعت مريم كتفيها. «لم يكن الصوت يوحي بأنها مخدرات. لعلها أسلحة. أظن هذا».

«لعلها أسلحة، تظنين هذا!». وضعت أمها كفيها على صدغيها وهزت رأسها.

سألها جدها: «وماذا بعد ذلك؟».

«قلت له عندها إننا نعرف نائب مدير الشرطة معرفة جيدة. قلت إن عليه أن يعيدنا إلى البيت إذا أراد ألا تبحث الشرطة عنه». انتظرت لحظة

كي ترى إن كانت سرعتها في التفكير قادرة على تحسين نظرته إليها، لكنه واصل التحديق فيها بوجهٍ خالٍ من أي تعبير، بوجهٍ لا حركة فيه كذلك الذي يستخدمه عندما يقف أمامه واحد من عماله معترفًا بأخطائه. لذا، لم يعد أمامها ما تفعله غير الإقرار بأنه لم يستجب إلى ما قالته بل قاد السيارة بهما إلى طريق نابير.

أصدرت أمها صوتًا مختنقًا خافتًا.

مال جدها مقتربًا منها. سألها: «وماذا فعل هنا؟».

«لقد...»، كيف تقول هذا... «أوقف السيارة ونظر إليَّ تلك النظرة. لم تكن مثلما ينبغي أن ينظر الفتيان إلى الفتيات». كانت تعي مدى ضعف ذلك الوصف، مدى نقصه... «جعلني أرجوه وأقول له: من فضلك، خذنا إلى البيت».

«وبعد ذلك؟».

«بعد ذلك، عاد بنا إلى بيت زهرة».

نهضت أمها واقفة وطوّقتها بذراعيها محاولة أن تشدّها إليها. لكن جسد مريم تصلب وقاوم، فعادت أمها وجلست في مكانها.

نقر جدها على السجادة بعكازه وقد أزعجته تلك المقاطعة. قال: «إذًا، عندما نتأمل جوهر الأمر، نرى أن جريمته الوحيدة التي نعلم بها هي مخالفته أنظمة السير. وهذا أقل خطورة من قيادة السيارة من غير رخصة عندما يكون المرء في الرابعة عشرة. من الممكن أن تكون محتويات ذلك الكيس أشرطة فيديو... من الممكن أن تكون أسلحة ومن الممكن أن تكون أباريق لسقاية الزهور» - قال هذا مشيرًا إلى النافذة حيث ظهر البستاني حاملًا إبريق سقاية معدنيًا عند أحواض الزهور الصغيرة المعلقة على جدار البيت الخارجي.

«أراد أن يخيفنا. كان مستمتعًا بإخافتنا».

«هل كنت خائفة؟».

«ليس في البداية... لكن، بعد ذلك...». ما أفظع الإقرار بهذا، خاصة

بأنه جعل أمها تنظر إليها بهذا القدر من القلق. لكن، كيف لها أن تجعله ينظر نظرة جادة إلى ما فعله جيمي؟

مد جدها يده إلى كأس الماء على مقربة منه. أخذ من الكأس جرعة طويلة، ثم قال: «لو كنت هناك عندما أوصلكما إلى بيت زهرة، لطاردته وأوسعته ضربًا بعصاي هذه...»، ألقى نظرة صوب ابنه كي يشدّد على تقصيره في فعل الأمر نفسه، «إلا أن إخافة واحد من الناس لا تعتبر جريمة».

قالت أمها بنبرة من يلتمس عذرًا: «إذا اتصلنا بالشرطة وشاع النبأ، فسوف يظن الجميع أن أمرًا فظيعًا قد أصابك».

وقال أبوها: «سيكون هناك الكثير من الكلام، حتى من غير ذلك».

قالت مخاطبة جدها: «هل نستطيع أن نتكلّم على انفراد؟».

كانت إجابة مقتضبة: «لا. قولي ما تريدين قوله».

«أعرف أنك لا تستطيع الاتصال بالشرطة. لكنك قادر على إجراء مكالمة هاتفية».

انتظرَ كي تخبره عمن تفترض أنَّ عليه أن يتصل به، فكرّرت كلمتَيّ «مكالمة هاتفية».

«أتريدين أن أكلم بيلو؟».

«من هو بيلو؟». سألت أمها، وفي اللحظة نفسها سأل أبوها: «لماذا تعرف بأمر بيلو؟».

«هل تدركين ما تطلبين مني فعله؟».

«ليس من الصواب أن يفلت بفعلته هذه».

«إذًا، ماذا تريدين أن أطلب من بيلو فعله؟».

رفعت مريم كتفيها. هو الكبير بينهما، وهو من يتعين عليه أن يتخذ هذا النوع من القرارات. هي لا تعرف شيئًا إلا أنّ من الضروري تلقين جيمي درسًا.

«هل يوسعه ضربًا، أم يكسر ركبتيه، أم يعذبه بمثقب كهربائي؟».

تذكرتْ ذلك الرجل في الممر، الرجل الذي كان يصرخ وقد بلل

بنطلونه، ذكرى لا تزال مزعجة حتى الآن. لكنها تخيلت جيمي مكانه فلم تحس شيئًا غير الرضا. لأول مرة، فهمت ما تعنيه العدالة، فهمت ذلك عميقًا في نفسها.

«لقد جعَلنا نخاف. أريده أن يخاف مثلما خفنا». لا حاجة حتى إلى مسِّه فهو لم يمسها ولم يمسّ زهرة. لكن... فليعرف طعم الخوف!

قالت أمها: «ليكن الله في عوننا».

قال جدها بنبرة المتسائل، بنبرة مختلفة تمام الاختلاف عن أسلوبه المعتاد الذي يوحي بشخص يعرف الإجابات كلها لكنه يمتحن مخاطبه كي يسبر عمق معرفته: «أي نوع من البشر أنتِ؟».

«النوع الذي علمتني أن أكونه».

شهقت أمها مستاءة، لكن جدها ضرب الأرض بعكازه ضربة شديدة غطت على صوتها. قال: «أتظنين أنك تستطيعين المقارنة بين طلبك المخزي هذا وبين القرارات الفظيعة التي أجد نفسي مضطرًا إلى اتخاذها من أجل مصلحة الشركة ومن أجل مصلحة هذه العائلة؟».

«أية قرارات؟...». سمعت أمها تسأل أباها الذي لم يبدر عنه أي صوت ولم يقل أية كلمة حتى الآن.

كان جدها ينظر إليها مثلما ينظر إلى نماذج منتجات خيّبت أمله. «ظننت أنني قادر على أن أجعلك مثلما ينبغي أن تكوني. لكنك لست إلا فتاة، أليس كذلك؟ وسوف تظلين فتاة، دائمًا. وسوف يكون هناك دائمًا أمثال جيمي ممن ينظرون إليك ويستطيعون معرفة حقيقتك. لعل عليَّ أن أكون شاكرًا له لأنه جعل هذا واضحًا لي».

ردّت فورًا: «هذه البلاد تقودها امرأة».

«لن تقود شيئًا. منذ الآن، نسمع عن زوجها أكثر مما نسمع عنها. لا يعلم إلا الله طبيعة القرارات التي ستتخذينها في هذا الشأن عندما يأتي الوقت. هذا الذي اسمه حمد... علمت أن مديرة المدرسة قالت عنه إنه كان فاسدًا على الدوام».

لم تستطع منع نفسها من فتح عينيها على اتساعهما دهشة مع علمها أنه يكره هذا. «لم أكن أخطط لأن أتزوجه».

نهض واقفًا واستند بثقله على عكازه، ثم استدار وقال لأمها: «افعلا ما تشاءان. لن أمنعكما».

أنبأتها هيئة والديها المجفلة بأن أمرًا كبيرًا قد حدث. رفع جدها يده عن عكازه فترنَّحت وكادت تسقط، لكن اليد نفسها التقطتها من جديد قبل أن تسقط. حركة مألوفة؛ لكن عبارة «تحت جناحه» تبادرت إلى ذهنها عندما رفع يده. هذا المكان مكانها، وليس حرمانها المؤقت من حظوته إلا دليلًا على ذلك. أيكون العمى قد بلغ بوالدها ووالدتها حدًا جعلهما يظنان غير ذلك.

قالت لجدها: «أنا آسفة. أعرف أنه لا يزال عليَّ أن أتعلّم منك الكثير».

إلا أنه هزَّ رأسه. قال لها: «أنت تتعلمين أمورًا خاطئة. أنت منشغلة بنفسك، تظنين أن العالم يسير على هواك. ليس لديك مرتكز أخلاقي متين. ولن تكوني أبدًا مثلما أريدك أن تكوني».

من خلف زجاج النافذة الطويلة، رأت وجهَي شقيقتيها ساخرَين منها، ناضحين بالانتصار. طوقت إحداهما جسدها بذراعيها. «هل ستحاول جعل واحدة منهما وريثة لك». أشارت إليهما بإصبعها محاولة أن ترمي ورقتها الرابحة الأخيرة.

نهض أبوها واقفًا. قال بصوت حاد: «أنا وريثه».

قالت من غير اكتراث بغضبه: «لا يعتقد أحد أن لديك أية نية في قيادة الشركة. وأنت غير قادر على هذا، حتى إن أردت».

قال جدها: «يريد بيعها عندما أموت. هل ظننت أنني أجهل هذا؟». كان كلامه موجهًا إلى والدها الذي جلس من جديد ملتصقًا بالأريكة كأنه يحاول أن يدفن نفسه بين وسائدها.

ذات يوم، عندما كانت تسير على حافة مركب شراعي، انزلقت قدمها على بقعة زيت. لحظة فقدان التوازن التي لا نهاية لها ومحاولة القبض على

الهواء، ثم المياه الباردة المظلمة التي لم تفلح سنوات طويلة من السباحة في المحيط في إعدادها لها. صدمة السقوط التي شلت حركتها. كانت على مسافة قليلة من القارب، هي الفائزة مرتين في مسابقة السباحة، وكان لا بد من تدخل واحد من بحّارة المركب كي ينقذها.

«لا يستطيع بيع الشركة. إنها شركة عائلتنا». قالت هذا مخاطبة جدها فلا أهمية لغيره في هذا الحوار.

«كانت هذه فكرتي على الدوام، كانت حلمي. لكن الله لم يهِبني إلا ولدًا واحدًا لا نفع فيه، ولم يرزقني أحفادًا من الذكور».

قالت كالمتمسك بحبال الهواء: «أنا قادرة على إدارة الشركة. أرجوك، يا جدي. هذه شركتنا، شركتي. وأنت تقول هذا دائمًا».

قالت والدتها: «يا ربي! أية أفكار كنت تضعها في رأسها؟ ليست إلا طفلة. توفيق هو ابنك. إنه ابنك».

قال الجد: «صحيح. الظاهر أن هذا هو قدَري». رفع إصبعه مشيرًا إلى توفيق، «سوف تكف عن التطرق إلى أمر البيع في كلامك مع الآخرين طالما بقيت على قيد الحياة. هل تفهم هذا؟».

كان ينظر من فوق رأسها مخاطبًا ابنه وكأن لا علاقة لها بهذا الكلام كله.

«ليس له أن يبيعها أبدًا. قلت لي إنها شركتي. من فضلك، يا جدي». أمسكت بكمه وراحت تبكي... ليست أكثر من طفلة عاجزة، الطفلة التي رآها جيمي، التي كشفها جيمي.

انتزع كمه من بين أصابعها وقد أحرجه بكاؤها، ثم ذهب. فنهض أبوها وخرج من الغرفة بدوره قائلًا إنه لا يريد أن يتكلم في هذا الأمر بعد الآن أبدًا.

لم يبق في الغرفة أحد غير مريم وزينو. رفضت محاولات أمها للتخفيف عنها. «ماذا كان يعني بقوله: افعلا ما تشاءان. لن أمنعكما؟».

صوت من الخارج. كانت شقيقتاها قد وضعتا يديهما على فمَيهما

كأنهما عرفتا ما تعتزم أمهما فعله بمريم، وكأن ذلك كان أسوأ كثيرًا مما تتمنيان أن يصيبها. ألا تفهمان الأمر؟ لقد انتزع مستقبلها منها؛ انتزعته يد جدها. لا أهمية لأيّ أمر آخر. لا أهمية لما يحدث، كيف يمكن أن تكون لأي شيء أهمية؟ تحت قدميها، على السجادة، كان ظبي قد اخترقت قلبه سهام كثيرة.

***

كان ازدحام السيارات في صباح عطلة نهاية الأسبوع خفيفًا؛ وكانت معظم المتاجر لا تزال مغلقة في ذلك القسم من طريق بومبير الذي قادت مريم سيارتها إليه. لكن المتجر ذا اللافتة المضاءة بالنيون كان مفتوحًا. إنه المكان الذي أتت إليه مع زهرة. أوقفت المرسيدس في مكان يمنع فيه توقف السيارات، ثم استدارت ونظرت إلى أبي بكر الجالس في المقعد الخلفي فأومأ لها برأسه مشيرًا إلى أنه سيظل في السيارة تحسبًا لمجيء شرطة السير. خرج من السيارة ووقف مستندًا إلى بابها كي يدرك الرجال الجالسون في «مقهى ڤي آي بي» الذين ينظرون إلى الفتاتين القادمتين أنه يراقب كل شيء.

كانت الطاولات في الداخل شاغرة كلها، لكن الطاولات التي على الرصيف يحتلها شباب كان واضحًا من أثوابهم البيضاء الخاصة بالمختبرات أنهم من طلبة الجامعة الطبية القريبة. جهاز راديو منتصب على طاولة البيع التي تشغل جزءًا من المدخل. إنه يبث مباراة الهند الغربية وباكستان من هوبارت. ألقت زهرة نظرة داخل المكان وقالت لمريم من جديد بأنه لا ضرورة لهذا. ذهبت مريم إلى طاولة البيع وطلبت الشاي وفطائر الباراثا لها ولصديقتها، وكذلك للسائق المنتظر هناك. طلبت أيضًا طاولة في الخارج. قالت بصوت أعلى قليلًا إنها لا تريد الجلوس في الداخل. نهض اثنان من طلبة الطب ونقلا كرسييهما إلى الطاولة المجاورة، ثم قالا لصاحب المقهى أن يأتي بكرسيين من أجل مريم وزهرة. نظرت مريم إلى الرجال الأربعة الذين صاروا الآن مجتمعين إلى طاولة لشخصين وقد تلاصقت

مناكبهم. كان الأمر في حاجة إلى مهارة خاصة في التوقيت بغية حمل فناجين الشاي إلى أفواههم من غير أن ينسكب منها شيء. قالت لهم إن من الممكن وصل الطاولتين معًا كي يصير هناك متسع للجميع. تم ذلك، وجلست مريم مع زهرة عند نهاية الطاولة في حين جلس الرجال الأربعة بعيدًا عنهما كي لا تمس ركبة أي منهم ركبة أيّ من الفتاتين، وكذلك كي يتابعوا حديثهم عن مباراة الكريكيت.

حطّ غراب على مقوَد دراجة آلية أوقفها صاحبها على الرصيف ملتفًا على منع الوقوف في الشارع. مال برأسه صوب زهرة. لقد قالت زهرة لمريم إن خوفًا أصابها عندما نظر الرجال الذين الرصيف عند «مقهى ڤي آي بي» داخل السيارة، لكن مريم قالت لها إن تلك هي اللحظة الأكثر أمانًا في نزهتهما، وإن عليها أن تتخلّص من ذعرها من الحياة اليومية. كانت تدرك أن مريم على حق. أرادت أن تكون أكثر شبهًا بصديقتها وألّا يكون الخوف رفيقًا دائمًا لها في عيشها.

قالت لها مريم: «هذا ليس خوفًا فحسب، إنه خوف الفتيات. لا يخاف الفتيان بالطريقة نفسها». قالت هذا بطريقة مريم الواثقة مما تقول.

«عليهم أن يُدخِلوا سعيد أنور». كانت مريم تقول هذا متدخلة في كلام الشباب الأربعة على البداية الكارثية التي شهدتها مباريات الكريكيت. من المستبعد أن يتحسّن الأمر بالنظر إلى أسلوب ديزموند هايدز في صد الكرة من غير رحمة في مواجهة هجوم كل من عمران ووسيم وقدير.

استدار الرجال ونظروا إليها. نفخت على سطح فنجان الشاي الحار فارتسمت أمواج على طبقة الحليب. «يقول والدك إنه واحد من أفضل اللاعبين الذين رآهم في حياته كلها، ألا يقول هذا، يا زهرة؟». ثم أضافت مخاطبة الشباب: «والدها حبيب علي».

كان طلبة الطب في دهشة كبيرة. أرادوا معرفة ما يقوله والدها عن سعيد أنور لأنه واحد من فتيان كراتشي، واحد منهم. شاهد واحد من الطلبة سعيد أنور يلعب في جامعة «NED»، فحكى لرفاقه عما جرى في تلك المباراة

وكيف صفق الجمهور لهاينز. بعد لحظات من ذلك، تمكن عمران أخيرًا من الالتفاف على هاينز فقابله الجمهور بتصفيق أشد. تقدم فيف ريتشاردز كي يرمي الكرة. كان في مواجهة عمران فتمتم واحد من الرجال باسميهما معًا مثلما كان من الممكن أن يتمتم شخص في عهد قديم باسمي «هرقل» و«أخيل»، أو ربما أيضًا باسم «نرسيس راج كيبور». لقد قال مرة والدها إن ما يميز هذين اللاعبَين عن بقية اللاعبين - لعله أضاف إليهما أيضًا اسم اللاعب «بوثام»، هو ألقُ النصر المحيط بهما حتى عندما تسوء الأحوال. قالت زهرة في نفسها إن لدى مريم ذلك الألق نفسه. نظرت إلى صديقتها وهي تمسح أصابعها بحركة فطنة بزاوية صحيفة وكأنها لم تعتد مسحها بمناديل فاخرة في البيت. الحيزُ الذي تكون فيه مريم يصير كأنه ملك لها.

اكتشف الشباب أن مريم تلعب الكريكيت. راحوا يتحدثون عن المباراة بين فريق النساء وفريق الرجال، تلك المباراة التي كان من المقرر أن تجري في كراتشي في وقت لاحق من الشهر، لكنها ألغيت بعد احتجاجات نظمتها أحزاب دينية.

قال واحد من الطلبة: «لا يستطيعون منع امرأة من تولي مقاليد الحكم في البلاد. لذا، فهم يتدخلون في مباريات الكريكيت بدلًا من ذلك». كانت شفتاه لامعتين من أثر دسم الفطيرة التي في يده.

قال طالب آخر له شعر طويل كأنه لاعب كريكيت: «إنه يقول هذا كي يثير إعجابكما. لكنه لا يسمح لأحد منا حتى بأن ينظر إلى شقيقاته». لفّ ذراعه حول رقبة زميله فصاح بقية الشباب: «انتبه، انتبه، لا تدلق الشاي».

قالت زهرة: «هل شقيقاته شبيهات به؟». انتابها الذعر لحظة لأنها لم تكن واثقة من حقها في السخرية منه. لكن الطالب ذا الشفتين اللامعتين رفع يديه وقال إنه يستسلم. رجاها ألا تهاجمه فانفجر البقية ضاحكين.

قال صاحب الشعر الطويل: «ضربة ناجحة!». رفع يده باتجاه زهرة فضربت كفها بكفه.

عند تلك اللحظة كفّت عن كونها تقف خارج دائرة الرجال وأدركت

أن عليها ألّا تكون خارجها. أدركت أنها صارت داخل المشهد. لقد رمت بنفسها بين ذراعي المدينة فاحتضنتها المدينة - هذا التفاعل المباشر الواضح، لماذا لم تفهمه من قبل؟ وضعت مرفقيها على سطح الطاولة الخشبي. إن أتت سيارة فيها فتاتان، فسوف تنظران إليها وإلى مريم، وتفهمان أن النساء قادرات على جعل هذا المكان لهنّ، قادرات على عيش هذه الحياة، حياة الشارع، حياة المدينة.

انتهت مجريات المباراة بعد وقت قصير من ذلك، فانصرف الطلبة شاكرين الفتاتين على مشاركتهم الطاولة وعلى الحديث معهم.

طلبت مريم مزيدًا من الشاي وطلبت فطيرة أخرى. قالت لزهرة: «يعجبني هذا الشارع، ألا يعجبك؟».

لم تدرِ زهرة ما يمكن أن يعجبها هنا. المتاجر أكثرها متاجر إلكترونيات. وفي المباني الحجرية القديمة المصفرَّة طوابق علوية كانت في وقت مضى بيوت تجار موسرين، لكنها صارت الآن متداعية، صارت بيوتًا من ذلك النوع الذي لا يراه أحدٌ ساحرًا إلا الأثرياء.

«في إنكلترا، ترين أن كل شيء في مكانه بحيث يحقق الغاية المرجوّة منه. المقهى للشرب والأكل، والرصيف للمشي، والشارع للسيارات». كانت يدا مريم ترسمان شرائط ضيقة من النشاطات، كل منها متميز عن الآخر... «وهنا، لديك هذا كله». أشارت يدها إلى «مقهى ڤي آي بي» وطاولاته المنتشرة على الرصيف وإلى الدراجات الآلية المتروكة على مقربة من الطاولات، وإلى أغصان الشجرة التي جلس تحتها إسكافي يعمل على الرصيف، وإلى بائع متجول أوقف عربة قصب السكر في الشارع، وإلى صِبية يلعبون الكريكيت في الشارع نفسه... «هل تعلمين أنكِ إن دخلت واحدًا من المتاجر في لندن وطلبوا منك باوندًا واحدًا ولم يكن لديك إلا تسعة وتسعين بنسًا فلن يعطوك ما أتيت لشرائه. سيقول البائع لك: آسف، يا حبي! لا مشكلة لديه في أن يقول لك 'يا حبي'، لكنه لا يسامحك ببنس واحد. فمن عساه يحب أن يعيش هناك؟».

لم تكن زهرة واثقة من صحة ما قالته صديقتها عن المتاجر في لندن. وبالتأكيد، يلعب الأولاد الكريكيت في الشوارع هناك.

«كيف عاد أبو بكر إلى عمله؟». قالت هذا وغمست طرف إصبعها في سطح فنجان الشاي الثاني فالتصقت به طبقة من قشدة الحليب. مسحت إصبعها بزاوية الصحيفة وهي تفكر في العودة إلى سيارة المرسيدس كي تأخذ منديلًا من علبة المناديل الموجودة هناك دائمًا... «وكيف لا يزال يُسمح لك بالقيادة؟». لا تزال تذكُر كيف أنّ مريم لم تخبرها شيئًا عن قيادة السيارة إلى أن طُرد أبو بكر من العمل.

تناولت مريم قضمة من فطيرتها، ثم قالت: «أوه... الجميع في غاية اللطف معي. ماذا أريد من أجل الغداء، وهل أريد الذهاب إلى الشاطئ، وها هي بعض قطع التارت بالليمون من مخبز النادي. النتيجة الحسنة الوحيدة لذلك كله هي عودة أبي بكر».

«وما الذي جعلهم لطيفين معك هكذا؟».

سألتها مريم: «ألا تشعرين أن أمرًا من الأمور لا يكون حقيقيًا فعلًا إلى أن نتحدث عنه؟».

«نعم. طيلة الوقت».

«هذا ما يجعلني غير راغبة في إخبارك. لكني لا أستطيع ألا أخبرك. سوف يرسلني أهلي إلى مدرسة داخلية... مدرسة داخلية في إنكلترا».

قالت زهرة تلقائيًا: «لا. لا يستطيعون فعل هذا. لن يسمح لهم جدك بفعله».

غرست مريم ظفرها في ظهر يدها. «لقد تغير. تغيرت نظرته إليّ». دعكت الأثر الهلالي العميق الذي تركه الظفر على جلدها، دعكته بعنف... «لستُ إلا فتاة».

«ماذا تعنين بهذا؟».

«أعني... جيمي. لقد جعل جدي يراني بطريقة مختلفة. وأنا أيضًا

صرت أنظر إليه بطريقة مختلفة. كنت أظنه مؤمنًا بالعدل والإنصاف، لكنه ليس كذلك. لن يساعدني في الوصول إليهما».

لم يحدث من قبل أبدًا أن رأت مريم هكذا، أن رأتها مجروحة هكذا.

«كيف تقولين إنه لن يساعدك؟».

ظلت مريم صامتة زمنًا طويلًا. وعندما تكلّمت أخيرًا، كان صوتها غير واثق. قالت: «إن أخبرتك، فقد تنظرين إليَّ مثلما ينظر إليَّ أبي وأمي وجدي... كأنني طفلة أطالب بأشياء تخص الكبار وأنا لا أزال صغيرة جدًا عليها».

«لن أنظر إليك أبدًا هكذا. طلبت من جدي أن يكلّف شخصًا يعرفه بأن يعثر على جيمي كي يخيفه... كي يعرف كيف يكون الإحساس بالخوف. لكنه رفض ذلك».

جعلت الصدمة زهرة غير قادرة على الاستجابة. تعرف ما يعني في كراتشي أن يرسل أصحاب النفوذ أحدهم كي «يخيف» خصومهم. كان هذا جزءًا من شخصية المدينة... هذا العالم المختلف، عالم العدالة الشخصية: رسائل يتم إيصالها بقبضات الأيدي وطلقات الرصاص والمثاقب الكهربائية. الآن، صار لطريقة أبيها وأمها في الكلام على «البطريرك» معنى واضحٌ، وصارت قادرة على فهم ما يكون بين السطور، ما لم تكن تفهمه قبل ذلك.

تذكّرت كيف قالت مريم لجيمي: *«أتمنى أن تموت»*. أدركت وقتها، أدركت على الفور أن مريم قالتها نيابة عنها لأن جيمي أخافها. وفي جزء من الأمر، على الأقل، طلبت مريم من جدها أن يرسل رجلًا كي «يخيف» جيمي من أجل زهرة أيضًا. على الفور، شعرت بالخوف منها. لكنها نظرت إلى صديقتها -إلى صديقتها المنكسرة، المهزومة- فلامت نفسها على ردة فعلها وخجلت من نفسها لأنها لا تستطيع أبدًا أن تضاهي تلك اللمسة الرقيقة، لا تستطيع أن تضاهي ذلك الحب غير المشروط في صداقة مريم.

«لا يمكنك الذهاب». هذا ما له أهمية الآن. هذا هو الأمر الوحيد الذي يهمها الآن.

قرّبت مريم كرسيها من كرسي زهرة. جلستا كتفًا لكتف تنظران إلى طريق بومبير الذي صار بالغ الجمال على غير انتظار.

«متى؟».

«عما قريب. ستكون لديّ مواد دراسية جديدة، كتب مختلفة. سأمضي الفصل كلّه في محاولة اللحاق بالآخرين. ولن يكون معي عقلك كي يساعدني».

«سيصير لك أصدقاء جدد قبل مضي وقت طويل».

«وما فائدة الأصدقاء الجدد؟ أريد أصدقائي القدامى». مال رأساهما حتى تلاصقا. سرى بين الاثنتين حزن عميق.

«متى أراك من جديد؟ ألن أراك حتى عطلة الصيف؟».

شدّت مريم ظهرها ودعكت عينيها حانقة. «يريد أبي وأمي أن تنتقل الأسرة كلها إلى لندن. سوف يرسلونني قبلهم، لكنهم سيلحقون بي جميعًا في الصيف».

«وماذا عن شركة خان للجلديات؟».

مزقت مريم ما بقي من فطيرتها. «لا يريد أبي إدارة الشركة. وجدي صار غير مقتنع بأنني قادرة على إدارتها. لذا، ستباع الشركة عندما يموت إلا إذا تمكّنتُ من تغيير رأي جدي. لكن، كيف أستطيع فعل ذلك وأنا في بريطانيا؟». رمت بقايا الفطيرة على الرصيف فاندفعت إليها قطة كانت تحت الطاولة. انقضَّ الغراب الجاثم على مقود الدراجة. فازت القطة.

«إنهم يأخذون مني كل شيء».

مريم في إنكلترا!؟ لن تعود ثانية. لن تعود أبدًا. لن تعود أبدًا. ماذا تفعل زهرة من غير هذه الصديقة إلى جانبها.

«لا أزال غير قادرة على الفهم. لماذا يرسلك أبوك وأمك بعيدًا؟».

«يظنان أنني مندفعة أكثر مما ينبغي، طائشة أكثر مما ينبغي. يعتقدان بأن الأمر لن يطول قبل أن يلقي بي ذلك في مشكلات لا مخرج منها. لذا، فسوف يرسلانني إلى الريف الإنكليزي حيث يكون أسوأ ما يمكن أن يحدث لي هو أن أسكر وأخرج متجولة في حقل كله أبقار. ستكون قدرتي على التعامل مع هذا الوضع أقل مما كانت عند وجودنا في السيارة مع جيمي».

«سأقول لهما إنك لم تريدي الصعود إلى تلك السيارة. كان عليَّ أن أقول هذا منذ البداية».

«لن يصدقك أحد. الذنب ليس ذنبك. جيمي هو من فعل ذلك. حتى حمد لم يكن مذنبًا حقًا. الذنب ذنب جيمي. قد يكون أسوأ الأشياء على الإطلاق. إنه هناك مع سيارته؛ يظن نفسه شخصية عظيمة لأنه استطاع إخافة فتاتين. أكرهه يا زهرة، أكرهه أكثر مما سأكره أي شخص في حياتي كلها». أطلقت زفرة ثقيلة، طويلة... «والآن، في هذه اللحظة، هذا هو الشيء الوحيد الذي أنا واثقة منه في ما يخص بقية حياتي كلها».

لقد كانت ثلاث لحظات... ثلاث لحظات حاولت فيها مريم العودة إلى الحفلة لكن زهرة حالت دون ذلك. الذنب ليس ذنبك! أيقنت أن مريم تدرك الأمر كله، وأنها تسامحها. نظرت زهرة إلى التعبير الذي لم تألفه في هذا الوجه الذي أَلِفته أكثر من بقية الوجوه كلها. كانت مريم تنظر إلى الشارع، إلى الحياة اليومية، إلى ما فيها من اعتيادية لا يفكر أحد في أنها يمكن ألا تكون مضمونة. أبو بكر يمسح سيارة المرسيدس بقطعة قماش، وبائع قصب السكر يُدخل تلك العصي الطويلة في المعصرة ويستخرج عصيرها الأخضر، وواجهات المتاجر لا تزال مغلقة في كل مكان تقريبًا لأن الساعة العاشرة صباحًا لا تزال أبكر كثيرًا من أن تبدأ الحياة في هذه المدينة الليلية. محاطةً بعالم عرفته دائمًا، كانت مريم ضائعة. أحسّت زهرة بألم صديقتها ينتقل إلى قلبها، أحسّته ألمًا حادًّا، مفاجئًا. قالت في نفسها: إذًا، هذا هو الحب!

مالت برأسها إلى الوراء وراحت ترقب طائرات الورق ذات الزوايا الحادة؛ طائرات في سماء الشتاء الشاحبة. ظلت وقتًا طويلًا جدًا في انتظار كارثة تحل بها؛ وطيلة ذلك الوقت، كانت العاصفة متكورة على نفسها، منتظرة، جاثمة في قلبها الصغير، الطموح، الجبان.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لندن

2019

الرَّبيع

صحيفة الغارديان

23 مارس 2019

زهرة علي: «أعرف بنفسي كيف تعمل الأنظمة القمعية. هذا ما يجعل هذه الحكومة تثير قلقي».

رئيسة مركز الحريات المدنية متحدّثة عن النضال من أجل الحريات في المملكة المتحدة وعن أصدقائها من المشاهير وحبها لمدينة لندن.

يصعب ألّا تتبادر إلى المرء صورة فهد عندما تدخل زهرة علي غرفة الاجتماعات في «مركز الحريات المدنية» مرتدية ملابس سوداء كلها، من السترة حتى الحذاء ذا الرقبة الطويلة. شعر أسود وأطراف طويلة تتحرك موحية بالقوة والتصميم. من حسن حظي أنني لست فريستها: كان ضحيتها ليلة أمس وزير الدولة لشؤون الأمن، وذلك في مقطع من برنامج «نيوز نايت» احتدم كثيرًا قبل أن يبلغ ختامه. تقول إنها غير منتبهة إلى الاهتمام الذي تستقطبه في وسائل التواصل الاجتماعي التي لا تنظر إليها أبدًا - تقول: «فيها ضجيج كثير»، وذلك بطريقتها المتميزة التي اعتادت بها أن تقلّل من شأن تهديدات القتل ومحاولات التصيّد -أمر محزن- التي لا مهرب منها بالنسبة إلى امرأة مهاجرة مسلمة صارت صوت ضمير بريطانيا منذ أن شغلت، قبل نحو عشر سنين، منصب المدير في أقدم منظمة للحقوق المدنية في بريطانيا.

«لم أتخيل أبدًا أن أواصل هذا العمل تلك الفترة كلها. لكن، صدقًا، لا أستطيع التفكير في مكان أفضل أعمل فيه. لذا، سأظل هنا طالما ظلوا

راغبين في وجودي». تقول هذا وتتناول رشفة من فنجان الشاي الذي تحبه -«على الطريقة الباكستانية»- ثقيلًا جدًا مع كثير من الحليب وملعقة من السكر. تركت زهرة علي عملها الناجح عندما كانت محامية متخصصة في حقوق الإنسان وفي الهجرة كي تنضم إلى مركز الحريات المدنية في سنة 2009. «حدثَ في حياتي تغير شخصي جعلني أفكر في أنواع أخرى من التغيير أستطيع الإقدام عليها». كان ذلك التغيير في الحياة الشخصية انتهاء زواجها الذي استمر ست سنين: «عُرض على زوجي عمل في نيويورك، وأحسّ بأنه لا يستطيع رفض تلك الفكرة، وعندما قررت البقاء في لندن، انتهى زواجنا». إنّ هذا يبدو أسلوبًا مخّيبًا للآمال بالكلام على شؤون القلب، فقد يكون دليلًا على شدّة تكتّمها على حياتها الخاصة.

لكنها اعترضت عندما قلت لها هذا. أجابت: «لست أحمي حياتي الخاصة، بل حياة زوجي السابق. لا يجوز لشخص واحد أن يعلّق على زواج فيه شخصان». أضافت بعد وقت قصير: «الأمر المضحك، بالطبع، هو أننا نجد نساء كثيرات من سنّي معتمدات على الأصدقاء أكثر من اعتمادهنّ على شركاء حياتهنّ، وذلك في كل شيء... من الدعم العاطفي إلى الضحك الحقيقي. لكن، عندما نتكلّم على حياة الناس الخاصة، لا يكون هذا ما نعنيه بكلامنا».

الأصدقاء! كان من بين الانتقادات الموجهة إلى زهرة علي انتقاد مفاده أنها تبالغ في قضاء أوقاتها مع المشاهير. فكما قالت صحيفة «ذا صن» في الآونة الأخيرة: «تظهر على صفحات مجلة تاتلر أكثر من ظهورها في ردهات المحاكم». مع أن هذا التعليق يكشف عن عدم فهم لدور زهرة علي في مركز الحريات المدنية -بصفتها مديرة المركز، تشرف زهرة على الفريق القانوني، لكنها لا تتولى القضايا بنفسها- إلا أنه ما من سبيل لإنكار حقيقة أنها كثيرة الظهور مع النجوم. لقد ظهرت على خشبة المسرح مع آني لينوكس، وأدت دورًا صغيرًا مثلت فيه شخصيتها الحقيقية في فيلم اسمه ريز أحمد، وجلست مع مالالا تتابع مباراة كريكيت في لورد. «إن كان الناس

الذين عملوا كثيرًا حتى وصلوا إلى القمة في ميدانهم راغبين في استخدام تميزهم هذا من أجل زيادة معرفة الناس بالعمل الذي يقوم به مركز الحقوق المدنية، فلن أرفض ذلك أبدًا - وفي بعض الأحيان، يبني المرء علاقات شخصية من خلال مساندة الناس المؤسسة التي يعمل فيها». تضحك عندما ترتد كلماتها إليها فتُسقط خط الدفاع الذي أعدته مسبقا، «أوه، ماذا بكم؟ من الذي يمكن أن يرفض الصعود إلى خشبة المسرح مع آني لينوكس؟». شخصيتها العامة مهيبة إلى حد يكاد يجعل المرء يخشى الاقتراب منها، لكنها شخصية جذابة: سخرية مرحة، واستعداد لأن تسخر من نفسها.

عاشت زهرة في المملكة المتحدة طيلة حياتها منذ حصولها على منحة دراسية في جامعة كامبريدج. لكنها ترعرعت في كراتشي خلال حقبة قاتمة من تاريخ البلاد. كانت في الثالثة من عمرها عندما وصل الجنرال محمد ضياء الحق إلى السلطة عبر انقلاب عسكري. صحيح أنها عاشت حياة سعيدة في عائلتها، لكنها كانت تعي حالة الخوف والذعر التي تزرعها الدكتاتورية في النفوس. كانت تخشى أن تصرّح في صفها المدرسي بآراء أسرتها المعادية للجنرال. وقد تعلمت كيف تمتنع عن قول أي شيء خطير في المكالمات الهاتفية لأن أجهزة الاستخبارات يمكن أن تتنصّت على الاتصالات. عندما كانت في الرابعة عشرة، تلقى والدها الذي كان كاتبًا ومقدِّم برنامج تلفزيوني في مجال الكريكيت رسالة من العسكريين تأمره بإدخال بضع كلمات يمتدح فيها ضياء الحق ضمن برنامجه التلفزيوني. قرّر الوالد ألّا يفعل ذلك. تتذكّر زهرة كيف غضبت منه وتقول: «رأيت أنه يعرّض نفسه للخطر، وأنه لا يفكر في مصير أسرته. وفي ذلك اليوم نفسه -يوم كان يسجّل برنامجه وكنت في حالة غضب شديد من الأمر لأنني كنت مراهقة- قُتل الجنرال ضياء الحق». بعد بضعة شهور من ذلك، تم انتخاب الشابة بنازير بوتو، ذات التعليم الغربي، رئيسة للوزراء. «تعلمت عندها أن عليك ألّا تصدق أبدًا أنك خسرت المعركة حتى إن مرت عليك سنوات كثيرة من غير بارقة أمل».

من السهل أن نرى في طفولة زهرة علي السبب الذي جعلها تصير من أبطال حقوق الإنسان والحريات المدنية. لكن ليس من الواضح تمامًا ما جعلها في الآونة الأخيرة تعلن أن المملكة المتحدة باتت على طريق الدكتاتورية. يستحيل تخيل أن يأتي شخص غامض إلى جوناثان آغنو ويطلب منه امتداح رئيس الوزراء في برنامج «تست ماتش سبيشال»، ومن الأكثر استحالة أن نتخيل أسرته مذعورة لرفضه الاستجابة.

عند طرح هذا الأمر عليها، انتقلت إلى الكلام بنبرة باردة قليلًا: «لم أقل أبدًا أي شيء عن أننا سائرون في الطريق إلى الدكتاتورية. هذا ليس إلا عنوانًا وضعته صحيفة رخيصة بعد أن استخلصته من إجابة طويلة جدًا عن سؤال وُجه إليَّ في كامبريدج يونيون. قلت وقتها إنني أعرف من تجربتي الشخصية كيف تعمل الأنظمة القمعية. أفهم أساليبها في قمع المعارضين وفي الإمساك بالسلطة. هذا ما يجعل هذه الحكومة تثير في نفسي قلقًا كبيرًا. لا لأنني أظن أن المملكة المتحدة في خطر التحول إلى الدكتاتورية، بل لأن لدى البريطانيين اطمئنان مفرط إلى أن ديمقراطيتهم راسخة جدًا ولا يمكن أن يصيبها ضعف - ثمة أمور من شأنها أن تثير الإحساس بالخطر في بلدان ذات تاريخ من الحكم التسلطي يُسمح لها هنا بأن تنسَلّ انسلالًا من غير أن تثير ضجة». تتكلم بعد ذلك مطولًا على تزايد كلام الحكومة في ما يخص «السلطات المفرطة التي تتمتّع بها المحاكم»، وكذلك عن ذلك القانون المقترح الذي من شأنه أن يحدّ من حرية التظاهر، فضلًا عن نظام البطاقات الشخصية الذي تخطط الحكومة لإدخاله، والأوامر الموجهة إلى وزارة الداخلية، تلك الأوامر القاضية بأن يوسّع الموظفون سلطاتهم التقديرية لرفض الطلبات «إن شعروا أن ثمة أمرًا غير سليم في طلبات الحصول على الجنسية أو الإقامة». هذا كله، مع أن هذه الحكومة الحالية تولت السلطة منذ بضعة أسابيع فقط.

إنها تطرح أسبابًا مقنعة للقلق، لكنني لا أزال أتساءل إن كانت نظرتها إلى الأمور تحمل ظل كرهها للحكومة الجديدة، ذلك الكره الذي كان

ظاهرًا في نبرة صوتها التي لم أسمع منها ما يشبهها طيلة السنين العشر التي أمضتْها في وضع أصحاب النفوذ موضع المساءلة.

تقول: «إنني أعبّر عن قلق مهني تمامًا في شأن الاعتداء غير المسبوق على أسلوبنا الديمقراطي في الحياة». فما مدى وضوح الحدود الفاصلة بين مخاوف زهرة علي الشخصية ومخاوفها المهنية. تقول إنها حدود «واضحة عندي»، وتبتسم ابتسامة متوترة أفهم منها أنني لن أصل إلى شيء عبر هذا الأسلوب في طرح الأسئلة.

إن اتخذتْ منطلقًا شخصيًا في نظرتها إلى الحكومة فسوف يكون الأمر أشبه بشارع ذي اتجاهين اثنين. ففي وقت سابق من هذا الأسبوع، كسب مركز الحريات المدنية قضية بالغة الأهمية عندما قررت محكمة الاستئناف عدم جواز استخدام الشرطة الكاميرات المزوَّدة بتقنية التعرف على الوجوه. رد وزير الأمن الداخلي على ذلك بأن اتهم زهرة علي نفسها، وليس مركز الحقوق المدنية، بأنها تخلّ بأمن بريطانيا وتتخذ صف المجرمين. ويزعم المطلعون على خفايا الأمور في ويستمنستر أن الحكومة تعتبر زهرة القائدة الحقيقية للمعارضة بعد أن أفضى النصر الانتخابي الضخم في الشهر الماضي إلى تراجع شأن المعارضة البرلمانية. فهل تفكر زهرة في دور سياسي أكبر؟ بدا أن طرح هذا السؤال قد هالها. «لم أعثر أبدًا على خط حزبي أريد أن أربط نفسي به». تقول هذا، وأنا أصدقها.

كان السؤال الأخير هو ما جاءت الإجابة عنه مفاجئة إلى أقصى حد. لماذا لم ترغب في ترك لندن متجهة إلى نيويورك؟

بكل بساطة تقول: «إنه الحب. أحب المكان هنا. بل إنني أحب الطقس هنا». بعد ذلك، تنطلق كي تفترس أول عضو برلمان يلقي به حظه في طريقها، أو لعلها تذهب كي تمضي الوقت مع إيما واتسون وجورج كلوني.

«ياهو»! القسم المالي

23 مارس 2019

تُحدّثنا المستثمرة المغامرة مريم خان عن مسارها المهني، وعن المرأة في ميدان التكنولوجيا وتحويل الفشل إلى نجاح.

[رابط إلى الفيديو]

مريم خان واحدة من الشخصيات البارزة في قطاع التكنولوجيا في المملكة المتحدة. إنها شريكٌ مؤسّس في «فينتشر فيرذر»، التي هي شركة كبرى من شركات رأس المال المغامر في ميدان مشاريع التكنولوجيا الجديدة في لندن. تحتل هذه الشركة المرتبة الثالثة عشرة ضمن قائمة أكبر مئة شركة من شركات التكنولوجيا في المملكة المتحدة في 2017 – 2018. ويشتمل مجال استثماراتها الواسع على تطبيق «Imij» لمشاركة الصور ومقاطع الفيديو الذي تشغل مريم خان منصب رئيس مجلس الإدارة فيه. ظهرت في الحلقة المصورة الأولى عبر برنامج «ياهو» المعني بالشؤون المالية في المملكة المتحدة «*جلوبال تشينج إيجنتس*» فتناولت مسارها المهني ودور الفشل في حياتها. وأيضًا، كان كلامها على الاستثمارات الحكومية البريطانية الجديدة في التكنولوجيا ناضحًا بالتفاؤل.

مريم خان تتحدّث عن النجاح في تكنولوجيا التعرف على الوجوه

عملت عائلة مريم خان في صناعة المنتجات الجلدية في كراتشي. وقد ترعرعت متوقعة أن ترث أعمال العائلة. لكن جدّها توفي عندما كانت في الخامسة عشرة، فقرر والداها بيع الشركة والذهاب للإقامة في المملكة المتحدة. «شعرَا بأن باكستان غير مستقرة من الناحية السياسية، فقررا أننا سنكون أحسن حالًا إن عشنا في بلد آخر. كان من الصعب عليّ أن أعيد تكوين صورة مستقبلي، لكن من حظي أنني كنت مفتونة بعالم التكنولوجيا

بفضل جهاز «Apple IIGS» الذي اشتراه لي أهلي عندما كنت في الثالثة عشرة». درست هندسة البرمجيات في كلية «إمبيريال» وتخرجت في الوقت المناسب لأن تشارك في «طفرة دوت كوم». «في سن السادسة والعشرين، كنت مليونيرة تعيش مع والديها في شقتهما لأنني لا أستطيع دفع إيجار سكن مستقل». وبعد بضعة أسابيع من «حزني على نفسي ومن الإفراط في تناول الآيس كريم»، ذهبتْ إلى مكاتب شركة «رايت كابيتال» التي كانت آنذاك واحدة من أكبر شركات رأس المال المغامر في المملكة، حيث استطاعت إقناع رائدة قطاع التكنولوجيا الأسطورية مارغريت رايت بأن ما لديها من خبرة عملية مباشرة في مجال الشركات الناشئة ومن تنبوءات ذكية، كان من بينها أن شركات الإنترنت ستفلح في الاستمرار وتجاوز اللحظة الراهنة، يجعلها شخصًا مناسبًا تمامًا للعمل في مجال رأس المال المغامر بعد أن صار هذا القطاع يعاني من الافتقار إلى المستثمرين عقب انفجار فقاعة «دوت كوم».

تقول مريم: «نسبة الإخفاق المرتفعة هي السر القذر في عالم رأس المال المغامر. يزعم هذا القطاع أن قرابة 25 بالمئة من الشركات الناشئة حديثًا ينتهي بها الأمر إلى الفشل، لكن النسبة الحقيقية أقرب إلى 75 بالمئة. نجحنا في ‘فينتشر فيرذر’ في تخفيض تلك النسبة بقدر لا يُستهان به، لكنني لا أقول أبدًا للشركات التي نستثمر فيها إن ثمة طريقًا مضمونة إلى النجاح. يقول بعض الناس إنني لا أعرف الرحمة عندما يأتي موعد تقييم الاستثمارات التي لا تصيب نجاحًا؛ لكن ما من أحد ينفق وقتًا أطول مما أنفقه في متابعة شؤون العمل مع المديرين المؤسسين لتلك المشاريع ممن لا يصيبون نجاحًا في المحاولة الأولى. أحاول أن أساعدهم بما لديَّ من خبرة في كيفية جعل ما يبدو كأنه نهاية الحلم نقطة انطلاق جديدة صوب النجاح».

مريم خان متحدّثة عن النساء في قطاع التكنولوجيا

ترى خان أن صناعة التكنولوجيا تسير في الاتجاه الصحيح من حيث

تزايد اشتمالها على النساء، لكنها تدرك أن الطريق لا تزال طويلة. «ينبغي أن تكون النساء مستعدات لطرح مطالبهن ولاحتلال حيّز أكبرَ مساحة. بطبيعة الحال، ثمة قوى وعوامل ثقافية تعمل على ثني النساء عن ذلك، وهذا هو منبع أهمية وجود نماذج تتخذها النساء قدوة لهن. لديّ هنا مارغريت رايت التي لا تزال استشارية موثوقة حتى بعد أن تقاعدت. ومن ناحيتي، آمل أن أكون قد لعبت دورًا مماثلًا بالنسبة إلى النساء الشابات في ميدان التكنولوجيا وأن أواصل لعب هذا الدور. عندما أنظر إلى ابنتي وصديقاتها، أسمع 'السقوف الزجاجية' تتحطم، بل تصير هباء منثورًا».

لديها أيضًا نصيحة تقدّمها إلى الرجال الذين يدخلون مكتبها لعرض مشاريعهم. «لا تحاول معي أن تظهر بمظهر القوي، ولا تقوم بتلك المصافحة العنيفة».

مريم خان متحدّثة عن العثور على مكان في الأسواق المزدحمة

كانت مريم خان أول من استثمر في 'Imij' لأنها رأت إمكانات تطبيق مشاركة الفيديو والصور، في حين رأى غيرها من المستثمرين أنه لن يستطيع تحقيق نمو ناجح في سوق وسائل التواصل الاجتماعي المزدحمة. «رأى الجميع ما فيه من تكرار لمزايا موجودة لدى غيره ـ لكن Imij يقدّم إلى مستخدميه ما يتجاوز كثيرًا ما يقدمه المنافسون. تستقطب منصة تحرير الصور القدر الأكبر من الناس. لكني أرى أن النجم الحقيقي هو ما يتمتع به التطبيق من قدرة متقدمة في ميدان التعرف على الوجوه».

مريم خان متحدّثة عن الحكومة الجديدة في المملكة المتحدة

مريم خان متفائلة بالحكومة الجديدة. «لا يزالون في الأيام الأولى، لكن كلامهم عن الاستثمار في التكنولوجيا يسير في الوجهة الصحيحة. وقد سررت كثيرًا عندما سمعت رئيس الوزراء يذكر الحاجة إلى تشجيع زيادة المهاجرين من أصحاب المهارات. أدرك أن ثمة قلقًا كبيرًا في ما يتصل بأعداد المهاجرين، لكننا لا نحقق شيئًا إذا وضعنا أنواع المهاجرين كلها في مركب واحد. فمن أجل اقتصادنا ومن أجل مركزنا في العالم،

نحن في حاجة إلى اجتذاب رواد أعمال من العالم كله. ونحن في حاجة إلى استبقاء أفضل الطلبة الذين يأتون إلينا للاستفادة من النظام التعليمي في المملكة المتحدة». قليلون هم الذين يركزون على فوائد اجتذاب أصحاب المواهب المولودين في الخارج واستبقائهم أكثر مما تفعل مريم خان.

***

جلست زهرة على مقعد «بريم روز هيل» ترتشف قهوتها، وتنظر إلى كلبين من نوع سبناييل يجريان على العشب، وقد انتصبت آذانهما كأنها أجنحة. على الدوام، يأتي شهر مارس في لندن حاملًا إحساسًا بشيء جديد. «تلك الناحية من لندن تستقبل الربيع استقبالًا حسنًا جدًا».

هذا ما سمعَته من شخص منذ سنين لا تتذكر منه شيئًا غير نطقه المفخّم. كان ذلك عندما انتقلت إلى حيّها الجديد، فاعتبرت ما سمعته عبارة سخيفة، لكنها وجدت نفسها -في وقت سابق من هذا اليوم، مثلما يحدث كل سنة- تقول لنفسها: نعم، هذا صحيح! كانت وقتها في الطريق المؤدية من مسرح «هامستد» إلى مكتبة «سويس كوتيج» حيث تستدعي الأغصان الزاخرة بأول زهور الموسم إلى الأذهان صورة مراوح الريش، كتلك التي لعلها كانت ترفرف من حول كيلوباترا على مركب يسبح في نهر النيل.

مرت بها شابتان ماضيتان في حديث كله حيوية. سمعت واحدة منهما تقول بتلك الطريقة المشحونة التي يبدو معها كأن المتكلم يظن بأن بقية عمره متوقفة على ما يتخذه الآخر من قرارات: «لا أعرف. كيف لي أن أعرف؟» وضعت زهرة ساقًا على ساق وأحست بسهولة أن تكون امرأة في الأربعينيات.

قاومَتْ دافعًا يدعوها للنظر إلى هاتفها الذي كان يهتز كل بضع ثوانٍ معلنًا عن تلقي رسالة جديدة. تحب طالبتها المتمرّنة الجديدة أن تفتش في صحف نهاية الأسبوع عن قصص الفضائح المتصلة بالحريات المدنية، ثم ترسل روابطها إلى زهرة وترفقها بتعليقاتها الغاضبة. لم يطاوعها قلبها حتى

الآن على مطالبتها بأن تكف عن هذا، أو بأن تنتظر حتى يوم الاثنين. لا تستطيع قول هذا لفتاة في الحادية والعشرين لا تزال تخطو خطواتها الأولى صوب أعماق ما في العالم من مظالم. أو... تستطيع قوله شريطة تفهّم أن أضرارًا ستلحق باحترام الفتاة البالغ لها نتيجة إصرارها على الاحتفاظ بإجازة نهاية الأسبوع لنفسها. #لا تتوقف الفاشية مساء يوم الجمعة.

بعد لحظات من ذلك، يظهر في الدرب رجل يسير مع كلبه. يرى الرجل زهرة فيخفض رأسه قليلًا بطريقة تعبّر عن أنه يعرفها، لكنه لا يريد إزعاجها بأن يجعل ذلك واضحًا، إلى حد تجد نفسها معه مضطرة إلى الاستجابة. في شمال لندن، يتعلّمون هذا النوع من التهذيب في سن مبكرة ـ منذ أيام، أومأت لها طالبة مدرسة برأسها تلك الإيماءة نفسها. تزعم مريم أن هذا ليس تهذيبًا بقدر ما هو حاجة إنكليزية لأن يصير المرء مدركًا أنهم يعرفون من هو، لكن هذا لا يعني أنهم يجدون في هذا أمرًا كبير الأهمية.

قالت زهرة: «كلب جميل!».

«شكرًا». قالها الرجل بجديّة تتجاوز ملكية الكلب.

ابتعد الرجل وكلبه، فأخذت رشفة جديدة من قهوتها. إن كنتِ امرأة، فهو نصر أن تستطيعي التنقل بين الظهور واللاظهور بطريقة تناسبك بدلًا من بقائك تحت الأنظار، وبقائك موضع تجاهل على قدر مساوٍ تمامًا، على قدر مساوٍ إلى حد يثير الغضب. رفعت وجهها صوب الشمس وكانت مفعمة بسعادة الوجود، إلى حد حال دون انتباهها إلى أنها أُرغمت على الانتظار من جديد –مثلما يحدث كل يوم أحد– مع أنه كان عليها أن تسير قرابة ميل كامل كي تصل إلى هذا المكان، في حين تعيش مريم في هذا الشارع نفسه. اهتز هاتفها من جديد فأخرجته من جيبها هذه المرة... قد يكون أمرًا لا يجوز أن تتجاهله. مثلما توقّعت، كان كل ما أتاها تقريبًا من طالبتها الجديدة، لكنها وجدت بين رسائل الطالبة رسالة آتية من سنغافورة.

مرحبًا - رأيت مقالة صحيفة الغارديان. أحببت أن أقول «واو». كل ما تفعلينه مدهش حقًا. لعل ذكرياتك عني ليست*

حسنة جدًا، لكني أحب أن أدعوك إلى شراب (حلال أو حرام... مثلما تفضلين) عندما أزور لندن في المرة القادمة كي أحاول التعويض. هكذا يمكن لكل منا أن يتعرف على النسخة الناضجة من الآخر. هل هذا ممكن؟ حمد (من أيام المدرسة)
** أعني المقالة والصورة.*

نقرت زهرة على صورة البروفايل الصغيرة فملأت الشاشة نسخة من حمد عرفتها على الفور: لا ارتخاء في وجهه، ولا كرش بارزة كالتي ظهرت لدى كثيرين من الصبية الذين كانوا معها في المدرسة، على الرغم من أن الفتيات صرن أكثر رشاقة مع بلوغهن الأربعينيات. تذكّرت كلمة كانوا يستخدمونها: «مشدود».

أحسّت تغيرًا في توزّع الثقل على المقعد. لقد جلست مريم إلى جوارها. قالت بنبرة من اكتشف شيئًا: «يصعب أن يراك المرء من غير أن يتذكّر الفهد».

قالت زهرة وهي تدس هاتفها في جيبها: «أوه، يا ربي! منذ متى تقرئين الغارديان».

«منذ أن أخبرني التنبيه الذي أعددته على هاتفي بأن لك مقابلة فيها».

«هل أعددت تنبيهًا من أجلي؟ أنا التي كنت أظنك غير مبالية بحياتي المهنية!».

«وهل لديك تنبيه من أجلي في هاتفك؟».

«كل محاولة لمتابعة أخبارك تقف في وجهها عقبة اسمها مريم خان، عارضة الأزياء التي تمثّلها مؤسسة فينتشر مودلينغ إيجنسي، تلك التي اشتهرت في بلدها كندا بظهورها مرتدية بنطلونًا من الجلد من غير أي شيء آخر بعد سنين من دفاعها عن حقوق الحيوانات».

«أحب سماع هذا الاسم الذي هو مثل اسمي. ينبغي على كل شخص أن يكون مستعدًا لما تتطلبه منه مبادئه إن كان الثمن مناسبًا».

«هل نمشي أم نظل جالستَيْن هنا؟».

سدّدت زهرة كأس القهوة الفارغة صوب سلة المهملات القريبة، فرأتها تصطدم بحافتها وتسقط على الأرض. نهضت سريعًا كي ترفعها قبل أن يصوّرها واحد من الناس وهي ترمي القمامة على الأرض.

سارتا معًا صوب مدخل الحديقة الشرقي. عندما تكونان راغبتين في طريق أقصر تمضيان عبر المنتزه صوب حديقة حيوان لندن، وتتوقّفان عند حظيرة الزرافات كي تعجبا من غرابة تلك الحيوانات، ثم تتابعان مرورًا بحديقة الورود في «ريجنت بارك». وفي أيام أخرى، عندما تكونان راغبتين في ما هو أكثر مدينية، يجتذبهما درب القناة الذي يأخذهما عبر سوق «كامدن» إلى «كينغز كروس». لكنهما سارتا اليوم صوب «هامستد هيف»: قرارٌ كان منعكسًا في ما اختارتاه من أحذية - حذاء مريم الأخضر الزيتوني الذي لم تربطه جيدًا على قدميها (لا ترى مريم أية حاجة لمفارقة شيء من ملابسها بعد أن تبلغ حد الراحة في علاقتها معه)، وجزمة اسكندنافية لزهرة التي كانت لا تحب ما توحي به ماركات أحذية المطر الشهيرة من «تنفج»، فوجدت لنفسها حذاء آخر لا يقل عنها ثمنًا، لكنه يحمل شعارًا لا يكاد يعرفه أحد في لندن. توقّعت أن تسخر مريم من حذائها، فعجبت عندما تلقّت عبارة ثناء بدلًا من ذلك -تفكير جيد- «لا ينبغي أن تسببي لماركتك المفضلة أي ضرر».

تباطأت خطواتها، وأسرعت مريم كي تلحق بها. ما أكثر الأميال التي سارتاها معًا في حياتهما - من تجوّلهما في باحة المدرسة إلى نزهات الأحد في أحوال الطقس كلها! تتحدثان من غير انقطاع، في لا شيء، أو في الأمر نفسه مرة بعد مرة مع تعريج عارض على أحاديث «تُلامس الروح»، تستعيدان بها حرارة سنوات المراهقة. كانت نزهات الأحد هذه ما دفع زهرة إلى شراء «معدات» لم تتخيل يومًا أن تقتني مثلها - جزمات، وسترات مطرية، وقبعات وبنطلونات لا يخترقها الماء. شدت مريم خيط بنطلونها الواقي من الرطوبة، لكنها كانت سعيدة تمامًا بذلك النسيج الناعم الملتصق بجلدها في ذلك الحيز بين أسفل سترتها المطرية وأعلى حذائها.

«تبدوان مثل سيدتين بيضاوين في أواسط العمر»، هذا ما قالته لهما زولا ذات يوم أحد عندما فتحت لهما الباب كي تدخلا هاربتين من المطر الغزير، محمرّتين من البرد، يقطر الماء منهما غزيرًا إلى حد أرغمهما على خلع ملابسهما الخارجية كلها قبل أن تخطوَا إلى الداخل.

«هي تظن أن كلمة 'بيضاوين' هي الكلمة اللاذعة». ردّت زهرة بهذا وهي تحضن زولا بين ذراعيها قبل أن تنادي مريم قائلة لها إن ابنتهما كبرت وصار حملها صعبًا... ألا تستطيعان أن تستبدلا بها واحدة أصغر منها قليلًا؟

الشمس مشرقة اليوم. كان مظهر حذاءيهما سخيفًا عند سيرهما في «إنكلاندز لين» وعبر «بارك بلسايز»، لكنهما سرعان ما يصيران ضروريين في المناطق الموحلة المعروفة في «هيث» حيث تظل آثار المطر زمنًا طويلًا بعد أن تجف الأرض وتتصلب في كل مكان آخر. منذ شهور، هذه أول مرة تسيران فيها من غير سترات الشتاء الثقيلة. اهتمام مريم غير المألوف بانتصاب قامتها أنبأ زهرة بأنها مسرورة كثيرًا بالنتيجة التي استطاع جسدها تحقيقها بعد نظام التغذية والرياضة الذي فرضته عليها ليلى في السنة الأخيرة بعد أن ارتفع معدّل الكولسترول لديها. الآن، صار سيرها بخطوات سريعة إلى جوار زهرة كأنه استعادة لتألق مريم التي كانت تعرفها منذ أمد بعيد. لكن فقدانها ذلك الامتلاء البسيط الذي غزا وجهها في أواسط الثلاثينيات أدى أيضًا إلى فقدانها كل ما في وجهها من رقة. تأتي لحظة في الحياة يصير الوجه فيها مُنبئًا بشخصية صاحبته أكثر من ملامحها. صحيح أنهما لم تقاربا تلك اللحظة بعد، لكن الأمر قد بدأ.

سألتها مريم: «ماذا تعنين بهذا؟ أتظنين أنني غير مهتمة بحياتك المهنية؟». صارتا الآن على مقربة من «ساوث إند غرين»، فتوقفت زهرة عند كشك الخضار والفاكهة عند محطة «هامستد هيث» تتأمل في ما قد تشتريه في طريق العودة. «أنا مسجلة منذ سنين في قائمة المراسلة لدى مركز الحريات المدنية».

«هل وقعت أية عريضة من عرائضنا؟».

«وهل ظفرتم بشيء من أية عريضة من عرائضكم؟».

قبل بضع سنين، كان من الممكن أن تلتقط زهرة الطعم وتلقي على صديقتها محاضرة كي تفهم أهمية الدور الذي يقوم به مركز الحقوق المدنية في المملكة المتحدة. وأما زهرة الحالية فقد اكتفت بكلمة واحدة، «أوووف!».

«هل قلت هذا بصوت مرتفع؟ كفّي عن النظر إلى الراوند. إنه يتعفن عندك في البراد».

تحولت عينا زهرة من الراوند إلى الهليون الذي كان في باكورة موسِمه. قالت: «نعم. قلتِ بصوت مسموع أيضًا ’من غير الجائز وضع المهاجرين جميعًا في مركب واحد‘!».

«لم أقل هذا. متى قلته؟».

«في ’جلوبال تشينج أيجنتس‘. أرسل إليّ بابار الرابط».

«لا بأس. كان اختياري لكلماتي غير موفّق...».

«مممم».

«من الخير لي أن أحرص على ألّا تشاهده ليلى».

شدتها زهرة من كمها. تابعتا السير.

«أوه... لقد أرسلت إليها الرابط أثناء انتظاري المعتاد على المقعد في الحديقة قبل وصولك. أقترح أن تحرمك من الجنس كي تكون هذه عقوبتك».

«لن يحدث هذا».

«يا لك من متعجرفة».

بلغتا «هيث»، فوجدتاه مزدحمًا كما لم تجداه منذ يوم عيد رأس السنة. بدت الدرب المفضية من بركة السباحة المختلطة إلى تلة البرلمان غير محتملة على الإطلاق. انعطفت زهرة ومريم إلى درب غير معتنى بها كثيرًا، لكنها أقل ازدحامًا. بدت خضرة الأشجار المتألقة بأوراقها الفتية مختلفة

بعد شهور عريها الشتوي. وهنا أتت الوحول فكان مرآها مريحًا لأنها كفيلة بصد من لم يفكروا بالاستعداد لمواجهتها، أو من لم يعلموا بوجودها. خاضتا الدرب الموحلة، وكانت مريم تتوقف كي تربّت على الكلاب التي تمر بها. أتى في اتجاههما كلب أسود وأبيض لا يزال رطبًا من البركة. كان يتشمم الهواء. قالت: «لعله من نوع بوردر بولي». كانت كلبتها -كلبة من نوع «آيرش وولفهاوند» اسمها «وولف» ولها مظهر فلسفي- قد صارت الآن أكبر سنًا وأشد ضعفًا من أن تستطيع مرافقتها في نزهات يوم الأحد. لقد بدأت مريم تتحدّث عن الجرو التالي الذي ستقتنيه وكأن هذا قادر على أن يخفف عنها ما سوف يصيبها من حزن.

توقفتا عند بركة طفت زنابق الماء على سطحها. جسر مقوَّس أحمر اللون في الخلفية ومن فوقه غيوم وسماء زرقاء. قرفصت مريم وغمرت يديها في الماء حتى تغسلهما من أثر الكلب المبتل. «هل عنيت ما قلته في المقابلة، أم كان جزءًا من الشخصية العامة التي تحاولين إظهارها؟».

التقطت زهرة حجرين صغيرين وقذفت بواحدٍ منهما محاولة جعله يقفز على سطح البركة. غرق الحجر لحظة اصطدامه بالماء. قالت: «عادة أعني ما أقول».

قالت مريم: «لا تغضبي». أخذت الحجر الآخر منها... «فاجأني الأمر. هذا كل شيء. ذلك الكلام كله على مساوئ أن يكبر المرء في ظل الحكم العسكري وأن يقلق من احتمال تنصت أجهزة الاستخبارات على كل مكالمة هاتفية. أعني... لنقل الحقيقة، كان الأمر الوحيد الذي يمكن أن يثير قلق أي إنسان هو تشابك الخطوط مع أشخاص آخرين من ضمن دائرته الاجتماعية».

هذه المرة، قفز الحجر على سطح الماء - مرة، مرتين، ثلاث مرات. «لاحظت أنك لم تذكري أن أسوأ ما أثار ذعرك على الإطلاق في طفولتك كان في اليوم الذي أعقب تنصيب بنازير بوتو. تلك كانت بداية تجربتنا

الحقيقية مع الديمقراطية... مع الإحساس بأن أي شيء فظيع لا يزال حدوثه ممكنًا».

«أي أمر فظيع هو؟».

التفتت مريم إليها ودفنت يديها عميقًا في سترتها الربيعية. قالت: «جيمي».

فكرت زهرة لحظة في الاتجاه الذي يمكن أن تكون مريم قد أتت منه إلى ذلك المقعد في الحديقة، وفي احتمال أن تكون قد رأتها تنظر إلى صورة بروفايل حمد. سألتها: «ما الذي جعله يخطر في ذهنك؟».

«كثيرًا ما يخطر في ذهني».

«أحتى الآن؟ هل كان ذلك حقًا في اليوم الذي أعقب تنصيب بنازير بوتو؟».

عندما تتذكّر ذلك اليوم، يكون أقوى ما يتبادر إلى ذهنها في شأن تلك الأمسية ذكرى وقوفها وحيدة مرتبكة في حديقة بيت صبا وإحساسها بالبرد يغزو جلدها، لكنها غير قادرة على إنزال كمّي قميصها الجينز لأن ذلك سيجعل مظهرها غير جذاب. تتذكّر ما أحسته من نقص نابع من مشهد مريم ترقص على مقربة من حمد... يده على خصرها.

«بالطبع، كان اليوم الذي أعقب تنصيبها. لكني أظن بأن ذكر ذلك كان من شأنه أن يفسد روايتك الأنيقة عن مسارك من المعاناة في ظل ديكتاتورية قمعية إلى مديرة مركز الحريات المدنية».

«لا بأس... يصنع كل منا حكايات ذات مسارات متقنة. أليس هذا صحيحًا؟».

«ماذا تعنين بهذا؟».

«أنت في السابعة والعشرين تعيشين مع والديك لأنك غير قادرة على دفع إيجار شقة لك. ثم تدخلين بخطوات جريئة مكتب واحدة من أهم شركات رأس المال المغامر، فتستخدمين جرأتك وذكاءك كي تحصلي على عمل هناك».

في أعقاب تهاوي موجة «دوت كوم»، طردت ليلى مريم من شقتهما في «نوتنغهيل»، تلك الشقة التي انتقلا قبل فترة وجيزة للعيش فيها معًا، وذلك لأنها ملّت تكاسل صديقتها وإكثارها من التهام الآيس كريم بدلًا من محاولة الحصول على عمل آخر. ذهبت مريم فسكنت بضعة أيام مع والديها اللذين جلبا معهما من كراتشي كل ما من شأنه أن يجعل لندن أكثر شبهًا بموطنها - من مجموعتهما الفنية إلى علاقاتهما الاجتماعية. كانا هما من دفع مريم للذهاب إلى رؤية مارغريت رايت، التي هي شقيقة واحد من زملاء توفيق في جامعة أكسفورد.

قالت مريم: «أوه، ذلك الأمر». كانت مقرّة بأنه لن يصعب على زهرة ذكر أن هناك جزءًا آخر من القصة كان أكثر بعدًا عن الحقيقة - موت جدها، وبيع شركة خان للجلديات. ما أشد هدوءها عندما تطرّقت إلى ذكر ذلك عند المقابلة. وكم كانت متقبّلة قرار والدَيها بالانتقال للعيش في مكان «أكثر استقرارًا»! لقد مات جدها نتيجة نوبة قلبية أثناء الفصل الأول الذي عاشته مريم في المدرسة الداخلية. وعندما طارت عائدة إلى باكستان لحضور الجنازة كان توفيق قد بدأ مساعيه الرامية لبيع الشركة. كانت مريم شديدة الحزن، شديدة الغضب. غضب حيواني أكثر منه بشري. عاشت في بيت زهرة أثناء عودتها القصيرة إلى بلدها ورفضت أن تكون على مقربة من والدَيها إلا في مراسم الجنازة والحداد.

اقتربت من البركة مجموعة نساء صحن جميعًا بتحيات حماسية موجهة إلى مريم التي استجابت لتحياتهن بطريقتها البهيجة، لكن المتحفّظة، التي تستخدمها دائمًا في تعاملها مع أمهات أصدقاء وصديقات زولا كي لا تتشجعن وتطلبن منها مشاركتهن ألعاب البوكر والذهاب إلى المنتجعات. لقد حلّت محل مريم الاجتماعية التي كانت أيام المراهقة امرأة شديدة الحرص على «وقت الأسرة» إلى حد يجعلها ممتنعة عن الدخول في صداقات جديدة.

«أوه، يا ربي! لماذا لا أستطيع تذكر أسمائهن؟»، تمتمت مريم بهذا

وأخرجت هاتفها متظاهرة بقراءة شيء فيه، لكنها استخدمت الكاميرا لكي تلتقط صورة لمجموعة النسوة أثناء اقترابهن منها. لمسة واحدة جعلت التطبيق يتعرف على وجوههن فظهرت أسماؤهن واضحة على الشاشة.

قالت بنبرة ناعمة مخاطبة واحدة منهن: «شكرًا يا لويز لأنك أخذت ابنتي من المدرسة يوم الجمعة». ابتسمت لويز وقالت إن من دواعي سرورها دائمًا أن تأخذ زولا إلى بيتها بعد المدرسة.

لقد أتت النسوة بغية التقاط صور مع ذلك الجسر الأحمر -قالت واحدة منهن: «هذه بقعتنا!»- وكان هناك قدر من الارتباك البسيط عندما زعمن أنهن يحببن أن تكون والدة زولا معهن في الصورة؛ لكن مريم تفادت ذلك بأن عرضت عليهنّ أن تلتقط الصورة بنفسها، قائلة إن زهرة عديمة النفع لأن يدها غير ثابتة في التصوير. أومأت زهرة برأسها مُقرّة بهذه الحقيقة المؤسفة. كانت الأمهات في غاية الامتنان، وفهمن جميعًا أن هذه هي طريقة مريم البارعة في التعامل مع الوضع. ومع ابتعادهن، سمعت زهرة واحدة منهن تقول: «ما ألطفها!»، وكأنها تؤكد على أمر تعرفنه جميعًا لكنه لا يزال يبعث الحيرة في نفوسهن.

قالت مريم: «لقد كنّ فرحات جدًا لمجرد قربهنَّ منك، فهل لاحظت هذا؟».

«كفاك سخفًا!».

«بل كنَّ كذلك حقًا! عندما قلت لهن إنك لا تستطيعين التقاط الصورة، ابتسمن تلك الابتسامات التي تقول: 'لماذا تكون لدى زهرة علي أية حال مهارات في التصوير، إنها ضمير بريطانيا. فليقم غيرها بالتقاط الصور. فلتلتقط صورتنا والدة زولا'!». كانت نبرة صوت مريم معابثة كأن فيها اعتذارًا عما أبدته من حدة قبل قليل.

قالت زهرة وهي تربّت على حذاء مريم بعود التقطته عن الأرض: «الآن، بعد أن أسأت إلى سمعتي في التصوير، ما التطبيق الذي استخدمته قبل قليل؟ أهو Imij؟».

«إنه هو. علينا أن نبدأ الترويج له لدى كبار السن باعتباره وسيلة قادرة على مساعدة من يعانون ضعف الذاكرة ولا يستطيعون تذكر الأسماء». شبكت ذراعها بذراع زهرة، «هل قلت لك إن لدينا سمكًا على الغداء؟ نزولًا عند رغبة الجمهور، سوف تعدّين لنا البازلاء الخضراء مع بذور الخردل».

اهتز هاتف زهرة من جديد. استخدمت يدها الحرة، فأخرجت الهاتف من جيبها قليلًا، وألقت نظرة على شاشته بعد أن أمالته جانبًا كي لا تراه مريم. مرة أخرى، ذلك الرقم من سنغافورة.

***

في يوم أحد آخر، انتهت وجبة الغداء بعد أن لم يبق من الدجاجة المشوية التي أعدتها مريم غير نتف من العظام.

قالت ليلى: «لا تزال وجبة مدهشة بعد هذه السنين كلها». كانت نكتة شائعة بينهم أن لحظة إدراك ليلى أنها صارت مقبولة حقًا عند عائلة خان كانت حين صار والدا مريم قادرَين على قضم العظام والغضاريف في حضورها من غير خشية من أن يظهروا لها جانبهم الأقل رقيًّا.

مدت والدة مريم يدها إلى صحن زولا حيث كانت عظام جانح الدجاجة قد صارت فُتاتًا. قالت: «هذه الصغيرة تبدو أحيانًا كأنها من عائلة خان بالكامل». لا تفوّت زينو أبدًا أية فرصة للتعليق على أي تشابه تستطيع العثور عليه بين زولا وواحد من الأشخاص من عائلة مريم، حتى إن كانت الصلة واهية جدًا، وذلك من قبيل المضاهاة بين اهتمام زولا بالجمباز وبين واحد من الأعمام الذي أدهش أجيالًا كثيرة بقدرته على الشقلبة على اليدين إلى أن صار في الثمانينيات من عمره. وعلى الدوام، تقدّم تلك التعليقات بنبرة صوت توحي بأن تلك الصلة إثباتٌ لأمر في حاجة إلى إثبات في ما يتصل بهذه الحفيدة التي لا تحمل شيئًا من مورثات عائلة خان.

نظرت زولا إلى مريم الجالسة قبالتها. حرّكت رأسها بطريقة كأنها تقول: «لا تتوقفي عند هذا»، لكن من غير كلام. بعد تلك السنين كلها، لا

يزال ممكنًا أن يستبد الغضب بمريم عندما يكشف أبوها أو أمها عن تلك الناحية الصغيرة مما في قلبَيهما، حيث لا تزال زولا في فئة منفصلة عن بقية الأحفاد. كانت ترى في هذا الكشف -بكل وضوح- رغبة مستمرة في أن تكون كبرى بناتهما قد اتخذت لها مسارًا مختلفًا في الحياة، فهذا ما كانا واثقين من أنها قادرة عليه لو كان لديها اهتمام أكبر قليلًا بمدى ما سيواجهانه من صعوبة، بل أحيانًا من استحالة الكشف أمام الأصدقاء عن أن لديهما ابنة مثلية تعيش مع شريكة سوداء وطفلة مولودة من نطاف متبرِّع أصوله العائلية مجهولة. كانت ليلى ترى دائمًا أن مريم تبالغ في القسوة على والديها، وأنها لا تزال تحمل عليهما رفضهما هذا الارتباط في فترته الأولى (كما كان متوقعًا، «ماذا سيقول الناس؟»). بفضل الرب، كانت زهرة قد عاشت مع زينو عمرًا كافيًا لأن تدرك كل ما في كلامها من معانٍ خبيئة.

قد يكون هذا مفتاحًا إلى سر قدرة صداقات الطفولة على أن تعيش طويلًا - تلك المعاني الخفية الكامنة كلها التي لا يستطيع أحد آخر تخمينها. ولعل المعاني الخفية المشتركة تبدو أكثر ضرورة من أي وقت عندما تعيش الاثنتان بعيدًا عن مدينة طفولتهما التي كانت في حد ذاتها «معنى خفيًا» في حياتهما. أشارت إلى زولا بأن تنهض وترفع أطباق الكبار، وقالت في نفسها إن صداقات الطفولة أكثر العلاقات غموضًا: إنها مبنية على قواعد لا تمتد إلى أية علاقة أخرى في الحياة. لا رابطة دم، ولا رابطة مهنة، ولا عيشة مشتركة في بيت واحد، ولا حتى قدرًا كبيرًا من الاهتمامات المشتركة مثلما يكون الأمر في الصداقات التي تنشأ في وقت لاحق من الحياة.

عما قريب، ستكون زهرة الشخص الوحيد الباقي في لندن ممن كانوا جزءًا لا يتجزأ من طفولتها. سوف يعود والدا مريم للعيش في باكستان بعد ثلاثة عقود أمضياها في لندن؛ وسيأخذان «معانيهما الخفية» معهما. تطورٌ من شأنه أن يُحدث اضطرابًا أشد ممّا كان ممكنًا أن تتخيّله مريم. لقد عادت ابنتهما الوسطى إلى باكستان عند زواجها بعد تخرجها في الجامعة مباشرة،

وهي تعيش هناك حياة شبيهة جدًا بالحياة التي تركوها قبل ثلاثين عامًا. على النقيض من ذلك، كان كل ما في حياة مريم دليلًا على انفصالها عن والديها - أخلاقيات العمل، وطفلتها، وشريكتها. بل إن هذا البيت نفسه، بالمساحة الممتدة في الطابق السفلي من غير فواصل بين غرفة الطعام والمطبخ وغرفة المعيشة، هذا البيت المصنوع من الإسمنت وخشب البلوط والستانلس ستيل، هذا البيت بأثاثه البهيج ونوافذه الكبيرة... كل شيء فيه ينطق بعالم بعيد عن بيت والدَيها في كراتشي وسجاداته العجمية ولوحات الخط العربي على الجدران وأطباق السجائر المصنوعة من الكريستال والزينات الفضية، فضلًا عن باب المطبخ الذي يُغلق بإحكام لأن من خلفه خدمًا مستأجَرين يطهون وينظفون.

كانت أمها تسأل زهرة بعد أن تغير موضوع الكلام إلى العودة: «هل تظنين أنك يمكن أن تفعلي مثلنا ذات يوم؟».

قالت مريم: «العودة إلى كراتشي. يرحل بعض الناس من أجل الرحيل، لا لأنهم عقدوا العزم على إشاعة الفوضى في حياة غيرهم قبل أن يرفرفوا عائدين إلى حيث كانت البداية».

قالت زولا: «ماما... لولا تلك الفوضى لما كنت لديك، ولما كانت ماما».

قالت زينو: «بالضبط»، وكأن غايتها كلّها من رمي مريم إلى ذئاب المدرسة الداخلية الإنكليزية كانت تحريرها مما في باكستان من قيود على الحياة الجنسية.

«أوه، حتى لو لم يشحنوني إلى لندن في الرابعة عشرة، فقد كان لا بد أن ألتقي أمك من خلال الخالة زهرة، وأن أقع في حبها. مهما تكن الطريق التي أسلكها فسوف تقودني إليك وإليها». كشّرت زولا متقززة إزاء فكرة «الوقوع في الحب»، لكنها لم تستطع إخفاء سرورها بذلك التأكيد على أن مريم لا تريد حياة من غيرها. امتدت قدم ليلى تحت الطاولة ومست كاحل

مريم التي ركزت انتباهها على تلك الملامسة بدلًا من نظرة أبيها المتشككة التي رماها بها.

كانت فكرة العودة إلى كراتشي قد نوقشت مرات كثيرة، فصارت تبدو أمرًا محتومًا إلى حد يجعل أي كلام إضافي عنها لا يعدو كونه ثرثرة، لا أكثر. وأما الآن، فثمة تذاكر سفر في اتجاه واحد، ودعوات إلى العشاء لوداع الأصدقاء، وحاويات شحن عليها عنوان شقة في كراتشي حيث يستطيع والداها أن يعيشا مستقلين مع كونهما قريبين جدًا من ابنتهما التي تحيا هناك حياة عادية، وقريبين من أحفادهما ذوي البشرة الفاتحة. سوف تكون عودتهما إلى حياة كراتشي سهلة جدًا: تعود أمها إلى جلسات الشاي التي تقيمها السيدات وإلى مجالس إدارة الجمعيات الخيرية؛ ويواصل أبوها حياته مع الكلمات المتقاطعة والنشاطات الرياضية (كان يهوى التنس في الأصل، لكنه تحول الآن إلى لعبة الجولف)، وكذلك إلى علاقاته الاجتماعية التي هي محتوى وجوده كله بعد أن بلغ سن الرشد - في لندن، سمحت له براعة زوجته في الاستثمار في العقارات باستخدام المال الذي جاء من بيع شركة خان للجلديات، بأن يظل عاطلًا عن العمل مثلما كان في كراتشي. على الدوام، كان موطنهما مكانًا ينتظر عودتهما، ثم ازدادت جاذبيته بعد أن ظهرت فيه مشاريع البناء الحديثة والمطاعم الفاخرة والانخفاض الكبير في معدلات الجريمة، بعد «عمليات» واسعة قامت بها الشرطة وقوات شبه حكومية. هذا كله، إلى جانب سعر صرف الباوند الإنكليزي مقابل الروبية الباكستانية، وتدني أجور الخدم في كراتشي جعل من تلك المدينة الوُجهة الممكنة الوحيدة من أجل شيخوخة مريحة.

عادت زينو إلى حديثها مع زهرة وكأن شيئًا لم يقطعه. «قلت في نفسي إن السن قد تقدمت بوالديك، يا زهرة، وإن ثمة الكثير مما يمكن فعله في مجال حقوق الإنسان هناك». وقال «المعنى الخفي» في كلامها، ومن غير أسرة تحملك على البقاء هنا، «بالطبع، أستطيع رؤية ما قد يجعلك تفضلين

البقاء هنا». كان المعنى الخفي في هذا: العيش في لندن أكثر سهولة بالنسبة إلى امرأة عازبة.

أسندت زهرة ذقنها إلى كفها ورمقت والدة مريم بتلك النظرة المعابثة قليلًا، التي دخلت علاقتهما أثناء سنوات دراسة زهرة الجامعية، عندما حرص والدا مريم على أن يكون واضحًا للجميع أن زهرة موضع ترحاب دائم في شقتهما اللندنية. كان هذا ردًا (من غير كلام) لتلك العطلات المدرسية، عندما كانت مريم تطير إلى كراتشي فتعيش في بيت زهرة وأبوَيها، في حين تمضي بقية أسرتها الصيف في أوروبا رافضة تحمّل حرارة الصيف في باكستان.

«اعترفي بالأمر، يا خالة زينو. السبب الحقيقي لسفرك هو أنك يئست آخر الأمر من محاولة تزويجي فتى لطيفًا من أسرة محترمة».

قالت زينو: «لا يزال لدي وقت قبل سفري كي أنجز هذه المهمة الباقية. أكسفورد، وارتون، فيهما فنادق كثيرة. ليسوا من أكثر الناس وسامة، لكنهم من ذوي المسلك الممتاز. لا شيء هناك من العلاقات البريطانية-الآسيوية العابرة المعتادة».

سألت زولا: «ما هي العلاقات البريطانية-الآسيوية العابرة المعتادة؟».

أجابتها مريم: «إذا لم تفهمي ما تقوله جدتك، فمن الأسلم افتراض أنها تشير إلى المركز الاجتماعي».

وضعت زولا يدها على خدها حتى تستطيع أن تفتح عينيها على اتساعهما، استنكارًا لهذا التوضيح من مريم من غير أن تراها جدتها. قالت: «أوه! على أية حال، يا جدتي، لا معنى للأمر. الخالة زهرة غير مهتمة بالجنس».

قال والد مريم: «يا ربي!».

«خالتك زهرة عازبة باختيارها، يا زولا. هذا أمر مختلف عما تقولين». قالت ليلى هذا بالنبرة المعتادة التي تستخدمها كلما أفلتت من زولا عبارة تحمل فكرة جديدة، لا ترى مريم أي سبب لأن تعرفها طفلة في مثل سنها،

«يستطيع الناس أن يتصرفوا بمسؤولية في ما يخص وجود شركاء جنسيين لهم من غير أن...».

قالت مريم: «أليس ممكنًا ألا نمضي في هذا الحديث أمام أبي وأمي؟»، في اللحظة عينها أطلقت زهرة زفرة طويلة.

قالت زينو: «أتظنين أن المشكلة في والدَيك، لا في طفلة عمرها عشر سنين؟».

قالت مريم وزهرة معًا: «نعم».

«كم شريكًا جنسيًا لديك الآن، يا خالة زهرة؟».

الآن، أرادت زولا أن تكون شريرة، وألا تفوّت على نفسها هذه الفرصة النادرة، فرصة رؤية أمها وعرّابتها في حالة ارتباك.

ما الذي كان في وجه زهرة تلك اللحظة؟ وما ذلك الشيء الغامض الغريب في تعبيره؟

قالت ليلى وهي تنظر صوب الباب الزجاجي المفضي إلى الحديقة: «الطقس جميل في الخارج». شمس وافرة بعد الظهر تُظهر جمال نبتة الـ«ويستريا» التي تسلقت جدران الاستوديو في آخر الحديقة، وكذلك أحواض الزهور الحافلة بالألوان... «لماذا لا تتركوني كلكم الآن حتى أقوم ببعض التنظيف هنا. لا، حقًا، يكون الأمر أسرع هكذا».

خرج الكبار إلى الشرفة ومن خلفهم زولا وولف، واتخذ كل منهم موقعه هناك: والدا مريم على الأريكة المزدوجة، ومريم وزهرة على الكنبتين، وولف عند قدمي مريم. جلست زولا على ذراع كنبة زهرة.

تباطأت الأحاديث بعد فترة وجيزة جدًا إذ نعسوا قليلًا بعد وجبة الطعام. لم يكن هذا مزعجًا لأي واحد من الكبار الذين كان يسعدهم النظر إلى أزهار الحديقة، والإحساس بدفء بعد الظهيرة والإصغاء إلى قرقرة وولف التي غفت على الأرض. لكن زولا الممنوعة من استخدام التابليت عندما يكون جداها في زيارتهم، صارت في حاجة إلى شيء من التسلية، فحاولت إقناع زهرة بأن تلعب معها لعبة «ماذا تفضلين».

قالت لها زهرة: «في ما بعد، يا حبيبتي».

قالت زولا محتجّة: «لماذا يكون الكبار مضجرين هكذا؟». في هذه الأيام، يظهر في كلامها شيء جديد عندما تكون غير راضية، شيء من تمرد لعله إشارة أولى منبئة بمرحلة المراهقة التي لم تصِر مريم مستعدة لها بعد. لا تزال زولا في العاشرة، ولا يزال جسدها جسد طفلة، لكن الشعر بدأ يظهر تحت إبطيها، فصارت تتجنب ارتداء قمصان من غير أكمام حتى بعد أن ازدادت الأيام دفئًا. في الآونة الأخيرة، صارت لا ترتدي شيئًا غير بنطلونها الأسود مع سترة رياضية فضفاضة، وصارت مريم مضطرّة إلى أن تسرقهما من غرفتها أثناء نومها في الليل كي تستطيع غسلهما.

قالت زهرة: «كنت أفكر في دعوتك معي كي نجلس في مقصورة خاصة ونحضر حفلة موسيقية صيفية في هايد بارك، لكنك لا تريدين الذهاب مع شخص مضجر».

أطلقت زولا صرخة صغيرة وعانقت زهرة.

قالت والدة مريم: «هل ستعزف آني؟»؛ كان اكتفاؤها باستخدام اسم آني لينوكس الأول بهذه الطريقة مستندًا إلى مبدأ مفاده أن أي شخص تعرفه زهرة يصير، بالتبعية، من أصدقاء عائلة خان المقربين.

قالت زهرة: «لا»، ثم ذكرت اسم واحد من أكبر الأعمال الموسيقية في العالم، وكأنها تقول إنها لا تحب التشدّق بعلاقاتها مع النجوم، أو كأنها لم تقل هذا إلا لأن زينو طرحت السؤال. صاحت زولا فرحة. وتظاهرت زينو بأنها تعرف من ذكرته زهرة مع أنها أخطأت في كتابة الاسم عندما أرادت أن تبحث عنه في هاتفها. بدا توفيق غير راضٍ بهذا، وقال إنه يتمنّى لو كانت الحفلة لباربارا سترايسند... الحفلة الموسيقية الصيفية الوحيدة التي التقطتها راداراته.

انحنت مريم كي تربّت على رأس وولف، ثم رفعت عينيها إلى أبيها. غمز لها فلم تستطع منع نفسها من أن ترد بابتسامة متآمرة إذ سَرَّها رفضه أن يُظهر تأثرًا بأسلوب زهرة في التظاهر بأنها ذكرت ذلك الاسم ذكرًا عارضًا... أمر

يبدو في غاية السذاجة في حضور أبويها، وكأن نظرتهما إليها يمكن أن تتأثر بتأكيدها على ما لها من أثر كبير في العالم، أو كأنهما يمكن أن يزدادا إعجابًا بها لأنها ممن يحضرون حفلات العشاء في شمال لندن. كانت تلك الغمزة وتلك الابتسامة نهاية معركة صامتة بين توفيق ومريم استمرت معظم فترة بعد الظهر، معركة بدأت عندما تذمّرت ليلى من منظمة فنّية محلية دعتها كي تشارك في مجلس إدارتها باسم «التغيير»، ثم اتضح أن وجودها هناك كان التغيير الوحيد الذي اعتزموه. وقتها، قالت مريم: «لا بأس. أمر واضح. لا يتخلى أحد عن السلطة حتى إذا كان غير مؤهّل لممارستها: إما أن يتمسك بها، أو يبيعها». كان أبوها قد اندفع في سرد قصة طريفة عن ملكٍ وأبنائه، فكانت سرعة تحوله إلى محاولة استقطاب انتباه الحاضرين ليس إلا إدراكًا منه لمن كان في ذهن مريم عندما استخدمت تعبير «غير مؤهل».

قال توفيق: «ألا ينبغي أن يساعد أحد منّا ليلى؟». قال هذا ناظرًا إلى زولا المستمرة في التعبير عن فرحها. كان بلوغه السبعينيات مناسبًا له إلى أقصى حد إذ صار كسله في سنواته السابقة يبدو كأنه أعيد صوغه، فاتخذ شكل فترة راحة مستحقة له في أواخر العمر. لم تسامحه مريم تمامًا على بيعه شركة خان للجلديات، ولا على موت جدها الذي كانت واثقة من أنه كان ناتجًا عن عناء متابعته عمله اليومي، عالمًا أن شركته المحبوبة سوف تنتقل إلى أيدي أشخاص غرباء. إلا أن ثلاثين سنة مرت، فصارت هذه المشاعر أكثر ميلًا إلى أن تكون نوعًا من الحسرة، لا الغضب.

ألقت مريم نظرة إلى الداخل. كانت ليلى قادمة صوب الباب المغلق بقامتها المنتصبة المميزة التي يحدث أحيانًا أن تتراخى وتتهدّل عند وجود توفيق وزينو، لكن ليس في هذا اليوم. ظهرت من خلف القاطع الذي في المطبخ مُلَفّعة بالجلال، تحمل صينية القهوة الفضية التي كانت هدية من والدَي مريم، تلك الصينية التي لا تستخدم أبدًا إلا عندما يأتيان - مجاملة من جانب ليلى. تقول مريم إنها لا تفعل شيئًا غير تشجيع والديها على شراء هدايا تُظهر نرجسية من يقدمها لأنها تكون انعكاسًا لذوقه، لا لذوق

من يتلقاها. نهضت مريم واقفة وفتحت الباب، ثم طبعت قبلة اعتذار على خد ليلى، واستغلت الفرصة كي تنسل إلى البيت وتذهب مباشرة إلى هاتفها الذي تركته على طاولة الإفطار كي تشحنه. ليست زولا الشخص الوحيد الممنوع من استخدام الأجهزة الإلكترونية عندما يأتي توفيق وزينو إلى تناول الغداء هنا. وجدت مجموعة رسائل تحمل كلها عنوان «Imij» آتية من مستثمرين وأعضاء من مجلس الإدارة الذي تترأسه مريم.

نقرت مريم على الرابط الملحق بالرسالة الأولى. ***كاد Imij يقتل طفلتي***... هكذا كان العنوان فوق صورة طفلة في غرفة مستشفى. ضماد على معصمها. وضعت مريم يدها على معدتها. تلميذة مدرسة في الثالثة عشرة حاولت الانتحار نتيجة تنمّر زملائها عليها. حدث أكثر هذا التنّمر عبر تطبيق Imij. التلميذة المعنية طفلة مسلمة بدينة الجسم. لقد استُخدمت عدة حسابات (من الواضح أن ثمة تنسيقًا بينها) وأدوات تحرير الصور في التطبيق كي تجعل عيني الطفلة أكثر تقاربًا، وكي يصير أنفها مسطحًا - مجموعة كبيرة من تعليقات قاسية فظة وجدت طريقها إلى هذه الصورة، والظاهر أنها آتية من أشخاص لا يعرفون الفتاة لكن لديهم الكثير مما يودون قوله عن فتاة في حجاب تبدو أشبه بخنزير. ومع تلك القصص ظهرت مقالة صحافية قال كاتبها، الذي عادة ما يخص السياسيين اليساريين وناشطي المناخ، بانتقاده اللاذع، «على الحكومة أن تتدخل كي تمنع الأذى الذي يصيب أطفالنا عن طريق وسائل التواصل الاجتماعي».

رد مؤسِّس Imij (هو المدير التنفيذي) من الرنّة الأولى. قال لها: «أعلم»، بدا مبتهجًا كعادته دائمًا. كانت مريم وبقية أعضاء مجلس الإدارة يدعونه من خلف ظهره «الفتى الذهبي»، نتيجة لون شعره ونجاحه المبكر وحلاوة طبعه. كانوا يستخدمون هذا التعبير من غير أية عاطفة على الإطلاق. «لن تفعل الحكومة شيئًا، أليس كذلك؟». يجري كلام على شراء Imij من قبل شركة برمجيات عملاقة لديها خطة للتوسع في ميدان وسائل التواصل الاجتماعي، (أربعة عشر مليار دولار، فضلًا عن أرباح إضافية عند إتمام

الصفقة). لم يكن المال مهمًا بالنسبة إلى مريم من حيث هو مال. لا تزال تعيش الحياة نفسها التي عاشتها منذ عشر سنين. لكن المال كان ذا أهمية كبيرة من حيث إن هذه الصفقة ستكون أكبر صفقة في ميدان التكنولوجيا تشهدها المملكة حتى الآن. وسوف تجعل شركة «فينتشر فيرذر» تقفز إلى المراتب العليا بين شركات رأس المال المغامر، على مستوى العالم كله، وتمهد الطريق أمام الافتتاح الكبير لمكتبها في سان فرانسيسكو.

«يقولون إنه جرى التبليغ عن الصور بعد دقائق من نشرها. لكننا لم نتخذ أي إجراء على امتداد ست وثلاثين ساعة».

لا يزال مبتهجًا. قال: «صحيح. أداء ضعيف ظن الشخص المسؤول أن تشبيه الطفلة بالخنزير كان بسبب وزنها، لا دينها. هذا يعني أن الأمر لا يخرق النواظم الخاصة بمكافحة التمييز. لقد طردناه؛ ونحن عاكفون الآن على إعداد بيان. إجراءات أكثر تشدّدًا، وكلام من هذا القبيل. صَدَمنا الأمر وهالنا. بعض المستخدمين الذين يسيئون استعمال منصَّتنا، إلخ. هل نذكر أنها في الثالثة عشرة وأن شروط الاستخدام لدينا تقول إن العمر لا يجوز أن يقل عن خمسة عشر عامًا».

«لا، إلا إذا أردتَ بدء حديث عن تدابير التحقّق من الشخصية. اجعل البيان مختصرًا. سوف تنتهي القصة وتزول سريعًا».

«صحيح. لا تبقى الفتيات البدينات طويلًا على الصفحات الأولى». أعقبت ذلك ضحكة سمحت لمريم بأن تقول في نفسها بقدر من الرضا: «من هو الخنزير الآن؟».

أنهت المكالمة ونظرت من جديد إلى صورة والدَي الطفلة في أسفل المقالة. باكستانيان في مثل سنها، بل لعلهما أصغر منها قليلًا. كان في تعبير وجه الأب ما ذكّرها بحبيب علي: قدر من اللطف الواضح.

عندما عادت إلى الشرفة، وجدت زولا تقفز من قدم إلى قدم في الحديقة وتقول: «من فضلك يا ماما، أنا في العاشرة، من فضلكَ». ليس هذا مشجعًا. رأت ليلى قبل قليل رسالة نصية أتت منذ أكثر من ساعة

تدعو زولا إلى نزهة في الحديقة مع صديقها العزيز مارك ووالدته ووالده وكلبهما الجديد. الآن، صار الكلب وأصحابه في الحديقة؛ وهم يعتزمون البقاء بعض الوقت. لكن ليلى لم تكن مستعدة لمرافقة زولا إلى الحديقة أثناء وجود ضيوف على الغداء. اقترحت زولا أن تمشي إلى الحديقة وحدها. كانت المسافة قصيرة. وعلى امتداد المسار كله، تنتشر بيوت أصدقائهم. ستأخذ معها الهاتف الاحتياطي كي يستطيعوا تعقبها. كانت زولا قد وضعت نصب عينيها هذا الهاتف الاحتياطي الذي لا يستخدمه إلا ضيوف البيت الآتون من الخارج.

«بالتأكيد لا»؛ قالتها مريم في اللحظة نفسها التي قالت فيها ليلى: «لا بأس».

ألقت زولا بنفسها بين ذراعي ليلى متظاهرة بأنها لم تسمع شيئًا آخر. طوَّقت خصرها بذراعيها، «شكرًا، شكرًا، شكرًا، شكرًا».

نظرت ليلى إلى مريم نظرة فيها مزيج من الاعتذار وعدم النية في التراجع. أدركت مريم ما ستقوله، في وقت لاحق وعلى انفراد. أمر عادي تمامًا بالنسبة إلى أطفال لندن أن يبدأ خروجهم وحدهم ضمن نطاق الحي عندما يصيرون في هذه السن - كانت نشأتها في غرب لندن غير ما نشأت عليه مريم في كراتشي حيث كان لديها سائق يرافقها دائمًا. هذه هي ورقة ليلى الرابحة التي يسرّها أن تستخدمها دائمًا، مع أنه كان لديها سائق خلال فترة طفولتها في لاغوس. تستطيع ليلى التنقل بين نصفها النيجيري ونصفها الإنكليزي بكل سهولة، وذلك بحسب ما يفيدها: مهاجرة، أو من أهل البلاد، واحدة من نخبة المجتمع أو واحدة من أقلية مستضعفة. كانت تزعم أن انتقالها بين الأمرين أكثر شيوعًا من موقف مريم الذي لا تغير فيه، موقف التميز والانتماء الثابت بصرف النظر عن طبيعة الأشخاص الذين تجد نفسها معهم، وبصرف النظر عن البلد الذي تكون فيه.

قالت مريم مخاطبة زولا: «تستطيعين السير حتى الحديقة. لكن، يجب أن يأتي واحد من الكبار كي يلاقيك عند المدخل».

قالت زهرة: «أستطيع أن أوصلها. على أية حال، عليَّ أن أعود إلى البيت بعد قليل».

هتفت زولا: «لا!».

في الأحوال المعتادة، تكون زولا مستعدة لتقديم أي شيء مقابل أن تمشي مع خالتها المحبوبة زهرة من غير وجود كبار آخرين يلهونها عنها. لكن حاجة أخرى استولت عليها الآن جعلتها تتقدم من مريم وتتوسل إليها. كانت مشيتها مثل مشية ليلى، خطوات واسعة وملامح تشبه ملامح ليلى. عيناها فقط كأنهما مأخوذتان من تمثال مصغر لموغال: الملمح الوحيد الذي يشير إلى الباكستاني صاحب النطاف.

قالت لها: «أريد أن أنطلق في العالم بمفردي». جملة فخيمة مؤثرة بقدر ما هي سخيفة. ألم يكن هذا بالضبط ما أرادته مريم عندما كانت في مثل سنها؟ بل إنها كانت أصغر منها عندما بدأ أبو بكر يخضع لمطالباتها بأن ينعطف بالسيارة ويدخل أحد الشوارع في طريق العودة من المدرسة: المتجر الذي يبيع الكوكا كولا في علب معدنية لا في زجاجات؛ والبائع المتجول الذي يغلّف شرائح التفاح بالتمر الهندي وصلصة الفلفل من وعاء يزدحم عليه الذباب. كانت تفتح باب السيارة وتقول لأبي بكر ولشقيقتيها أن ينتظروها، ثم يستولي عليها شعور -شعور لذيذ جدًا- بأنها تخطو خارجة من حياة الطفلة المدللة وتصير جزءًا من حيوية المدينة واندفاعها.

ضغطت مريم على جبهة زولا بقبضة يدها فمالت زولا صوبها... وكأن شيئًا - لعله معرفة أو لعله قوة - يمكن أن يسري بينهما.

«من فضلك، يا ماما».

لن تكون أبدًا مستعدة لهذه اللحظة. فكيف تستطيع أن تصفّق لطفلتها لأنها تطالب بحقها في العالم، في حين تظل حريصة على تحذيرها من فظاعة البشر الآخرين؟ العنصريون، وكارهو البشر، وأمثال جيمي... ما أكثر السبل المفضية إلى ذعر الفتيات! كانت تدرك أن بلوغها سن الرابعة عشرة قبل أن تختبر تلك الفظاعة بنفسها كان أشبه بأعجوبة. تعتقد زهرة أن

ذلك كان لأن أبي بكر يأخذها بالسيارة إلى كل مكان وعلى وسطه مسدس. لكنها كانت تعرف أن ذلك ما كان إلا نتيجة الظل الذي يلقيه جدها على العالم من حوله، ظله الذي يحميها.

قالت زينو: «إن كانت زهرة تقول إنها تستطيع أن تسير معها، فما معنى ذهابها وحدها؟ لم تخرج مريم وحدها أبدًا من غير أن يرافقها أحد حتى ذهبت إلى الجامعة».

رفعت زولا رأسها وابتسمت لمريم مدركة استحالة أن يكون هذا الكلام صحيحًا.

قالت لها مريم وقد هزمها تحالف أمها مع الصغيرة، «حتى مدخل الحديقة فقط. سأقول لوالدة مارك أن تلاقيك هناك. وإذا حدث في الطريق أي شيء تحسّينه غير طبيعي، فاتصلي بي فورًا. سأضع رقمي على مفتاح الاتصال السريع».

عندما انطلقت زولا حاملة الهاتف الاحتياطي بطريقة توحي بأنها غير مستعدة للتخلي عنه بعد عودتها. ظلت زهرة واقفة مع مريم على الرصيف أمام البيت تنظران إلى منعطف الطريق حيث اختفت زولا عن ناظريهما. على شاشة هاتف مريم، كانت نقطة زرقاء تتحرك سريعًا صوب الحديقة.

كان الشارع هادئًا، فيه ألفة باعثة على الاطمئنان. إنه شارع طويل، لكن موضع البيت عند المنعطف جعله يبدو معزولًا عن بقية البيوت. في هذا الجزء من الشارع، ثمة بيوت كثيرة لها المظهر الخارجي الفكيتوري نفسه الذي يتسم به بيت مريم وليلى، مع أن ما من أحد آخر تجد لديه ذلك التحول إلى طابع عمارة القرن الحادي والعشرين الحديث بعد صعود درجات المدخل وتجاوز العتبة. لقد دخلت مريم وليلى وزولا كل بيت -تقريبًا- من البيوت الواقعة عند المنعطف: روح صداقة قائمة بين الأسر، لكنها لم تتحول إلى صداقة حقيقية... على الأقل، ليس بالنسبة إلى مريم. لقد تعلّمت في السنوات الماضية (عبر تطبيق استثمرت فيه) كيف تتعرّف على أسماء كل ما في حدائق هذه البيوت من أشجار ونباتات - شجرة

القيقب الياباني بعد بيتين من بيتها، وشجرة الروان إلى الناحية الأخرى من الشارع، واللبلاب الفارسي المتعرش على جدار حديقتها الأمامي، ذلك اللبلاب الذي لم تفكر يومًا في أن له اسمًا غير «لبلاب» فحسب. سألتها زهرة: «لماذا قلت لها إن عليها أن تسير حتى مدخل الحديقة فقط؟».

«لأن ما من كاميرات مراقبة داخل الحديقة».

«مريم ابنة السنوات العشر ما كان ممكنًا أن تصدّق كيف ستكبر وتصير كثيرة القلق هكذا. لن يختطفها أحد».

«قد يقول أحد لها شيئًا، قد يسير على مقربة منها، قد يجعلها تحس ضيقًا».

«عندها، ماذا تفيدها كاميرات المراقبة؟».

«سوف تساعد في معرفة ذلك الشخص، وفي التأكد من أنه لن يحاول فعل ذلك مرة أخرى».

ضحكت زهرة ضحكتها المتعالية، الضحكة التي تقول إنها تفهم العالم بأكثر مما تفهمه مريم.

«أؤكد لك بأن الشرطة لن تبحث في ما سجلته كاميرات المراقبة كي تعثر على الشخص الذي يجعل طفلة سوداء تشعر بالضيق في شارع من شوارع لندن».

أجابت مريم: «سوف أقنعهم». لكنها قالتها بلهجة أقل يقينًا مما أرادت. في هذا البلد، هي مريم خان، صاحبة المرتبة الثالثة عشرة ضمن قائمة أكبر مئة شركة تكنولوجيا في المملكة المتحدة. مع هذا، هي لا أحد. يا للغرابة! ظلت عيناها متعلّقتين بالنقطة الزرقاء المتجهة صوب الحديقة. لن يكون في ذهن زولا الآن غير قوائم الجرو المخملية وعينيه النديَّتين، وشعورها بالحرية لقدرتها على السير صوب ذلك كلّه بمفردها، واثقة، منطلقة. «ما يلزمنا حقًا هو أن تكون كل كاميرا مراقبة مزوَّدة بتقنية التعرف على الوجوه، لكنك لن تسمحي بحدوث هذا، أليس كذلك؟».

«أظنك تبالغين كثيرًا في تقدير حجم نفوذي».

«يا لهذا الاعتراف!».

«ألا تعرفين كيف قضت المحكمة بأن تكنولوجيا التعرف على الوجوه متحيّزة عنصريًا، وبأن الشرطة تستخدمها استخدامًا غير متناسب؟ لذا، عمدت الحكومة إلى إعادة صوغ سياساتها بحيث تقول إن الشرطة سوف تستخدم تلك التكنولوجيا استخدامًا 'منصفًا، متناسبًا'؛ وهي توسّع الآن نطاق استخدامها. ليس هذا ظريفًا!».

كان ما قالته زهرة من أظرف الأمور التي سمعتها مريم منذ حين من الزمن. لكن من الواضح أن زهرة تعتبر الأمر إساءة شخصية إليها.

قالت زهرة: «إنها عنصرية».

«أتعنين الحكومة؟».

«نعم، بما أنك قلت ذلك. لكني عنيت الكاميرات. لا تستطيع التفريق بين شخص أسود وشخص أسود آخر. أهكذا تريدين أن يصير العالم كي تظل ابنتك آمنة؟».

في ما مضى، قالت زهرة عندما أشارت لها مريم إلى اللبلاب الفارسي: «هل يبدو أكثر كسلًا من اللبلاب الإنكليزي. ما رأيك؟». كان من الصعب معرفة ما إن كانت هذه نكتة أم تعبيرًا عن تصميم زهرة على رؤية العنصرية في كل مكان في إنكلترا، حتى في أسماء النباتات.

توقفت النقطة الزرقاء على الشاشة. اشتدت قبضة مريم على الهاتف. تحركت النقطة الزرقاء. إنها تلك الفترة من الربيع حيت تزهر الماغنوليا ويزهر الكرز. لعل زولا توقفت لحظة أمام الأزهار الوردية والبيضاء التي تكون كأنها تهِمّ بأن تثب إليك وثبًا عندما تكون مارًا ببعض البيوت.

«خلافًا للبشر، يمكن تطوير التكنولوجيا وتحسينها. إن مزية التعرف على الوجوه في تطبيق Imij لا تميز بحسب العرق».... أو، على الأقل، لا تميز بالقدر الذي نراه في غيرها من برمجيات التعرف على الوجوه.

«هذا إن لم نقل شيئًا عن أثر المراقبة الدائمة على المجتمع».

«المراقبة موجودة أصلًا. أعيدت تسميتها فقط». لوَّحت بهاتفها أمام

زهرة... «هل تعرفين نسبة مستخدمي تطبيق Imij ممن يستخدمون تقنية التعرف على الوجوه؟».

«إنهم يستخدمونها كي يتعرّف أصدقاؤهم على وجوههم. هذا أمر مختلف عن أن تراقبك الشرطة طيلة الوقت لأنك ناشطة بيئية أو لأنك ممن يذهبون إلى المسجد».

«أنت لم تستخدمي أي وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي منذ نحو عشر سنين، أليس هذا صحيحًا؟ منذ زمن بعيد، يتخلى الناس عن الأصدقاء ويفضلون عليهم المتابعين».

«لا بأس... قد نبالغ أحيانًا في تقدير الأصدقاء».

ضحكت مريم مسرورة برؤية مديرة مركز الحقوق المدنية تختفي وتحل محلها زهرة من جديد. «إذًا، أي شيء كانه ذلك؟ تلك النظرة عندما سألتك زولا عن شركائك الجنسيين، ألديك أحد؟».

قالت زهرة: «لا». ثم أضافت: «شخص فقط في زاوية عيني. أمر لا يستحق حتى أن نتكلّم فيه».

«منذ متى صرت لا تتكلمين إلا في الأمور التي تستحق الكلام؟».

لكن زهرة لم تكن لتقبل هذا الاستدراج. أصرت على أن الأمر ليس شيئًا مهمًا. «لحظة غزل منذ أسابيع، هذا كل شيء».

سألتها مريم: «أهو من النوع المعتاد؟».

رفعت زهرة كتفيها.

قالت مريم: «زهرة!».

قالت زهرة: «مريم!».

أربعون سنة من الصداقة اختصرت الحديث كله إلى هاتين الكلمتين.

***

شقّة زهرة مطلّة على شجرة كبيرة من أشجار الصفصاف الباكي، تسمح لها بأن تستلقي في السرير أو تقرأ على الـ«شيزلونغ» في غرفة المعيشة وتتخيل حديقةً في الخارج، أو حتى جدولًا. في الحقيقة، شجرة

الصفصاف الباكي تقف عند نقطة تلاقي ستة شوارع في منطقة من مناطق شمال لندن غير متّسمة بأي جمال. هذا بيتها منذ أكثر من عشر سنين. وقد فضلته على خيارات أكثر جمالًا بسبب هذه الشجرة تحديدًا. لقد عاشت طفولتها على مقربة من البحر وتعلمت كيف تكون مسَرّة العيش في مدينة سريعة الحركة مع نافذة ينظر المرء منها إلى مشهد نضِر يسمح للعين بأن تستريح.

استقرّت على الـ«شيزلونغ» ذي اللونين الأخضر والذهبي، ثم أضاءت المصباح الأرضي. هذا موضع القراءة في مواجهة النافذة، لا في مواجهة جهاز التلفزيون. رف كتب في متناول اليد. مع أنها تقرأ معظم الأشياء على الشاشة... حتى أكثر مما تحب الإقرار به. اهتز هاتفها معلنًا وصول رسالة جديدة –السيدة داس في الطابق الثالث تطلب منها أن تنزل لتناول العشاء مثلما تفعل دائمًا في الأمسيات النادرة التي تسمع فيها صوت حركة زهرة فوقها، مع اقتراب وقت عشاء أسرة داس عند السابعة والنصف. تعلم أنهم يظنونها تعاني الوحدة. صحيح أن هذا يضايقها غالبًا نتيجة ما فيه من افتراضات مسبقة في شأن حياة العزوبية، لكنها ترى في سلوك الزوجين داس صدى إخلاص كل من والدَيها للآخر، وتدرك أن هذا يعكس مقدار ما يمكن أن يحسّه واحدهما من ضياع من غير الآخر. تقبل الدعوة معظم الأحيان؛ لكن هذه الأمسية كانت واحدة من الأمسيات التي لا يغريها فيها شيء في العالم كله أكثر من الجلوس في بيتها رافعة قدميها والاستماع إلى موسيقاها المفضلة عبر مكبّرات الصوت، في حين تغلي صلصة الطماطم الحارة غليانًا هادئًا على الموقد. شكرت السيدة داس وقالت لها إنها تناولت طعام العشاء – من شأن أي عذر آخر مثل التعب وكثرة المشاغل أن يجعل السيد داس يصعد إليها حاملًا طبقًا من الطعام. بعد أن استخدمت تطبيق المراسلة، راحت تستعرض الرسائل من غير أن تفكّر في ما تفعله، أو في سبب ما تفعله. وصلت إلى حوار دار قبل عدة أسابيع.

[هل كانت تلك الـ«واو» غير لائقة؟]

[نعم]

[أعتذر، فلنحاول الأمر مرة أخرى: احترامي يا مدام؛ تحياتي]

[كلمة مدام تجعلني كأنني أدير بيت دعارة]

[أيتها الإلهة المحترمة]

[إيموجي بعينين كلهما دهشة]

[والآن، بما أنك تعيشين في لندن، هل تواصلين ارتداء الساري الأحمر]

[لا]

[هذه جريمة ضد الإنسانية. فساتين حمراء؟ بيكيني؟]

[أهذا غير لائق أيضًا؟ همممم! لعلك صرتِ حقًا امرأة ناضجة شديدة الاهتمام باللياقة. مؤسف!].

الآن، صارت تنتقل تلقائيًا من الرسائل إلى صورة البروفايل. وعبر الشبكة الافتراضية الخاصة التي تبقى تعمل دائمًا، تنتقل إلى موقع تطبيق «Imij» حيث رفضت اقتراح تحميل التطبيق على هاتفها وظلت تستخدمه من غير تسجيل اسمها. إنه متزوج. علمت هذا منذ عثورها على بروفايله من خلال صفحة صبا، ومنها إلى صفحة شقيقها، ثم إلى صفحة حمد. زوجته أصغر منه كثيرًا، متزينة، تسريحة شعرها متقنة، تقف دائمًا أمام الكاميرا مبتسمة الابتسامة نفسها: ذقن مرفوعة وجنتان مسطحتان ورأس مائل. في صورهما معًا، تستقر يده على ردفها، كأنه يملكها، وهي مائلة صوبه. في كل صورة، اليد نفسها على ردف الزوجة، وذلك المَيْل نفسه. ما ينشره يكاد يكون غير متميز عما ينشره عدد من الرجال الذين تعرفهم من أيام المدرسة - حياة مهاجر يعمل في القطاع المالي ولا يكاد يتواصل مع أحد من غير الباكستانيين. يسافر إلى بلدان أخرى كي يحضر مباريات الكريكيت؛ ولا يكاد يظهر إلا مع زجاجة نبيذ أو كأس ويسكي في يده... وسيجار أحيانًا. حمد في منتجع على شاطئ البحر. حمد في بار على

سطح مبنى. حمد في فيرساي. لديه ولدان أيضًا، رجلان كبيران يظهران أحيانًا. من الواضح أنهما ليسا من زوجته الحالية. لديه منشور جديد واحد منذ أن تفقدت بروفايله آخر مرة (يوم أمس). إنه مقطع فيديو قصير لحمد يرقص - ذراعان مرفوعتان، وردفان متمايلان. يبدو ردفاه كأنهما يتحركان مستقلين عن جسده. قميص أسود مزرّر من الأعلى إلى الأسفل، وجينز أزرق هو، من الناحية العملية، لباس موحد لنوع معين من رجال كراتشي... غير جذاب على الإطلاق. مقطع الفيديو يتكرّر مرة بعد مرة. رشفت من نبيذها وجلست تنظر إليه. مارفين غايي يغني.

ملأت رائحة الطماطم والفلفل والحبق الغرفة كلها. نهضت واقفة ومضت إلى المطبخ كي تضع الباستا في الماء الذي يغلي.

لقد بلغت سنًا كفَّت معه عن الاهتمام بسؤال «لماذا» فيما يتصل بشخصيتها. على النقيض من هذا، ضيّعت شطرًا كبيرًا من سنواتها الجامعية ومن أوائل العشرينيات في محاولة شق طريقها، بالتفكير أو بالكلام، بعيدًا عن رغباتها. شخّصت ليلى، التي كانت أقرب صديقاتها في جامعة أكسفورد هذه المشكلة منذ وقت مبكر. من حيث العلاقة بالرجال، هناك زهرتان اثنتان. زهرة اللائقة، وزهرة صاحبة الأهواء. كانت زهرة اللائقة تخرج مع السريلانكي الذي درس الرياضيات، وكان يقلي لها فطائر الأرز في الصباح. وكانت زهرة صاحبة الأهواء تخونه مع مدرّس القانون. كانت زهرة اللائقة تلتقي أصدقاء أصدقائها في الرحلات، وتخرج لتناول العشاء ومشاهدة الأفلام قبل أن تقرر إن كانت ستتقدّم خطوة إلى ما هو أكثر من ذلك. وكانت زهرة صاحبة الأهواء، تمارس الجنس في حمامات النوادي الليلة مع رجال لا تسألهم عن أسمائهم أبدًا.

أخرجت من الفرن مكعَّبات الباذنجان التي احمرّت ووضعتها في الصلصة. لا يمكن الآن أن تتخيل نفسها تفعل ذلك... الجنس في حمّامات النوادي الليلية. ليس عدم معرفة أسمائهم هو ما يمنعها من ذلك، بل بشاعة المكان. هكذا تعرف أنك لم تعد في سن الشباب: يصير اهتمامك

بالتفاصيل الصغيرة أكثر من اهتمامك بالمتعة. شريحة جبن البارميزان هذه؛ ألا تزال صالحة للأكل؟

جاء توم لينوكس عندما كانت في الرابعة والعشرين. كان أول الأمر نزوة: رجل في الأربعين يعيش مع صديقته منذ زمن بعيد. وما إن ترك صديقته -تركها بسرعة كبيرة- واعتاد الجميع فارق العمر بينه وبين زهرة، حتى صار واضحًا أنه مناسب لها تمامًا. كان رأي مريم أنه «يحقق الشروط كلها». بل إن والدها كان موافقًا أيضًا. أحبته كثيرًا على امتداد سنوات كثيرة. أمر لطيف تتذكره حتى الآن. سارت الأمور بينهما على أحسن ما يرام وظلت كذلك فترة معقولة. ظلا منسجمَيْن حينًا من الزمن ثم صارا غير منسجمين. لا تزال تفكر فيه بقدر من العاطفة. يتكلّمان كل سنة في يوم لقائهما الأول فتجعلها المشاعر الحلوة بينهما سعيدة بأنها امتنعت مرتين عن بدء علاقة جديدة تريد منها رؤية إن كانت تستطيع أن تريحها من شعورها بالأسر، ذلك الشعور الذي جعلها الزواج تعيشه. ثم أدركت أنها لا تريد أن تكون متزوجة من أي شخص. مع هذا الإدراك، اختفت زهرة اللائقة.

الباستا تحتاج إلى تسع دقائق بعد. عادت إلى غرفة المعيشة حيث كان هاتفها على الطاولة الصغيرة المصنوعة من جذع شجرة. مسّت الشاشة فظهر حمد يهز ردفيه، ظهر من جديد.

توقّفت منذ زمن بعيد عن طرح سؤال «لماذا»، لأنها ما عادت تسمح للعالم بأن يقول لها ما يصح أن تكون المرأة راغبة فيه، وما لا يصح. تحوّل السؤال إلى السلامة والأمان - السلامة الجسدية، وسلامة السمعة. هذا ما جعلها تظل بعيدة عن تطبيقات الهاتف - يكفي تخيُّل أن تعثر الصحف التافهة على بروفايلها أو تخيُّل واحد من الرجال يرسل إليها تهديدات بالقتل أو الاغتصاب! في مقدورها أن تفكر في الاغتصاب بطريقة غير انفعالية لأنها درَّبت نفسها أن تظل بعيدة عن المواضع التي تفصح فيها التهديدات عن نفسها. منذ زمن بعيد تلاشى الشعور بالحاجة إلى أن تكتب اسمها في شريط البحث. لا تثقل التهديدات على نفسها كثيرًا إن ظلت

مرئية؛ بدلًا من ذلك، تصير طبقة واحدة من طبقات الخوف. الملتصق بها، الخوف الذي يحدّد كونها امرأة، الخوف الذي اعتادته تمامًا فما عادت تفكر فيه، أكثر الأيام. ذات مرة، دعته مريم «ذعر الفتيات».

أغلقت مقطع الفيديو وعادت إلى واجهة هاتفها. فتشت قوائم الأغاني كي تستمع إلى كريس إيزاك يغني «ويكِد غيم»، أغنية تعيدها دائمًا إلى شاطئ كراتشي في الليل: بدر مكتمل، ورمل لطيف البرودة تحت قدميها، وشفتا بابار الدافئتان عندما قبّلها بعيدًا عن أنظار الآخرين. أبقت عينيها مغمضتين وتخيلت شخصًا أقل أمانًا من الفتى الذي يطمئن أهلها إلى وجودها معه. الآن، بعينين مفتوحتين، نقرت على الصورة من جديد، ثم كبّرتها. لقد عرفت رجالًا من أمثال حمد وترعرعت مع كثيرين منهم، وواصلت لقاءهم من خلال مريم التي ظلت محافظة على علاقات أيام الطفولة. كان شخصًا سطحيًا تافهًا؛ وكان هذا واضحًا في كل شيء. لعله قاس، ولعله فاسد، فلماذا التظاهر بأن التفاهة قد تكون أسوأ صفاته؟ لكن تلكَ اليد على ردف زوجته، وكيف تميل صوبه، وذلك الكمال الظاهر في الصورة كلها - إنه يحتفظ بعلاقاته الغرامية سرًا، ويمهد للأمر مع نساء في بلاد بعيدة قد يزورها أو يذهب للعمل فيها بضعة أيام في السنة. وعندما يزلّ لسانه، تتظاهر زوجته بأنها لا تدرك شيئًا. تذكّرت زهرة يده على جذعها... أول لمسة جنسية في حياتها... فارتعشت: صارت الذكرى ترقبًا.

ظهرت كلمة «مريم» في وعيها فدفعتها جانبًا. كان ذلك منذ ثلاثين سنة؛ وهي غير راغبة أصلًا في معرفة أي شيء.

كتبت له: *للتاريخ فقط، كنتُ على الدوام لائقة!*

إنه منتصف الليل في سنغافورة. تناولت عشاءها، ثم تابعت حلقتين من مسلسل «*نداء الواجب*»، وأمضت بعض الوقت في التراسل مع مجموعة اسمها «كيبينغ إت ريَل»، مكوّنة من أربع صديقات لم تكن أي منهما تعرف الأخريات قبل عشر سنين، لكنهن صرن الآن في حديث يومي عن نجاحاتهن ومنغّصاتهن، وكذلك عن البرامج التلفزيونية التي تتابعنها وعن

أشخاص في وسائل التواصل الاجتماعي صاروا موضع ازدرائهن لسلوكهم الساعي إلى استقطاب الانتباه مع تنكره على هيئة اهتمامات سياسية نافعة (بالنسبة إليها، صارت هذه المجموعة من النساء «فلتر» وسائل التواصل الاجتماعي إذ ترسلن إليها لقطات عن أي شيء يبدو طريفًا، أو مزعجًا، أو تبدو المعرفة بوجوده ضروريًا). أخبرتهن أنها تتبادل الرسائل النصية مع رجل تعرفه منذ زمن بعيد، فأشدن بعودة تلك الارتعاشات إلى حياتها. قالت إحداهن إنها معجبة بقدرة زهرة على إبقاء العلاقات الجنسية في زاوية صغيرة والمواصلة في كل أمر غيرها. قالت أخرى إنها تشكر الله على أن لدى زهرة هذه «الورطات» السرية، فلولاها لكانت «معصومة» إلى حد يصعب احتماله. وقالت ثالثتهن (روز التي تعمل مع زهرة): نحن *نتراسل عبر تطبيق محمي من التطفّل، أليس كذلك؟* كانت تقرأ في فراشها عندما أضاءت شاشة هاتفها.

[كنت أتابعك على الإنترنت]

[شيء مخيف]

[إنني أتحسّن. تعلمت الكثير عن مساوئ البطاقات الشخصية].

ابتسمت بعد قراءة تلك الجملة. في الآونة الأخيرة، كانت المتحدّثة الأولى في مؤتمر لحقوق الإنسان في بلفاست حيث تحدّثت عن الآثار الواقعة على الحريات المدنية نتيجة اعتزام الحكومة اعتماد بطاقات شخصية. كانت ترتدي بنطلونًا وسترة، وكان قسم كبير منها محجوبًا خلف المنصة. بينما كان يتابعها كانت تنظر إليه وهو على أحد الشواطئ مرتديًا قميصًا غير مزرر.

[يسرني أن أقدم معلومات في مجال الحقوق المدنية]

[وماذا أستطيع أن أقدم لكِ؟]

[لا أجد شيئًا تقدمه لي]

[بل كنت تفكرين في شيء. أخبريني بم كنت تفكرين؟]

[تصبح على خير، يا حمد]
[تصبحين على خير، يا إلهة].

***

تنفتح بوابة معدنية طويلة في شارع عادي جدًا في كينغ كروس على فناء مرصوف بالحجارة فيه مبنى يبدو شبيهًا بحاويتَيّ شحن، مصنوع أكثره من زجاج، موضوعة واحدة فوق أخرى. هذا هو مقر شركة «فينتشر فيرذر»: صالات اجتماعات، وغرف اجتماعات أصغر حجمًا في الطابق السفلي، ومكاتب الشركاء الثلاثة وسبعة موظفين آخرين في الطابق العلوي. مكان لوقوف الدراجات، وطاولة بينغ بونج، وطاولات خشبية خشنة لتناول القهوة وتبادل الأحاديث في الفناء: مشهد يخلق انطباعًا بأنها شركة فتية، حيوية، منفتحة على الأفكار.

بعض الأحيان، يكون الأمر هكذا تمامًا حتى إن لم يتوفر أبدًا وقت لمجرد حديث عابر في الفناء. تقوم الشركة بتمويل الشركات الناشئة حديثًا، ولا تحب مريم شيئًا أكثر من الطاقة والتفاؤل اللذين يأتيان مع بدايات العمل... الأفكار المتلألئة التي تنتظر أن يمضي أصحابها بها صوب تحقيق مقدّراتها. في بقية الأيام، وهذا اليوم واحدٌ من بقية الأيام، يستطيع المرء أن يبدأ نهاره بفشله في إقناع شركائه المستثمرين بدخول جولة جديدة من التمويل من أجل أمر يشكو خللًا، لكنه قابل للإصلاح، ثم ينتقل إلى إخراج المؤسس/ المدير التنفيذي الشاب من شركته (مع الإشارة إلى أنها ليست ملكًا له في حقيقة الأمر). هذا ما يكون عليها أن تلفت النظر إليه في اجتماع بشع تشوبه الدموع. فالمستثمرون هم مالكو المشروع؛ وإذا استمر فشل المؤسس/ المدير التنفيذي التام في الإصغاء إلى نصائحهم التي تتيح له أن يحقق نجاحًا، فإن مريم وأعضاء مجلس الإدارة الآخرين يستطيعون إخراجه من المعادلة كي يروا ما يمكن استخلاصه من منفعة من حطام أحلامه. عندها، لا بد من أن يشتمها شتيمة مقذعة عند خروجه.

على الأقل، ظهرت الشمس أخيرًا، وصار في مستطاعها أن تعقد

اجتماعها التالي من حول طاولة في الفناء، وأن تشرب القهوة من آلة القهوة المعقدة التي لا يعرف أحد غير مدير المكتب كيفية تشغيلها.

لقد قال لها «الفتى الذهبي» إن الفتيات البدينات لا يبقين طويلًا في صدارة الأنباء. لكنه لم يدخل في حسابه والد الفتاة صاحب «الجلد الأسمر والأهداب الطويلة»، كما وصفه كاتب في إحدى الصحف، ولم يدخل في حسابه ما يوحي به مظهر ذلك الرجل من لياقة تشبه ما لدى حبيب علي. إن الإشارات العرضية في قطاعات الإعلام كلها حول الأثر التخريبي الذي تمارسه وسائل التواصل الاجتماعي على الأطفال، قد وجدت وجهًا وصوتاً في ذلك الطبيب النفسي البريطاني/ الباكستاني الذي يطنب في الكلام على الأذى الذي أصاب ابنته، وعلى غضبه ممن يسمحون بحدوث ذلك، وعلى خوفه على الفتيات والفتيان الصغار جميعًا ممن يصيبهم هذا الأذى الآن. كان يبدو كأنه موجود في كل مكان - «الغارديان»، و«غود مورينغ بريتن»، و«ديلي ميل»، و«ممزنت»، و«دال دم». من المنتظر أن تجري معه صحيفة «توداي» مقابلة صباح يوم غد؛ وثمة شائعات تقول إنه سيحوّل تركيزه من مطالبة شركات وسائل التواصل الاجتماعي عامة بأن «تحسّن أداءها»، إلى دعوة الحكومة إلى إدخال نص في «قانون سلامة الإنترنت» الآتي، يجعل رؤساء شركات التكنولوجيا مسؤولين عن نتائج الكراهية والتنمّر، اللذين يسمحون بتناميهما في تطبيقاتهم. فوق هذا، يجري تداول عبارة «اتهامات جنائية». وقد صيغت بالفعل عريضة باسم ابنته تطالب بتدخل الحكومة. لكن العرائض لا تُقلق مريم، بل يقلقها الرجال ذوي المظهر اللائق المحترم ممن يحسنون الكلام، أولئك الذين تحتفي بهم القطاعات الإعلامية اليسارية واليمينية على حد سواء. لقد أطلقت عليه صحيفة «مترو» اسم: الأب الأفضل في البلاد.

لقد قال لها من يُنتظر أن يشتري Imij أن «تُسكته». وقال الأمر نفسه أصحاب رأس المال المغامر الذين استثمروا في شركات تواصل اجتماعي أخرى، ومن بينهم شركاؤها.

دخل الفناء الرجل الذي كانت في انتظاره بعد مضي إحدى عشرة دقيقة على موعده، فبدا «فتى ذهبيًا» حقًا بفعل جلده الذي لوّحته الشمس في الآونة الأخيرة.

قال لها: «هذه الإزعاجات كلها تثير اضطراب أمعائي»، ثم حيّاها بأن رفع زجاجة كانت في يده. أضاف بعد ذلك: «إنه كفير»، وقدم الزجاجة إليها بعد أن تناول رشفة من فوهتها مباشرة.

قالت مريم: «ليس لدي وقت». ظلت نبرة صوتها معتدلة حتى يفهم أنها غير مبالية بحركاته الاستعراضية.

قال بنبرة أسف جدير بتلميذ مدرسة: «آسف، آسف!». لقد كانت مريم أول المستثمرين لديه، وأول من آمن بما رأى أن تطبيق «Imij» قادر عليه. نتيجة هذا، كان يتعامل معها بلباقة، بل بنوع من التوقير أحيانًا... لا يبدي شيئًا من هذا إزاء غيرها.

سألته: «هل كررتَ محاولة ترتيب لقاء معه؟».

«لا يزال مصرًا على أنه لن يكلمنا إلا بعد أن نرسل إليه خطة لا من أجل تغيير سياساتنا الخاصة بالتنمّر فحسب، بل من أجل تغيير خوارزمياتنا أيضًا».

في هذا كله، كانت الخوارزميات هي «القرش الكامن تحت الماء». لقد بدأت ابنة الرجل -اسمها طاهرة- ترى منشورات تحض على أذية النفس بعد الانتشار الواسع لصورة «الفتاة/ الخنزير». وعلى وجه السرعة، كما يزعم والدها، صارت تأتيها كميات كبيرة من منشورات تشبه ذلك، مما أساء كثيرًا إلى حالتها. لحسن الحظ، لا يمكن إثبات الكثير في ما يخص خوارزميات «Imij». كما أن معظم وسائل الإعلام يواصل التركيز على «التنمر»، في الوقت الراهن على أقل تقدير.

«ما الذي يريد منا فعله؟ هل يريد تخريب روحية *'اعط الناس مزيدًا مما يريدون'* التي هي روحية الإنترنت؟ هذا ليس أمرًا ديمقراطيًا». كان يكلمها من غير أن ينظر إليها لأن أصابعه ظلت تتحرك على شاشة هاتفه.

«آمل ألّا تكون هذه هي الاستراتيجية المقترحة التي أتيتَ كي تحدثني عنها». لوّحت بفنجان القهوة صوب مدير المكتب الذي كان ينقر على النافذة في الطابق العلوي كي ينبهها إلى أن لديها اجتماعًا عبر الإنترنت يبدأ بعد بضع دقائق. أرادت أن يفهم من حركتها أنها ستصعد عما قريب وأنها في حاجة إلى فنجان آخر من القهوة.

ابتسم عندما ناولها هاتفه. رأت في تعبير وجهه شيئًا من صديقتها القديمة صبا -فرحة معرفة سر مزعج- نظرت إلى شاشة الهاتف.

ها هو هنا، «الأب الأفضل في البلاد». إنه يجلس إلى طاولة خشبية شديدة الشبه بالطاولات التي في هذا الفناء، ملتصق بامرأة نحاسية الشعر، ليست زوجته التي ظهرت على الصفحات الأولى في الصحف. كفها على وجهه، وفمه مضغوط على راحتها.

قال الفتى الذهبي مزهوًا بنفسه: «كان هذا بعد يوم واحد من خروج ابنته من المستشفى. تخيلي... هي في البيت وضمادات على رسغيها، وهو في الخارج يفعل هذا».

«هل الصورة حقيقية؟».

«يا إلهي، نعم، بالطبع! أنا لست غبيًا».

«هل هي مأخوذة من Imij؟».

أتى الفتى الذهبي بحركة غامضة من رأسه انتهت إلى إيماءة بالإيجاب.

«وكيف عثرت عليها؟ أظنه لم يضعها على صفحته». كان لدى «الأب الأفضل في البلاد» حساب Imij خاص به. لكنه حذف كل ما كان قد نشره من صور -أكثرها صور زهور- ووضع مكانها عبارة على خلفية سوداء. تقول العبارة «#العدالة لطاهرة# التغيير الآن».

قال الفتى الذهبي: «لا تفحصي أسنان الحصان الذي يأتيك هدية».

«بعض الأحيان، يكون الحصان الذي يأتيك هدية هو حصان طروادة. وإذا نظرت في فمه، سوف ترى جنودًا مختبئين فيه مستعدين لأن يحزّوا حنجرتك وأنت نائم في الليل».

«لن يعرف أحد بالأمر أبدًا».

هذا صحيح بالتأكيد، تقريبًا. أي شخص لديه حساب Imij -أو أي شخص يدخل التطبيق من غير أن يكون مسجلًا فيه- يستطيع الحصول على صورة في حساب مفتوح وأن يقرر لفت الأنظار إليها. لن يكون هناك شيء يربط الأمر بتقنية التعرف على الوجوه في Imij، تلك التقنية التي تزعم أنها تتيح للمستخدمين تحكّمًا تامًا بمن يستطيع التعرف على وجوههم، فهذه المزيّة غير مفعّلة إلا لدى من اختاروا استخدام مزية التعرف على الوجوه. هي، بكل تأكيد، لا تمنح المدير التنفيذي في Imij أية سلطات للتعرف على الوجوه إلا ضمن نطاق حسابه الشخصي.

قالت للفتى الذهبي: «يا لك من ذكي». كان مزهوًا بهذا المديح. من الممكن أن يكون ميالًا إليها. اكتسب تقديم زجاجة الكفير إليها، من فمه إلى فمها، ظلًا جديدًا من المعنى... «دعني أرى! سيكون الأمر سرًا بيننا».

ابتسم لها مسرورًا. الرجال من أمثاله يحبّون دائمًا استعراض الألعاب التي صنعوها.

فتح تطبيق Imij، وكتب في نافذة البحث اسم «koffeekraave@»، ثم بحث عن صورة رجل - رجل ياباني أكبر سنًا، يبتسم للكاميرا ابتسامة رسمية. الرجل جالس في مقهى وعلى الجدار من خلفه قائمة المواد مكتوبة بالطباشير ظاهرة من فوق رأسه. قال التطبيق إنه جد «koffeekraave@». جلس الفتى الذهبي يراقبها وهي تنظر إلى الصورة. كبّرت زهرة الصورة ونظرة إلى زاويتها. من خلف كتف الرجل، رأت رجلًا وامرأة جالسَيْن إلى طاولة في الناحية القصية من المقهى: ضبطتهما اللقطة في لحظة حميمة.

قالت له وهي تشير لمدير المكتب المقترب منهما حاملًا فنجان قهوة بأن يبتعد قليلًا: «يا لها من مزية استثنائية، مزية التعرف على الوجوه».

ابتسم الفتى الذهبي، ولوَّح بيده كأنه يغلق ستارة. أراد القول إن هذا سيضع نهاية للأمر كله.

سألها: «إذًا، ما الخطوات اللاحقة؟».

نقلت الصورة من هاتفه إلى هاتفها. نهضت واقفة وقالت: «سأهتم بالأمر».

نقرت على ساعتها فقال لها إنه يدرك أن لديها موعدًا، ثم اعتذر من جديد لأنه وصل متأخرًا. بلغت مدخل «فنتشر فيرذر»، فالتفتت صوب الفناء ورأته جالسًا على واحدة من طاولات البنج بونج يشرب من زجاجة الكفير، مباعدًا بين ساقيه ومن خلفه سماء شهر أبريل الزرقاء. سيد الكون. لم يعرف وجهه يومًا، ولن يعرف الآن، أي شيء يشبه تعبير الرجل والمرأة في تلك الصورة في المقهى. منفتحَيْن، غير منتبَهْين إلى شيء، مستسلمَيْن إلى وهم الأمان لشدة تأجج المشاعر بينهما... مشاعر جعلت كل شيء عداها يختفي ويغيب.

لقد كان العالم مثلما علمها جدها دائمًا. عالمٌ فظيعٌ، قاس، لا يرحم. لكنها كانت أيضًا قد أدركت حقيقة نابعة من ذلك، حقيقةٌ لم يفلح جدها في إدراكها: تمسّكْ بمن تحبهم، واحمهم! ما من مصدر آخر للنور في حياتك.

***

في السنة الماضية، وعلى غير انتظار، أعلنت أواسط العمر وصولها على هيئة كلمات غير واضحة عند القراءة، وعلى هيئة ألم ظهر استقر عميقًا ولم يرد أن يذهب عنها إلى أن تولى طبيب العظام أداء شيء من سحره. هكذا، أضيفت إلى مكتب زهرة نظّارة للقراءة، وكرة للتمرينات الرياضية، وكرسي لمعالجة العظام كانت غالية الثمن إلى حد غريب. نزعت النظارة عن وجهها، ونهضت عن الكرسي، وأخرجت الكرة من تحت المكتب، ثم راحت «تتأرجح» عليها صعودًا وهبوطًا كي تمطّط عمودها الفقري وتجهد عضلات وسطها. كانت المنحوتة التي صنعتها ليلى من السيراميك تنظر إليها من رف الكتب القريب من الباب - امرأة عجوز ممتلئة خسر جسدها العاري معركته مع الجاذبية الأرضية، فجلست واضعة يديها على ركبتيها، وضحكت قاذفة برأسها إلى الخلف. قالت زهرة وهي تنهض عن الكرة:

«أنت محققة، فهذا سخف». أسدلت الستارة على اللوح الأبيض الذي يشغل جدارًا طويلًا من جدران مكتبها، ورفعت ستائر النوافذ الممتدة من الأرض إلى السقف ومن خلفها سوق في الشارع صاخبة لكثرة ما فيها من زبائن وقت الغداء الآتين من المناطق القريبة.

موظفو المكاتب مصطفون أمام الأكشاك المقامة تحت خيمة زرقاء. يغيّر وجودهم طبيعة الشارع مدة ساعتين من بعد ظهر كل يوم. أعمال نشطة مزدهرة لطبق البايلا الإسباني وطبق اللحم الهندي بالكاري. مع هذا، ما إن يأتي الصيف حتى تسيطر على المشهد سندويتشات بأنواع مختلفة من الخبز - إسباني ومكسيكي ولبناني. هذا إن أتى الصيف. ثمة سنين يبدو فيها كأن الصيف ينسى لندن ويتجاوزها تمامًا. الأمر حقيقي. مع هذا، فهي تحب طقس هذه المدينة، وتحب تقلباته. مدهش كم استطاعت هذه المدينة أن تتسلّل إلى قلبها. بعض الأيام، يجعلها ضياءٌ ذو طبيعة خاصة تحبس أنفاسها وتقول في نفسها «أبريل» أو «يوليو» أو «أكتوبر»، أو أي شهر آخر يبدو فيه الضياء مثلما لا يبدو في أي شهر آخر، أو في أي مكان آخر من العالم. في هذه اللحظة، كان ضياء بعد الظهيرة ناعمًا. كثيرًا ما كانت تقرأ عن هذا الضياء في الكتب أثناء نشأتها، لكنها لم تفهم معناه إلى أن أتت إلى إنكلترا. تعبير «ضياء ناعم» ليس مما تستطيع التفكير في استخدامه عند كلامك عن ضياء بعد الظهيرة في كراتشي الذي يغطي طيف الصفات كله، من ساطع إلى قاس.

دخلت روز غرفة المكتب بخطواتها السريعة المعتادة. قالت: «هل سمعت بشيء اسمه 'المجلس الأعلى'؟». كانت روز رئيسة المكتب القانوني في الشركة. إنها الشخص الذي تكلمه زهرة عندما يحدث في العالم أمر مريع، ويكون من المهم جدًا أن تتكلّم مع شخص يستجيب استجابة عاطفية متفقة مع استجابتها اتفاقًا تامًا. لقد كانت نشأة روز في بوغنور ريغيز بعيدة أشد البعد عن طفولة زهرة في كراتشي؛ لكن صداقتهما كانت من تلك الصداقات التي لا يستطيع العالم الخارجي فهمها جيدًا.

«أهذا هجوم آخر على ما أفعله في أكسبريدج؟».

«لا. كل ما في الأمر أنني تناولت الطعام مع كلير». كانت كلير صديقة مشتركة للاثنين. إنها صحافية استقصائية تعمل لدى «أوبن ديموكراسي»، «إنه نادي تبرّع نخبوي لدى الحزب الذي لا ينفك يتخلى عن أيّ حياء. ضعي في خزائنهم مئتي ألف باوند وفوزي بمستوى غير مسبوق من القدرة على النفاذ إلى دوائر الحكومة».

قالت زهرة وهي تركل كرة التمرينات الرياضية في اتجاه روز، التي حوّلت مسارها فصارت تحت المكتب بمهارة، آتية من عطلات نهاية الأسبوع التي تمضيها في لعب كرة القدم مع نساء في مثل نصف سنّها: «إنهم عديمو الحياء فعلًا. مَن الأغبياء الذين يمكن أن يعطوهم مئتي ألف باوند؟».

رفعت روز يديها صوب السقف: «المفاجئ في الأمر أنهم يتلكأون في الإعلان عن التبرعات التي تأتيهم».

«يا إلهي! أمر محبط». لقد رأت أربعة رؤساء حكومة يأتون ويذهبون خلال فترة ترؤسها مركز الحريات المدنية. ومع كل تغيّر في الإدارة، كانت تضغط مع فريقها من أجل تغييرات في القوانين... حتى عندما تكون للحزب الحاكم أغلبية برلمانية، يظل هناك متمردون، أو نواب مستقلون يصعب ترويضهم، أو نواب يقدّمون الحريات المدنية على ولائهم لحزبهم. لقد كان إفشال مشروع قانون بيانات الاتصالات، والتعديلات التي أُدخلت على قانون جرائم الكراهية، وإنهاء «ميثاق سنوبرز»، جزئيًا، انتصارات حققها مركز الحريات المدنية. لقد صارت بريطانيا مكانًا مختلفًا، مكانًا أفضل، نتيجة عمل هذا المكتب. وكان والدها شديد الاعتزاز بها.

لكن طبيعة وستمنستر صارت الآن مختلفة ـ طُرد المتمردون جميعًا من الحزب، ولم يبق فيه غير من هم على انسجام تام مع الحكومة الجديدة ومع شعبيتها الكبيرة جدًا في استطلاعات الرأي. صار من الصعب رؤية متى، أو كيف يمكن لأي نصر جديد أن يتحقق في البرلمان. وأما عن

الانتصارات القانونية، فقد كان واضحًا أن الحكومة تخطط للالتفاف على قرارات المحاكم حيثما تستطيع مع عملها على إعداد تشريع يحدّ من سلطات القضاة.

قالت روز بنفاد صبر من خاض ما يكفيه من المعارك الشخصية والمهنية، فصار مدركًا كم يكون التوق إلى التمسك بالمنصب شديدًا: «كفّي عن التساهل مع نفسك!». تقدّمت صوب طاولة مكتب زهرة وأخرجت من الدرج قطعة بسكويت مغلف بالشوكولاته ثم عادت إلى الممر.

عادت زهرة إلى النظر من النافذة. كانت ترى من حقها أن تستمتع ببضع دقائق مع نفسها. في مؤتمر عُقد الليلة الماضية، طوّرت وزيرة الداخلية عبارتها القائلة إن «زهرة تتخذ صف المجرمين»، فجعلتها «تتخذ صف المجرمين والإرهابيين». كانت هذه إشارة إلى حملة مركز الحريات المدنية ضد القانون الذي صار معروفًا باسم «قانون منع التظاهر». إلا أن ليلى وضعت له اسمًا أكثر لطفًا: «قانون الأمن والأحكام». علمت زهرة من نتف كلام سمعتها في المكتب أن الإساءات عبر الإنترنت عادت إلى التزايد.

كان ثمة ممر واصل بين واحد من الأكشاك الزرقاء والكشك الذي يليه، يستطيع عزّام منه أن يرى نافذتها من مكان عمله في «سكرامي»، الذي هو مخبز يقع إلى الناحية الأخرى من الشارع. رأته يخرج إلى الرصيف ويشير إلى نفسه، ثم يشير إليها، ثم ينقر على ساعته ويرفع إصبعًا واحدًا. أومأت برأسها. نعم، يستطيع أن يأتي كي يراها دقيقة واحدة. كثيرًا ما يأتي عزام إلى مكتب مركز الحقوق المدنية خلال فترة بعد الظهر حاملًا الـ«براونيز» وحلوى الليمون من بقايا الدفعة الصباحية التي لم تُبَع بعد، تلك البقايا التي يصرّ على أنها ستُرمى في القمامة إن لم يأكلها الشعب الإنكليزي – في نظر عزام كان كل من يحمل جواز السفر البريطاني «شعبًا إنكليزيًا»، بما في ذلك زوجته المولودة في كابول، مثل عزام، لكنها أتت إلى لندن عندما كانت طفلة. كان لا يُطيق انتظار أن يصبح من «الشعب الإنكليزي»، هو أيضًا.

سمعته يتكلّم مع راي، موظف الاستقبال، قبل أن يدخل غرفة مكتبها مرتديًا بنطلون الجينز المعتاد وقميصًا قصير الكمين ومئزر الخبّاز. كان شابًا في الثامنة والعشرين ممتلئًا تفاؤلًا واندفاعًا، شخص يذكرك بأفضل لحظاتك في سن الثامنة والعشرين.

قال لها: «شكرًا». ومدّ يده فوق المكتب، ثم فتح أصابعه كاشفًا عن هدية صغيرة مغلفة تغليفًا أنيقًا.

سألته: «على ماذا؟».

«لقد ساعدتِني في إعداد الطلب».

في الآونة الأخيرة، قدّم عزام طلبًا إلى وزارة الداخلية من أجل الحصول على حق الإقامة الدائمة الذي يعتبر الخطوة قبل الأخيرة في الطريق إلى اكتساب الجنسية البريطانية. كانت مسألة تقديم الطلب سهلة لأن أعمال التحقّق المعقّدة جرت عندما كفلته زوجته كي يحصل على فيزا بقصد الزواج. لكن زهرة علمت من راي كم كان عزّام متوترًا في ما يتصل بهذا الطلب، وذلك بعد كل ما قرأه من مقالات عن طلبات رفضتها وزارة الداخلية التي تزايد عداؤها للمهاجرين. لهذا، عرضت عليه أن تراجع أوراقه.

قالت له: «لا حاجة إلى هذا». كان طلبه مكتملًا لا ينقصه شيء، فمازحته قائلة له إن مهاراته المهنية في عمله خبازًا واضحة هنا: الدقة، والعناية بالتفاصيل. قال لها إن هذا ليس نتيجة مهاراته المهنية، بل هو عائد إلى دقة زوجته الصيدلانية واهتمامها بكل شيء. أجابها الآن بصوت أراد به إفهامها أن ما قالته غير معقول، بل غير معقول إلى حد يجعله غير قادر على التفكير في الكلمات المناسبة لدحضه. كانت الهدية سوارًا تتدلى منه حلية على شكل ملاك... حلية فضية، لا طلاء فضيًّا فحسب. لقد رأت البيانات المالية التي قدّمها؛ وهي تعرف أن وضعه لا يسمح له بتقديم هدايا من هذا النوع. إلا أنها قبلت الهدية لأنها لم تستطع إحراجه.

لم يطل بقاؤه عندها أكثر من الدقيقة التي طلبها، فعادت زهرة إلى عملها وبدأت قراءة دراسة وجيزة عن «قانون منع التظاهر» أعدّها فريقها

من أجل تقديمها إلى مجلس اللوردات - كان المجلس غير المنتخَب المكان الوحيد الذي يتيح الأمل بأن تواجه رغبات الحكومة معارضة، أو بأن تُحبط مساعيها: مفارقة يكاد الإنسان لا يطيق التفكير فيها.

[هذه الصورة ذكّرتني بك].

مررت زهرة إصبعها على الرسالة فأزاحتها عن الشاشة حتى من غير أن تنظر إلى الصورة المرفقة التي أرسلها حمد. يعرف أن عليه ألا ينتظر منها ردًا خلال ساعات عملها. هو آخر ما تلتفت إليه في الليل؛ وهي أول ما يلتفت إليه في الصباح. لعل زوجته (التي لم يقل عنها شيئًا) نائمة في فراشها في هذا التوقيت.

كتبت عبارة «التركيز على الحملة؟»، إلى جانب فقرة تقول إن مشروع القانون يستهدف الناشطين البيئيين. ألقى الملاك المتدلي من رسغ يدها ظلًا على الصفحة. حملته بين إبهامها وسبابتها. أحسته ثقيلًا إلى حد غير متوقع.

سمعت صيحة من جهة مكتب الاستقبال... صوتا راي وعزام معًا. نهضت زهرة واقفة ومضت بخطوات واسعة صوب باب مكتبها. لكن الصياح صار الآن آتيًا من الخارج. استدارت وذهبت إلى النافذة ورأت عزام واضعًا ركبته على صدر رجل مستلقٍ على الرصيف. رأته يسدّد لكمة إلى وجه الرجل.

ثم رأت راي يجذب عزام ويطوّقه بذراعيه تطويقًا وثيقًا فيثبت يديه.

جرت زهرة خارجة إلى مكتب الاستقبال. أتتها رائحة ما حدث قبل أن ترى كيس القاذورات حيث سقط وانشق ناثرًا محتوياته على الأرض بين مكتب راي والباب الأمامي. صوت كريه ورائحة مقززة عندما وطأت قدمها تلك المساحة. تابعت طريقها وتجاوزت الباب خارجة إلى الشارع. كانت روز وآلكس (الطالبة المتمرنة) قد سبقتاها بعِدة خطوات.

في الخارج، كان راي قد أفلت عزام الذي نهض واقفًا ووضع راحة يده على مفاصل قبضة يده الأخرى. وضعت روز يدها على كتفه. كان الرجل

الآخر ينهض واقفًا على قدميه، نازف الأنف، ذراعاه خلف ظهره: راي يطبق على رسغ إحدى يديه، وطباخ بنغالي يعمل في الكشك التايلاندي ممسك بيده الأخرى. صف من الرجال - الخبّاز الذي يعمل عنده عزام، والرجل المتحول جنسيًا من المتجر الخيري، وكثير من أصحاب الأكشاك ومحاسبيهم - كانوا كلهم ينظرون إلى ما يجري، عاقدين أذرعهم على صدورهم، متراصين كتفًا لكتف... وقفة كان المراد منها جعل صاحب الأنف النازف يدرك أنهم يتمنون أن يفلت ويهرب حتى يصير في مقدورهم الاستمتاع بضربه من جديد.

«رائحة البراز تفوح منك»... هذا ما قاله صاحب الأنف الذي لا يزال ينزف لزهرة عندما اقتربت منه. كانت رأسه منحنية كي يقطر الدم على الرصيف بدلًا من الانسياب على فمه ثم إلى قميصه. شد راي قبضته على رسغ الرجل فجعله يصرخ ألمًا.

صفارة سيارة شرطة في مكان قريب. قالت آلكس: «إنهم آتون من أجلك».

قال الرجل: «من أجلي أنا؟! سقط الكيس مني مصادفة. وأما صديقك هذا، فهو من ستوجَّه إليه تهمة الاعتداء. أنت، يا طالباني، هل أنت مهاجر شرعي؟».

استدار عزام كي ينظر إليها. لا يستطيع المخاطرة بأن يصدر في حقه حكم قضائي في حين لا يزال طلبه موضع نظر في وزارة الداخلية.

قالت له: «سيكون كل شيء على ما يرام، لا تقلق. أعدك بهذا».

رأت النظرة التي رمتها بها روز - لا تَعِدي، لا تعدي أبدًا! لكن الذعر اختفى من وجه عزام وحلت محله ثقة واضحة. تقدّمت منه فتراجع كل من روز وآلكس خطوة مبتعدين عنها: كانت الرائحة المنبعثة من حذائها فظيعة.

***

قالت زهرة إنها بخير، وإن مريم ليست مضطرة إلى إلغاء أي اجتماعات كي تأتي إليها وتمسك يدها.

سألتها مريم وهي تكتب إلى ليلى رسالة نصية تأمرها فيها بأن تذهب وتأخذ زهرة من المكتب الملوث بالبراز، ذلك المكتب الذي تبدو كأنها مصرة على البقاء فيه: «كيف تركتِه يفلت بعد ما فعل؟».

أجابت زهرة: «عليّ أن أذهب الآن. معي اتصال من ليلى».

بعد انتهاء اجتماعين مع المستثمرين، كان في مجموعة الدردشة المسماة «زملاء المدرسة في كراتشي» مئة وثمانٍ وستون رسالة جديدة كلها عما جرى في مكتب زهرة. كل من يعيشون في أميركا وإنكلترا غاضبين جميعًا؛ وظهر لدى الأميركيين ميل واضح إلى استخدام كلمة «صدمة»، وأما الباقون في كراتشي، فلم تكن العنصرية تظهر لهم في حياتهم إلا عندما يطلبون تأشيرة سفر إلى أوروبا أو شمال أميركا. هذا ما جعل أكثرهم يتعامل مع الأمر من حيث هو «مشكلة تنظيف». قال واحد منهم: «*هل سقط الكيس على السجادة أم على الأرض العارية؟*». وجاء في رسالة أخرى: «*هل لديكم تهوية جيدة؟*».

كتب صحافي مقيم في كراتشي نجا من محاولة لاغتياله: «*من حسن حظك أنك تعيشين في بلد حيث يهاجمونك بالبراز، لا ببتر الأيدي أو بالقنابل*». كانت زهرة تكتب إجابة توصلت إليها بعد بضع لحظات: «*صحيح. كيس من البراز هو أعلى مستويات التمدن التي وصلنا إليها هنا. سيكون تنظيف يد مقطوعة أكثر سهولة من تنظيف المكان عندنا. (ما من سجادة والحمد لله)*». ضحكت مريم حتى وهي تهم بكتابة رسالة إلى زهرة. قالت فيها: «*من الممكن أن يلتقط أحدهم صورة للشاشة فتقعين في مشكلة، يا غبية!*». كانت زهرة قد حذفت ما كتبته قبل أن تفلح في إرساله. أتت من بابار رسالة تقول: «*لا بأس، مَن مِن الموجودين هنا تظنين أنه يمكن أن يسرِّب هذا!*». كتبت مريم: «*صبا!*»، لكنها كتبت هذا في مجموعة الدردشة المشتركة بينها وبين زهرة وبابار. في اللحظة نفسها، كتبت زهرة: «*100٪ صبا*».

من الناحية الرسمية -بطبيعة الحال- كانت زهرة قد استخدمت نبرة

مختلفة مع مراسل بي بي سي (واحد من أصدقاء زهرة) الذي وصل إلى المكان بعد دقائق فقط. «هجوم على الحريات المدنية»؛ «واحد من أعراض مرض أوسع انتشارًا»؛ «لا بد من توجيه اللوم إلى أصحاب السلطة الذين يستخدمون سياسات تستفز المتطرفين، ثم يزعمون أنهم مرتاعون عندما تحدث أمور من هذا القبيل».

كان واضحًا تمامًا أن كل ما جرى قد أعجب زهرة. لم يعجبها الهجوم على المكتب -بكل تأكيد- بل الصورة التي ظهرت فيها بصفتها مديرة مركز الحقوق المدنية: متوازنة، جريئة، مفعمة باليقين الأخلاقي. من المضحك تذكّر كم كانت خجولًا في أول صباها، وكيف كانت لديها خشية دائمة من أن شيئًا فظيعًا يمكن أن يحدث. رقّ قلب مريم وتذكرت كم كانت معتزة بصديقتها الأولى، حتى عندما لا تتفق معها في الرأي. لقد صنعت زهرة من نفسها -تمامًا- ما أرادت دائمًا أن تكون: شخصية متميزة.

وضعت الهاتف عند حافة طاولة مكتبها المصنوع من خشب القيقب والستانلس ستيل. طاولة لها اسم موديل خاص بها: «زييغ 2000». من الواضح أنها خلَفٌ طال انتظاره لطاولة «زييغ 1500». في «زييغ 2000»، تمتد الكابلات مخفية داخل الهيكل؛ وهذا أقصى ما يمكن أن تشتريه مريم من قطع أثاث ذات «مزايا». لا تعجبها المباهاة بالمظاهر التكنولوجية، ولا تكاد تستطيع أن تنظر من غير ارتعاش إلى مكتب شريكها كونر المزوَّد بشاشة تعمل باللمس.

«وهم يدعونك ملكة التكنولوجيا!»، هكذا قال لها ذات يوم مناكفًا؛ ففوجئت لتذكرها أن شخصًا مثله عمل معها منذ أيامها الأولى في عالم رأس المال المغامر لا يعلم أن أجيالًا من التصميم الكلاسيكي تجري في دمها، أجيالًا تجعلها تكره «التقليعات». كان أثاث مكتبها ذا خطوط نظيفة واضحة مع جدران خضراء هادئة، عليها لوحات مائية تمثل إعلانات صاخبة الألوان من باكستان، أوصت عليها فنانًا من كراتشي فور تخرجه في «كلية الفنون الوطنية»، وهو الآن يعرض أعماله لدى «TATE» و«MOMA».

كان من بين تلك اللوحات المائية واحد من إعلانات شركة خان للجلديات من الخمسينيات عند بداية اهتمامها بمنتجات غير حقائب السفر. يقول الإعلان: ***عش نمط حياة خان للجلديات من غير أن تغادر منزلك!***

وضعت السماعة على أذنيها كي تتلقى مكالمة من أحد مؤسسي «فينتشر فيرذر» تستخدم شركته المتخصصة في التكنولوجيا الحيوية الذكاء الصنعي من أجل الكشف المبكر عن سرطان الثدي. أثناء كلامه، نقرت على الرابط الذي نشره بابار في مجموعة الصف. لقد وجد مقطع فيديو سجلته كاميرا مراقبة طريقه إلى الإنترنت. إنها كاميرا في الشارع حيث يقع مكتب زهرة. ظهر الرجل في المقطع يفتح باب مكتب مركز الحقوق المدنية ويقذف بالكيس إلى الداخل. ظهرت ذراعه ترتد إلى الخلف ثم تندفع بالكيس. وقبل أن يُغلق الباب، يجري خارجًا منه رجل في مئزر خباز ويهاجم الرجل الأول، فيوقعه على الرصيف. ينتهي المقطع هنا.

كتبت للمستثمر: «*كم أنفقت على ذلك؟*»، ثم انتقلت إلى المجموعة لترى التعليقات على مقطع الفيديو الذي أرسل بابار الرابط المؤدي إليه. لقد عرف أحدهم هوية الرجل: يعمل في متجر للأدوات غير بعيد عن مكتب مركز الحريات المدنية. وجدت تعليقات كثيرة جدًا موجّهة إلى مالكي المتجر تسألهم كيف يقبلون بين العاملين لديهم شخصًا من هذا النوع. لكن أشخاصًا آخرين اعتبروه بطلًا، واقترح أحدهم إنشاء صفحة من أجل مساعدته ماليًا إن نجح مركز الحريات المدنية في جعلهم يطردونه من العمل. هذا ما يحدث عندما تحاول متابعة قصة في وسائل التواصل الاجتماعي.

نهضت واقفة وتمطّت رافعة ذراعيها فوق رأسها. «*إذا لم ينجح الأمر، فسوف تجد نفسك مضطرًا إلى بيع ما لديك من بيانات المستخدمين*»؛ وبعد ذلك، «*لذا، احرص على ألا يكتشف أحدهم الأمر*».

أنهت المكالمة، ثم تمطت رافعة ذراعيها من جديد، ثم تمطت عدة مرات أخرى. لقد أراد «الفتى الذهبي» نشر صورة «الأب الأفضل في

البلاد» كي يراها الجميع، لكنها أدركت أن هذا أمر خطير. سوف يريد الناس معرفة المكان الذي أتت منه الصورة. وحتى إذا لم يكن ممكنًا إثبات شيء، فإن ما يمكن تخمينه أكثر من كافٍ. لذا، بدلًا من ذلك أجرت اتصالًا هاتفيًا. لم يكن اتصالًا مع واحد من أشباه بيلو، فهي ليست في حاجة إلى من هم مثله. كان اتصالًا مع شركة تحريات حدث كثيرًا من قبل أن زودتها بمعلومات عن أشخاص كانت معرفة المزيد عنهم أمرًا ضروريًا قبل أن تستطيع اتخاذ قرارات مسؤولة في شأن استخدام أموال المستثمرين لديها. كانت شركة التحريات تعتبرها من عملائها المهمّين، فكان ذلك كافيًا لأن تتولى القيام بما هو أشبه بمهمة من مهمات الهواة: الوقوف أمام مكتب إذاعة بي بي سي، وانتظار ظهور «الأب الأفضل في البلاد» آتيًا من أجل مقابلته في برنامج «توداي»، ثم تسليمه تلك الصورة موضوعة في مغلف.

لم يُجرِ الرجل تلك المقابلة أبدًا. وقد قال حساب على وسائل التواصل الاَجتماعي مرتبط بحملة «#العدالة من أجل طاهرة»، إن الأسرة تطالب بالخصوصية، ووالد طاهرة لن يواصل الظهور في وسائل الإعلام لأن واجبه الأول هو أن يكون في بيته وأن يعتني بابنته. من غير لون بشرته الأسمر كالكراميل، ومن غير وجهه المحترم ذي الأهداب الطويلة، انهارت الحملة ولم تعد تحتل موقع الصدارة في الأنباء.

كانت مريم سعيدة بأنها سمحت له بهذا الانسحاب الهادئ. ما كان ممكنًا أبدًا أن تسمح له بالفوز، لكنها لم تشأ تدميره: أرادت هزيمته فحسب. لو كان جدها موجودًا لفخر بها.

***

«كيف حالك؟».

هكذا هو الأمر. لقد كانت زهرة تتساءل كم من الزمن ستظل ليلى قادرة على منع نفسها من قول هذا. لم تكن نبرة صوتها هي ما فاجأها. لقد قالت لها: «لا تستطيعين البقاء في ذلك المكتب الفائح برائحة البراز. أرسلي الجميع إلى بيوتهم، ودعينا نذهب كي تشتري لنفسك حذاء جديدًا». كان

هذا منذ حين. وأما الآن، فهما جالستان إلى طاولة على الرصيف أمام مطعم للسمك وشرائح البطاطس في «شارع ميرالبونلين». إنهما تلتهمان طبقًا كبيرًا من شرائح البطاطس المنكّهة بالخل. كان حذاء زهرة الرمادي الجديد الذي يغطي الكاحلين في قدميها؛ وكان حذاؤها الرمادي القديم الذي يغطي الكاحلين أيضًا قد صار في حاوية قمامة عند مكتب مركز الحريات المدنية.

قالت زهرة: «أنا بخير».

إنها بخير حقًا! صحيح أن الأمر كان صدمة، لكن قلقها على عزام سرعان ما طغى على تلك الصدمة. لا تزال منتشية لأنها استطاعت جعله يطمئن. هذه أيام يصعب فيها تحقيق انتصارات.

لقد تم التعامل مع المسألتين من خلال «حلول أهلية»؛ ولم تنشأ من الواقعتين أية سوابق جنائية مسجّلة. عندما اقترحت زهرة أن يجري الأمر بهذه الطريقة، سألتها الشرطية - شرطية من أصل آسيوي: «هل أنت واثقة من أن هذا ما تريدون؟». اعترف صاحب الأنف النازف بذنبه، وفعل عزام مثله. كان مطلوبًا من كل منهما أن يقدم إلى الآخر اعتذاره. وهذا ما فعلاه من غير توضيح ما كانا يعتذران عنه. لم تعترض الشرطية، ولم تُرد إطالة الأمر: لقد سمعت لكنة عزام، ورأت خوفه، وهي تعرف البلد الذي تعيش فيه.

«عندما تكون واحدًا من أبناء الطبقة الوسطى الموجوعين، تكون القذارات العنصرية التي عرفتها في طفولتك شيئًا مجازيًا إلى حد كبير!».

فتحت ليلى المغلف الورقي الصغير بأسنانها، ونثرت مزيدًا من الملح على شرائح البطاطس المقلية. في بداية تعارفهما عندما كانتا في الثامنة عشرة، في اللحظة نفسها مدّت كل منهما يدها إلى الكتاب نفسه في كشك لبيع الكتب المستعملة في ساحة «كامبريدج ماركت». أدركت زهرة على الفور أن هذه المرأة الباهرة المرتدية بيجامة رياضية فاقعة الزرقة فتاة تود أن تصير صديقتها. لهذا السبب وحده، قالت لها إن من الممكن أن تتقاسما ثمن الكتاب (كان خمسين بنسًا) فتقرأه واحدة منهما ثم تقرأه الأخرى.

وقد تلتقيان في وقت من الأوقات لمناقشته! تركت ليلى الكتاب من يدها، وقالت لها: «أردت شراءه من أجل صديق. إنني أستقي الحكمة من أغاني دينا سيمون وفرقة كلاش وأشعار لينتون كويزي جونسون. ما رأيك في أن نتناول البطاطس المقلية؟». كانت زهرة قد عثرت على «شلّتها» في «كامبريدج». لكنها بدأت تضجر من السهر حتى الفجر والجدل في ما إذا كانت «هيئة الحقيقة والمصالحة» تهربًا أم صيغة راقية من صيغ العدالة مع بشر لا يرون في مسألة التحولات الديمقراطية، ولا حتى في مسألة العدالة الأساسية، إلا أمورًا مجردة. وجدت في ليلى صديقة تستطيع أن تتناول معها شرائح البطاطس المبالغ في تمليحها، صديقة تأخذها إلى المعارض الفنية حيث تعرّفها على الفن الحديث وتلومها على محدودية ذائقتها الموسيقية. («برايان آدامز!؟ هل نستطيع أن نلوم الديكتاتورية على هذا الأمر»). قبل تلك اللحظة، لم تعرف زهرة شخصًا يستطيع أن يكون غير معجَب بذوقها ولا بما تفضّله، لكن بهذا الأسلوب المنعش.

نظرت ليلى إلى هاتفها وصاحت: «يظنون أن كل شيء قد انتهى. لقد انتهى الآن».

لقد نشر المتجر الذي يعمل فيه المعتدي تصريحًا يقول فيه إن سياستهم لا تتسامح مع العنصرية أبدًا، وإنهم طردوا ذلك الرجل على الفور.

قالت زهرة: «ما هو شعورنا إزاء المحاكمة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي؟».

كاميرات تراقب، وبشر يصدرون أحكامًا، ومطالبات بأشكال من العقوبة لا تؤدي إلى تحسين أي شيء على الإطلاق. تظلّ وزيرة الداخلية آمنة في منصبها كعهدها دائمًا، وتقف في البرلمان كي تقول إن الهجوم على مركز الحريات المدنية قد هالها، في حين تصغي المعارضة إلى كلماتها بروح من الزمالة والتعاطف بدلًا من أن تصيح بها: «منافقة».

رمتها ليلى بشريحة بطاطس. اصطدمت بأنفها وارتدت عنه فالتقطتها قبل أن تسقط.

«هذا أمر مخيف... إلا عندما يكون أمرًا رائعًا. اعترفي بأنك مسرورة!».

«أنت تتكلمين مثل مريم». هذه عادة تميّز مريم عن غيرها: تزيح جانبًا كل ما يبدو حكمًا من أحكام القيمة وتسألها عن شعورها، عن شعورها العميق في أكثر الأماكن حيوانية في قلبها. وكأن أحط مشاعر المرء وانفعالاته تعلو فوق كل شيء آخر. وكأنها هي الحقيقة وكل ما عداها ليس إلا تظاهرًا. بعض الأحيان، تود زهرة القول إن هذا النوع من التفكير هو ما جعل مريم المراهقة راغبة في إرسال بلطجي كي يضرب جيمي؛ لكن قولها هذا سيقودهما إلى الكلام عن تلك الليلة في سيارة السوزوكي، أي إلى أمر لا تريد الخوض فيه. تتساءل كيف تنظر مريم الآن إلى ما طلبته من جدها ذلك الوقت. أهي مستاءة من نفسها؟ أم لا تزال ترى طلبها مبررًا؟ مشكلة صداقات الطفولة أنك يمكن أحيانًا أن تعجز عن رؤية الشخص الناضج الذي أمامك بسبب فكرتك الثابتة عن المراهق الذي كانه ذات يوم. وفي أحيانٍ أخرى، تصير غير قادر على رؤية المراهق الذي لا يزال حيًا داخل الشخص الناضج.

قالت ليلى بنبرة لطيفة: «بعد عشرين سنة، يكتسب المرء طباع الآخر». مسحت أصابعها بمنديل، ثم مدت يدها على الفور إلى شريحة بطاطس أخرى، «لكنك مسرورة، ألست مسرورة؟».

صحيح، إنها مسرورة، فماذا؟ لا تحب الاهتمام الذي لا لزوم له بكل ما لدى المرء من مشاعر ليست إلا تعبيرًا عن اللحظة الراهنة. *كوني أكبر من نفسك!* كانت هذه جملة يكرّرها والدها كثيرًا.

«بمناسبة الكلام على اكتساب الطباع، هل تعلمين أن من بين استثماراتها شركة لإيصال الطعام خاصة باللاجئين؟ أخبرتني بهذا الأسبوع الماضي وكأنها تقدّم إليّ هدية».

«شركة إيصال طعام إلى اللاجئين!؟».

«بالطبع لا. جعل اللاجئين يطهون الطعام، فضلًا عن إيصاله إلى الناس في أنحاء لندن. اضطرت إلى القول لمؤسسي الشركة إن عليهم أن يركزوا

على الطبّاخين، لا على الترويج لحقيقة أن السائقين الذين يوصلون الطعام لاجئون أيضًا. تقول إن البريطانيين كانوا يرحّبون باللاجئين في وقت من الأوقات، لكن اهتمامهم بالمطبخ العالمي كان قليلًا. وأما الآن، فسوف يجعلهم هذا يأكلون من مطابخ الكرة الأرضية كلها ويوفر عليهم قبول طالبي اللجوء الواقفين ببابهم».

ضحكت الاثنتان. كان من بين أسباب ضحكهما قدرة مريم على طرح نقد يمكن أن يعتبر يساريًا لولا شدة اهتمامها بأن يحقق لها أرباحًا.

صارت الأمسية والبطاطس المقلية أكثر برودة مما هو مستساغ، فانطلقت الاثنتان معًا صوب حديقة ريجنت بارك. وعند خروجهما من الحديقة، كانت الظلمة قد اشتدت فجعلت السير عبر «رايم روز هيل» غير مغرٍ لهما. انتبهت زهرة إلى أنها تحسد ذلك الرجل في ملابس الجري الذي اندفع قدُمًا من غير أن يفكر مرتين في الظلمة التي تخيم سريعًا. ودّعت ليلى وسارت كل منهما وحدها في شوارع حسنة الإضاءة؛ سارتا في اتجاهين مختلفين: مضت زهرة صوب الباص الذي يأخذها إلى «سويس كوتيج»، وتابعت ليلى طريقها كي تأخذ زولا من بيت مارك.

لم تمشِ زهرة أكثر من خطوات معدودة قبل أن تسمع ليلى تناديها رافعة الهاتفَ في يدها. أثناء سيرهما، نشرت إحدى الصحف على موقعها في الإنترنت مقطع فيديو جديدًا. عزام يهوي بقبضته على وجه الرجل النحيل. تعبيره منفّر. وإلى جانب مقطع الفيديو المتحرك صورة ثابتة: الرجل النحيل منحنيًا إلى الأمام، ووجهه ملطخ بالدم، ورجلان داكنا البشرة ممسكان بذراعيه. لقد أجري تعديل على الصورة بحيث صار شعر الرجل الأشقر لامعًا متألقًا، وصار جلد راي والطباخ البنغالي داكنًا مثل الفحم. كانت ذراعا الأشقر منفرجتين قليلًا وهو مائل إلى الأمام، منفرجتين بالقدر الكافي لأن يتناقل الناس الصورة عبر وسائل التواصل الاجتماعي ومعها كلمة «الصلب».

***

[هل أنت بخير؟]
[بخير، لكني اضطررت إلى رمي حذائي المفضل]
[ما السبب؟]
[إن قلت لك السبب فسوف يقضي على شحنة الإثارة كلها]
[لن أسألك مجددًا. آمل أن يكون ذلك الرجل الأفغاني قد تلقى وسامًا]
[هو أغبى من أن يستحق وسامًا. ما قصة الرجال مع العنف؟]
[من الممكن أن يكون العنف مُشبِعًا. ألم ترغبي يومًا في تسديد لكمة إلى وجهي].

كانت تلك مفاجأة. يتجنّب كل منهما -بحذر، على ما تظن- أي ذكر لتلك الليلة التي أدت إلى طرده من المدرسة.

[أوه، أرى أنك عدت إلى ذلك الزمن]
[هل أتراجع؟]
[هل سددت لكمة إلى وجه جيمي؟]
[لماذا؟]
[أنت أيضًا أصابك الذعر في السيارة].

تمنت أن يدرك حقيقة أنها أرادت السخرية، لا المغفرة. مع حمد تستطيع أن تكون غير لطيفة.

[لم يصب «الذعر» أحدًا]
[فما الكلمة التي تفضل استخدامها؟]
[بونجور]
[؟]
[عليّ أن أكون هذا الصيف في باريس من أجل العمل]
[هل تغيِّر الموضوع؟]
[لا تتظاهري بأنك لا تدركين ما أطلبه منك].

ذهبت ووقفت عند نافذة غرفتها ترقب الحياة في الشارع. رجلان

واقفان في مدخل مقهى يقع في الناحية المقابلة. سيجارتاهما تتوهجان في يديهما. لأول مرة منذ سنين، تمنت لو أنها لم تقلع عن التدخين. بدأت التدخين منذ الجامعة، وتركته في أواخر العشرينيات. تخيلت نفسها من بعيد: امرأة نهضت وتركت سريرها غير مرتب، ثم وقفت في قميص النوم تدخن سيجارة وتفكر في أنه كان لها أن تسمح لنفسها بفعل ما تريد: تحرير المواضع الحيوانية في قلبها. تنهدت، وبدلاً من حلقات الدخان، ظهرت على زجاج النافذة طبقة من غشاوة رطبة. كتبت عليها بإصبعها: نعم.

***

فكّرت مريم في كلمة «البيت» مسرورة، مثلما يقع لها أكثر الأحيان عندما تعود من نزهتها المسائية مع وولف. ظلت برودة المساء في الخارج عندما دخلت وأغلقت الباب من خلفها. سبقتها الكلبة عند دخولهما البيت، فسارت خلفها على ساقيها المتيبستين وصعدتا السلم. كان النور في غرفة زولا مطفأ.

نزلت إلى المطبخ. وعدت ليلى بأن ترفع أطباق العشاء، لكن الأطباق لا تزال في مكانها. بدلاً من رفعها، سقطت في شرك إيميلات العمل. لا يمر وقت من أوقات اليوم، لا يكون فيه مستثمرون ومديرون تنفيذيون مستيقظين في واحد من الأماكن في العالم. وضعت الماء على النار كي يغلي، وكسّرت بأسنانها بضعة أعواد من القرفة، ثم وضعتها في فنجانين. كتبت في هاتفها *«لقد عدت»*. ونظرت إلى الخارج صوب الاستوديو الذي في الحديقة حيث اختفت ليلى بعد العشاء مباشرة.

وقفت تنتظر أن يغلي الماء، وألقت نظرة جديدة إلى إيميلاتها. كتبت إجابتين سريعتين، ثم سارت إلى خزانة العرض المعلّقة حيث تصطف ثلاث منحوتات ـ الربة هاريتي من غاندهارا مصنوعة من حجر رمادي، وأوشون آلهة يوروبا مصبوبة من البرونز، وبينهما تمثال امرأة رفعته مريم عن الرف كي تنظر إليه عن قرب مثلما لم تفعل منذ سنين. كان التمثال نموذجًا مصغرًا لمنحوتة أكبر كثيرًا مصنوعة من رخام أبيض كانت مساهمة ليلى في معرض

جماعي أقيم في غاليري «وايتشابل» في بداية عيشهما معًا. أطلقت ليلى على هذه المنحوتة «بعد فيدياس» - كانت ردًا على غياب الأعضاء الجنسية النسائية في الأعمال الفنية الإغريقية القديمة. وقد اجتذبت يومها قدرًا غير قليل من الانتباه. جسد المرأة الصلصالي مرتد إلى الخلف، عارٍ، وفخذاها منفرجتان بحركة كسلى كاشفتان عن كل شيء. نشب بينهما عراك كبير عندما اكتشفت مريم -اكتشفت متأخرة لأن ذلك كان شيئًا لم تنظر إليه منذ فترة بعيدة- أن في المنحوتة تصويرًا لأجزاء من جسدها. قالت لها ليلى: *«هذا إكرام لك. ثم إن ما من أحد غيرنا -أنا وأنت- يعرف أن هذه أنت. أعني أنه ليس بين أصدقائك السابقين شخص من النوع الذي يتردد على المعارض الفنية في 'إيست إند'، أليس كذلك؟»*.

كانت في باكورة علاقتها مع واحد من أصدقائها السابقين عندما قابلت ليلى أول مرة. ففي يوم خريفي في سنة 1993، في يوم من تلك الأيام التي تجعل المرء يفكر في «الأجواء العائلية اللطيفة»، دخلت مريم مسكن الطلبة في كامبردج حيث كانت زهرة تعيش وتعمل، فوجدت امرأة توازن فنجان شاي كبير على ركبة في بنطلون جينز منثنية حتى بلغت صدرها. كان واضحًا أن مرونةً أطرافها كبيرة جدًا. كانت مريم جاهزة لأن تمقت هذه الليلى (المنطوقة بالطريقة الإنكليزية) التي حدّثتها عنها زهرة بإعجاب كبير. لكن ليلى سرعان ما جعلت ذلك مستحيلًا. في تلك الليلة، لم تبق ليلى طويلًا، لكنها عانقت مريم قبل ذهابها. عضلات ذراعيها ورِقّة نسيج قميصها!

في طريق عودتها بالقطار إلى لندن، انتبهت مريم إلى أن تحولًا قد حدث فيها. حقيقة معروفة من قبل، صارت الآن معترَفًا بها تمامًا. لكنها بدت آنذاك حقيقة جزئية -لا أكثر- كان صديقها يعجبها إلى حدٍّ كافٍ. وهذا ما جعلها تقرر تجاهل ما في علاقتها به من أمور تزعجها. انقضت بضع سنين قبل أن تلتقي ليلى مجدّدًا، وكان ذلك في حديقة مقهى يوم عيد ميلاد زهرة الخامس والعشرين. كل ما أعقب ذلك كان محتومًا.

لاحظت مريم بشيء من العجب أن الغبار قد تجمّع بين ساقي المنحوتة

الصلصالية. عادة ما تكون ناديا التي تنظف البيت شديدة الحرص على ألا يفوتها شيء، لكن من الواضح أن ثمة أماكن لا تحب أن تمد يدها إليها. حملت مريم المنحوتة إلى طاولة المطبخ ومسحت ما بين ساقيها بقطعة قماش رطبة. ما أطول الوقت الذي كانت تمضيانه في الكلام على الفن والحرب. ساعات لا نهاية لها في معارض الفنون، من المستودعات في بيثنال غرين إلى متحف تيت للفن الحديث الذي زارتاه يوم فتح أبوابه الكبيرة للجمهور... عندما كان القرن جديدًا، وكان لا يزال مفعمًا بالتفاؤل. كانتا متفقتين إلى حد كبير في ما يتصل بالفن، ومختلفتين اختلافًا حادًا في ما يخص علاقة الرأسمالية بالفن. كثيرًا ما كان الأمر ينتهي بهما إلى أن تفترقا غاضبتين، أو إلى أن تتبادلا القبل في إحدى الزوايا تحت أنظار عنكبوت عملاق أو امرأة متلألئة مصنوعة من روث الفيل. تلك الأيام، كان تبادل القبل محفوفًا بالمخاطر أكثر منه الآن؛ لكن «عدم تبادل القبل» لم يكن خيارًا مطروحًا حقًا.

أتبعت مريم الخرقة الرطبة بخرقة جافة. وبعد أن انتهت طبعت قبلة حارة على موضع رغبتها المفتوح.

متى كانت آخر مرة كلّمتها فيها ليلى بما يتجاوز كلامًا عارضًا عن معرض فني ذهبت لرؤيته؟ وبالمقابل، منذ متى لم تذهب مريم معها لرؤية معرض فني؟ الآن، صار الشطر الأكبر من أحاديثهما يتناول أمورًا بيتية... عن زولا، غالبًا، وأيضًا عن مشتريات المواد الغذائية، وإدخال تجديدات على البيت، وخطط العطلات الصيفية، وما إذا كان الوقت قد حان لدعوة عائلة هذه الصديقة أو تلك إلى الغداء. صارت المشاجرات بينهما أقل من ذي قبل: تحوّل موقف ليلى من خلافاتهما إلى نوع من التقبل يساعدها في ذلك نوع من اليوغا أو التأمل. أحيانًا، يبدو ذلك كأن فيه انتقاصًا من قيمتها. وأيضًا، تبدو ليلى نفسها أحيانًا وقد «نقصت» عن المرأة التي وقعت مريم في حبها. ليس هذا نقصًا من النوع الذي يجعلها تجفل، بل هو أشبه بما يصيب الناس بعد أن يكونوا ممتلئين طاقة وآمالًا في سن الشباب ثم يصلون

إلى «قناعة أواسط العمر»... صارت ليلى راضية بعملها معلمة للفن واللغة الإنكليزية في مدرسة حكومية بعد أن كانت واحدة من المواهب الواعدة في رهط صارت بقية أفراده الآن تعرض إنتاجها في «رويال أكاديمي»، وتأتيها تكليفات بأعمال لصالح مؤسسة «آرت إينجل». لقد قال صديق ليلى السابق ذات مرة مخاطبًا مريم: «لقد حوّلتِها إلى زوجة». تركت هذه العبارة جرحًا عميقًا لدى مريم، لكن ليلى ضحكت عندما كرّرتها. قالت لها: «في بداياتي، كانت المعارض الفنية تبدو بدورها في متناول يدي، لكني لم أحلم أبدًا بأن تكون هذه الحياة ممكنة أبدًا». قالت هذا وأشارت إلى غرفة نومهما المشتركة وإلى الكلبة المتكومة عند قدميها. في وقت لاحق، سمعتها مريم تصرخ على صديقها السابق في شأن «نماذج الغيرية الجنسية». انطفأ النور في الاستوديو، وبعد بضع لحظات، دخلت ليلى الباب المنزلق وضحكت عندما رأت ذلك التمثال في يد مريم.

«عزيزتي، أنت لم تتغيري أبدًا!». قالت هذا وطبعت قبلة على عنق مريم قبل أن تمسك يدها وتجذبها إلى الأريكة، «هل أعددت لنا الشاي؟».

أشارت مريم إلى طاولة المطبخ حيث كان الفنجانان إلى جوار غلاية الماء. قالت لها: «أستطيع جلبهما، لكن هذا يعني أن عليَّ أن أنهض».

تزحزحت ليلى في جلستها قليلًا، ثم طوّقت وسط مريم بساقَيْها فثبتتها في مكانها. أراحت مريم رأسها على صدر ليلى وأحست إيقاع ضربات قلبها المريح... ثمانٍ وخمسون ضربة في الدقيقة، عند الراحة. يأتي بعض لحظات مريم المفضلة في الحياة في آخر يوم عمل مزدحم، عندما يسقط عنها كل ما جرى في ذلك اليوم ولا يبقى شيء غير صوت تنفس وولف، وذلك الجو المطمئن الآتي من معرفتها أن زولا في البيت، وأنها آمنة، لكن من المستبعد أن تكون اليوم في حاجة إلى شيء آخر، وصمتت ليلى معها مثلما كانتا دائمًا قادرتين على أن تظلا صامتتين معًا.

قالت ليلى بعد بضع دقائق، «تكلمتُ مع عمتي اليوم. الظاهر أنها بدأت إعادة تجهيز بيتها كلّه استعدادًا لوصولنا».

أمسكت مريم يد ليلى وضغطتها على شفتيها. بعد مولد زولا بفترة قصيرة، جلست ليلى مع مريم وحدّثتها عن سنتين عاشتهما مع شقيقها لدى والديهما في نيجيريا عندما كانت في التاسعة وكان في الحادية عشرة. قالت ليلى إنها وجدت تغيرًا كبيرًا عندما رأت أن سواد لونها ليس على تضاد مع محيطها هناك. تتمنّى أن تعيش زولا هذه التجربة ذات يوم، وكذلك أن تعرف العيش مع أسرة كبيرة. وافقتها مريم على ما قالت، فهكذا تكون الاستجابة المتمدنة إلى أي طلب من حب حياتها التي كانت آنذاك مرضعًا، وكانت تعاني الأرق في الليل. وفي السنين التي أعقبت ذلك، خُفّضت مدة السنتين إلى ستة أشهر، وساعدتها في ذلك قوانين نيجيريا المعادية للمثلية الجنسية. تستطيع ليلى أن تأخذ إجازة من عملها على امتداد فصل كامل؛ وتستطيع زولا أن تذهب إلى المدرسة التي يرتادها أطفال العائلة في لاغوس. وسوف تطير مريم كلما استطاعت كي تزورهما. من المرتقب أن تذهبا بعد عطلة عيد الميلاد.

«سوف تكون الحياة سيئة جدًا من غير وجودكما هنا». حاولت أن تقول هذا من غير أن يكون وقعه ثقيلًا، لكن ليلى شدّت على يدها معتذرة، «طلبتُ من زهرة أن تبقي روزنامتها الاجتماعية خالية طيلة الربيع القادم. وعدتني أن تكون هنا مرة على الأقل خلال الأسبوع، فضلًا عن مجيئها أيام الأحد كعادتها».

قالت مريم: «لست في حاجة إلى جليسة أطفال». لكن ما سمعته سرّها.

بعد قليل، تناولت ليلى التابلت عن الطاولة الصغيرة. أخذته مريم من بين يديها وأمسكته بين ركبتيها حتى تتمكنا من مشاهدة زهرة في برنامجها «كويستشن تايمز».

قالت ليلى عندما ظهرت زهرة في الصورة: «أوه، مرحبا!». كانت تجلس إلى جانب مضيف البرنامج خلف طاولة على شكل هلال. ترتدي زهرة دائمًا سترة هادئة الألوان فوق قميص أسود كلما ظهرت على شاشة التلفزيون. لكنها ترتدي اليوم قميصًا أحمر ياقته على شكل

حرف V بدلًا من الياقة المدوّرة الضيقة التي تظهر بها دائمًا. كان رجال أربعة وامرأة أخرى جالسين من حول الطاولة، وكانت ملابسهم جميعًا تقع ضمن درجات مختلفة من الأسود والأبيض... وشعرهم بين الأبيض والأشقر. ينظر المرء إلى زهرة الجالسة معهم ويقول في نفسه: «واحد من هذه الأشياء ليس مثل بقيتها»، حتى من غير قميصها الأحمر. على أن ذلك اللون الفاقع أضفى عليها مسحة من التألق كأنه محاولة مقصودة للتميّز عن البقية... أمر ينبغي الآن أن تكون أعقل من أن تحاوله إن كانت تعتزم قول العبارات التي تقولها عادة.

قالت ليلى: «أتظنين أنها تفعل هذا من أجل رجلها الغامض؟».

«هل أخبرتك شيئًا جديدًا عنه؟».

«يعيش في منطقة توقيت مختلفة. وقد كانت لها به معرفة بسيطة منذ سنين. قد يزور لندن خلال هذا الصيف. وأيضًا، لم تعش منذ وقت طويل جدًا، لحظة نشوة جنسية... غير ما تصنعه بنفسها».

«لا أستطيع تخيل زهرة تقول هذه الجملة».

«هذا لأنك كبرت مع زهرة غير التي كانتها عندما عرفتها».

«أظنه موجودًا حيث بدأ الأمر».

كان المقصود بـ«الأمر» ذوق زهرة في الرجال. وميلها إلى عدم الإفصاح عنه. تحب زهرة أن تدعو هذا «مزاجًا» أو «نزوعًا»، لكن حقيقة الأمر هي أنه سياجٌ واقٍ. ليس للمرء أن يتوقع المضي شوطًا طويلًا عندما يسير في شارع ذي نهاية مغلقة؛ وقد كان زواج فاشل واحد، أقصى اضطراب عاطفي يمكن أن تقبله زهرة في حياتها. قالت ليلى إنها تنطلق من افتراض بطريركي مفاده أن العيشة المشتركة ينبغي أن تكون المركز العاطفي في حياة كل امرأة؛ وقالت إن ما من دليل يشير إلى أن زهرة راغبة في أي شيء أكثر مما تتلقاه من مغامراتها. لكن مريم لا تزال في داخلها تلك المراهقة الحانقة على أعز صديقاتها حنقًا يجعلها تصيح بكل رجل

من الدرجة الثانية لا يبلغ به الأمر أن يحب زهرة علي، «أنت لا تضاهيها»، حتى إذا لم يكن الحب هو ما تريده زهرة من أولئك الرجال.

قالت ليلى: «أهذه أول مرة تواجه فيها الوزيرة منذ قولها ذلك الأمر عن المجرمين والإرهابيين».

كانت المرأة الوحيدة الأخرى بين الجالسين إلى الطاولة وزيرة الداخلية ذات الشعر الأشقر الشبيه بخوذة فوق رأسها، والهيئة الفاترة المتراخية الناطقة بقرون من المكانة المتميزة. ألقت زهرة عليها باللائمة في الهجوم الذي استهدف مكتبها مع أنه كان من الواضح كل الوضوح أن كلمات زهرة نفسها -لا كلمات أي شخص آخر- هي ما يجعل نوعًا بعينه من الناس يكرهها.

بدأت الأسئلة الموجهة من الجمهور. فعلت زهرة ما تفعله دائمًا، إذ راحت تجيب مستخدمة جملًا ذات صيغة ممتازة، وعبارات جانبية موجّهة إلى الجمهور مع قصص بشرية طريفة كان واضحًا منها أنها تفهم التكلفة البشرية للسياسات ولما تقرره صناديق الاقتراع: جعلت كل من عداها يبدو غير صادق، قليل المعلومات... جعلتهم جميعًا يبدون أشخاصًا من الدرجة الثانية. تحوَّل انتباه مريم إلى يدي ليلى المتحركتين تحت قميصها، ثم صوب الأسفل، ففاتتها بضع أسئلة بعد ذلك، ولم تعد إلى التركيز على الشاشة من جديد إلا عندما وقفت امرأة محجّبة تتكلم بلهجة برمنغهام، وقالت إنها حزينة منذ أسابيع على تلميذة المدرسة طاهرة التي كان إقدامها على محاولة الانتحار ناتجًا عن التنمّر في المدرسة، ذلك التنمّر الذي ظهر قسم كبير منه عبر تطبيق Imij.

توقّفت يد ليلى إذ انتبهت إلى ذلك التحول في انتباه مريم. كانت المرأة تقول، لماذا كفَّ الجميع عن الكلام في الأمر بهذه السرعة كلها؟ هل كان على الحكومة أن تتدخل وأن تتخذ إجراءات ضد تفشّي العنصرية والإسلاموفوبيا الذي تُرك ينطلق على هواه؟

التفت مقدّم البرنامج إلى زهرة أولًا. سألها إن كانت تؤيد إجراء حكوميًا في هذا الشأن.

قالت زهرة: «بكل تأكيد. وبكل تأكيد، أرى أن على الحكومة أن تتخذ إجراءات ضد تفشي العنصرية والإسلاموفوبيا. ومن الممكن أن تكون نقطة بدء جيدة إجراء تحقيق داخلي ضمن حزبهم تكون أول خطوة فيه مساءلة اللغة التي تستخدمها قيادة الحزب وصولًا إلى سياسات الحكومة».

صدر عن ليلى صوت تحبيذ، وصفق جمهور الحاضرين. نظرت مريم إلى الوزيرة ورأت بقعًا حمراء تظهر على وجنتيها.

قالت الوزيرة: «من دون أي ريب، هذه الحكومة ضد أشكال التمييز كلها. لذا، أقول نعم، سوف نتخذ إجراءات بحق Imij. لقد أوضحت رئيسة الوزراء أن ما من مكان في بريطانيا للشركات التي تتغاضى عن العنصرية من أجل زيادة أرباحها».

أعقبت كلامها أشد موجة تصفيق خلال الأمسية كلها.

قبلت مريم يد ليلى معتذرة، ثم أزاحتها عنها كي تنهض عندما بدأ هاتفها يهتز ويرن معًا.

هتفت بها ليلى وهي في طريقها إلى الهاتف الموضوع على طاولة المطبخ: «ضعي كل شيء في آلة غسل الأطباق، وناوليني الشاي». بلغت الهاتف قبل الرنة الثانية فقد صارت خطواتها الآن سريعة لأن المعركة التي ظنت أنها أفلحت في تجنبها قد بدأت.

***

[آسف، فقد كان لدي اجتماع هاتفي أثناء مقابلتك التلفزيونية].

في أي مكان من العالم هو؟ جرى بث برنامج «كويستشن تايمز» قبل السادسة صباحًا بتوقيت سنغافورة.

[لا بأس. لم يكن فيه ما يستحق الذكر]

[أختلف معك]

[استنادًا إلى ماذا؟]

[لم أستطع سماع الكلام، لكني كنت أتابعك على هاتفي. قميص أحمر. شيء من خيالاتي].

لعله كان في مدينة أخرى حيث خاض علاقة عابرة. لم يتبادر إلى ذهنها يومًا أنها الوحيدة عنده. ثمة شيء «مُعاد استخدامه» تلمّسه في كثير من عباراته.

[وهل إبقائي صامتة واحد من خيالاتك أيضًا؟]

[لا. أحب أن أسمع كل صوت يبدر عنك. ما لون حمالة الثديين تحت ذلك القميص؟].

هذه أيضًا عبارة «مُعاد استخدامها». مع ذلك، جعلت العبارة شحنة كهربائية تسري فيها، وجعلتها تحس بنفسها «قذرة» على نحو أعجبها.

[أية حمالة ثديين؟]

[أنت تقتلينني].

***

تسير مريم في شارع كينغستون الهادئ، يداها في جيبَي معطفها الجلدي ذي الحزام. حقيبة قديمة الطراز من إنتاج شركة خان للجلديات في الثمانينيات معلقة من كتفها تضرب على ردفها مع كل خطوة. بفعل العادة، كانت تلتفت صوب كل نافذة تمر بها كي ترى أي جزء من الحياة يمكن أن تجده ظاهرًا في الغرف المواجهة للشارع في الطابق الأرضي وفي الأقبية. ثمة غرفة فيها شاشة تلفزيون كبيرة، وأخرى تشبه متحفًا بجدرانها الحمراء ولوحاتها ذات الإطارات الفاخرة. لكن ذلك لم يلفت نظرها بقدر ما لفتته غرفة في حالة إهمال شامل: طبقة غبار كثيفة على أكوام من الكتب موشكة على السقوط، ودوائر بنية اللون خلفتها فناجين الشاي على السجادة وقطع الأثاث. استحضرت تلك الغرفة إلى ذهنها صورة قاطني البيت الذين يتحركون فيه مرتدين ملابس مبقّعة يأكلها العث وتفوح منها رائحة بيوضه. في طفولتها، أخذها والداها إلى بيت من هذا النوع، فافترضت أن الرجل والمرأة اللذين يعيشان فيه -كانا راعيَي والدها أثناء وجوده في المدرسة

الداخلية- لا بد أن يكونا فقيرين جدًا إلى حد يجعلهما غير قادرين على شراء ملابس، ولا حتى على شراء مواد للتنظيف. تلقت من غير تصديق، ثم بازدراء، ما قيل لها من أن ذلك غير صحيح أبدًا: إن كنت إنكليزيًا، وكنت معتزًا بذلك كثيرًا، فلن ترغب أبدًا في أن ينظر لك على أنك تحاول شيئًا. بعد سنين من ذلك، عندما دخلت عالم «دوت كوم» المدوّخ بما فيه من آمال ووعود بطرق جديدة في أداء الأمور، فهمت أن بريطانيا مكان يستخدم قواعد لا معنى لها بغية إرباك الدخلاء في حين يضعك، كونك من أهل هذه البلاد، في قلب مركز القوة العالمي. مع نهاية القرن العشرين، صارت الأنظمة قديمة، سخيفة، وما عاد أحد بقادر على أن يتعامل بجديّة مع الطقوس العتيقة بعد أن صار النادي نفسه معروضًا للبيع.

لكنها كانت مخطئة في تقليلها من شأن أعضاء النادي؛ وهذا ما هو واضح من حاجتها اليوم إلى مساعدة البارونة مارغريت رايت، حاملة وسام CBE سليلة نائب الملك فيليب (وإن كان قليل الشهرة)، المحسِنة التي هي من الممسكين بمفاتيح السلطة. لم تكن رئيسة مريم السابقة في العمل فحسب، بل هي الآن واحدة من المستثمرين الكبار -بعد تقاعدها- في الصناديق الاستثمارية التي تديرها شركة «فينتشر فيرذر». لعل مقر النادي قد بيع كله، تقريبًا، لكن عضويته لا تزال مقصورة على من كانوا يلعبون في حدائقه أيام طفولتهم. قالت لها ليلى ذات مرة: *أنت لست معترضة على هذا الطابع الحصري، بل على أنك لست جزءًا منه*. وكأن هذا موقف يميز مريم وحدها وليس بسبب اعتراض الجميع على الحصرية التي تستبعدهم.

صعدت الدرجات المفضية إلى بيت مارغريت، ومدّت يدها إلى دقّاقته التي كانت على شكل سحلية، مدت يدها بذلك النفور المعتاد (سحالي كراتشي من الأمور القليلة التي لا تشتاق إليها أبدًا). بعد لحظات من ذلك، أدخلتها خادمة وسارت بها عبر المنزل المزدان بالثريات. صور أسلاف مارغريت تنظر إليها من الجدران. عبرت الدرجات المفضية إلى الرواق المسقوف.

ابتسمت عندما رأت مارغريت عارية الذراعين تجلس على كرسيّ. لا تنبئ عضلات ذراعيها حسنة التكوين بشيء عن عيد ميلادها السبعين الذي احتفلت فيه السنة الماضية في «المتحف البريطاني» حيث هي واحدة من أمنائه. سيجارة في يدها، وخيط دخان منبعث من فمها.

حيّتها مريم بعبارة «لا تزالين تلك السيدة التنين ذات الدم البارد». في وقت سابق من بعد الظهيرة، كان الجو صيفيًا، لكن الغيوم تكاثرت الآن وأتت معها بلسعة برودة الربيع الحادة.

استقبلت مارغريت عبارتها على أنها نوع من المجاملة، مثلما أرادت لها مريم أن تكون، فقرّبت خدها منها كي تقبّلها. كشفت ابتسامتها عن أسنان لوّنها النبيذ والنيكوتين - انتباهها الحريص إلى المظاهر لم يعرف أبدًا طريقه إلى داخل فمها!

قالت مارغريت بعد أن جلست مريم إلى جوارها، «أرى أن وزير الأسرة والطفولة قد أيّد ما قالته وزيرة الداخلية هذا المساء عن Imij. من كان يعلم حتى أن لدينا وزيرًا لهذا الأمر؟».

قالت مريم: «أظنه لم يقل ذلك إلا حتى نعرف أن هناك وزيرًا لهذا الأمر».

«يأتي هذا الكلام في لحظة سيئة جدًا بالنظر إلى أن هناك من يريد شراء الشركة، أليس كذلك؟». أخذت مارغريت نفسًا جديدًا من سيجارتها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة من يعرف سرًا.

«هل أنت على علم بهذا؟». لقد أتت مستعدة لأن تكشف لمارغريت هذه المعلومة التي لا تعرفها إلا قلة قليلة من الناس، شريطة أن يكون الكشف عنها ضروريًا للحصول على مساعدتها. حتى في هذه اللحظة، لا تزال تقلّل من شأن «أعضاء النادي».

«ربما كانت لي يد في جعل تلك الكرة تتدحرج».

ظهرت خادمة مارغريت تحمل زجاجة وكأسين من الكريستال. كانت على الزجاجة كتابة بحروف مذهبة، ولصاقة ذهبية عليها صورة حصان ذي

جناحين. منذ امتناعها عن الكحول، صارت مارغريت ذوّاقة تعرف بأنواع المياه الفاخرة.

رفعت مارغريت كأس الماء وقالت: «عمرها ثمانية آلاف سنة. إنها تجعل تلك الأصناف المتميزة من النبيذ تخجل من أنفسها. تقول الأسطورة إن الحصان الأسطوري بيغاسوس ضرب الأرض بحافره فانبجس هذا النبع. إنها رائعة مع المحار».

أخذت رشفة من كأسها وتمنت أن يستطيع المرء أن يطلب فنجان شاي عندما يأتي لزيارة مارغريت، وقالت مريم: «أنتِ الآن تحاولين توريطي في شأن تلك الضجة المثارة من حول Imij، هل تستطيعين فعل شيء؟».

«أهتم بأمور أخرى في الوقت الحاضر. لكني أردت أن أكلمك في شأن المجلس الأعلى».

«ما هو؟».

شرحت لها مارغريت الأمر. كانت في ما مضى تقول، إن العائد على الاستثمار في نوادي الاستثمار السياسية ليس كبيرًا؛ إلا أن «المجلس الأعلى» أمر مختلف لأنه يتيح اجتماعات شهرية مع وزير المالية لمناقشة شؤون البلاد الاقتصادية، فضلًا عن دعوات العشاء والاستقبال المعتادة التي تحضرها رئيسة الوزراء وبقية أعضاء الحكومة. أوضحت لها مارغريت أنه يكفي أن تنضم إلى «المجلس الأعلى» حتى لا تظل مكالماتها الهاتفية مع مقر رئاسة الحكومة من غير إجابة.

«تعرفين أنني لا أصوّت لهم». لم تكن مريم مهتمة بأي حزب سياسي، لكنها صوتت لحزب الخضر في آخر جولتين انتخابيتين لأن زولا طلبت منها ذلك. كانت المقاعد في دائرتها الانتخابية مضمونة جدًا لأصحابها المعتادين؛ ولم يكن لصوتها أن يغير ما يجري في العالم. لكنه قد يكون ذو تأثير على علاقاتها هنا.

«لا يطلب منك أحد أن تمنحيهم صوتك. تلك مسألة متعلّقة بضميرك. وأما هذه فمسألة متعلقة بالشركة».

عندما التقت مارغريت أول مرة وسمعت أشياء من هذا القبيل، كان صعبًا عليها تصديق أن امرأة تبدو مثل جدتها يمكن أن تظهر بمظهر «إنكليزية حقيقية».

لم تر أي داع لسؤال مارغريت عما إذا كانت عضوًا في «المجلس الأعلى». ليستً في حاجة إلى شراء النفوذ. أحست مريم بأن أثرًا من تعبير «الأثرياء الجدد» قد لحق بها، لكنها نفضت تلك الفكرة عن ذهنها مثلما نفضت عنه كلمة «مهاجرة» لما تحمله هذه الكلمة من إيحاء بالحظ العاثر. تعلمك إنكلترا دقائق اللغة وخفاياها - كانت عبارة *«متى أتيت؟»* مما لا يحب المرء أن يسمعه أبدًا؛ وأما *«متى انتقلت للعيش هنا؟»* فلا بأس بها. مَن ينتقلون يكون لديهم الخيار. وأما الواصلون، فلم يفعلوا شيئًا غير أن سلكوا مسارًا للخروج من الجحيم، فأفضى بهم إلى الرسوّ على هذه الشواطئ. لقد كانت «منتقلة»، أي إنها ليست «مهاجرة». بل مغتربة، مغتربة باختيارها. تحب أحيانًا أن تفكر في كلمة «فاتحة».

قالت مارغريت: «إن لعبتِ هذه اللعبة جيدًا فلن يكون هناك حد لما تستطيعين كسبه منها. بين البريكست وآخر جولة من الخصومات العنيفة في الحزب، فقدوا عددًا كبيرًا من المتبرعين - لديهم الآن حرص شديد على أن تنجح مساعيهم الرامية إلى جمع التبرعات».

حلّ إحساس جديد بالدفء. لقد انخفضت الشمس فتحررت من الغيوم. أدارت مريم وجهها صوبها وأغمضت عينيها. اختلاط عبير الليلك في الرواق برائحة دخان السجائر استحضر إلى ذاكرتها حفلات قديمة في حديقة بيت جدها - ياسمين الليل وعطور النساء، والكل يدخن، وجوّ المكائد الدائم: زيجات تحالفية يجري ترتيبها، واستعانة بحظوة هذا أو ذاك، وتعارف بين هذا وذاك، وتبادل معلومات. مست بإصبعها رأس لسانها وتذوقت الطعم المألوف، طعم ذلك كله.

***

كان حجم حروف أول جملتين أكبر من بقية الرسالة، وكانت مكتوبة بخط

غامق. رُفض طلبك من أجل الإذن بالإقامة. عليك الآن أن تغادر المملكة المتحدة. قرأت زهرة الكلمات بعينيها، لكن لسعة هاتين الجملتين -كما يحدث دائمًا- كانت عميقة في أحشائها. لقد رفضوا طلبها للحصول على تأشيرة دخول دراسية عندما قدمته أول مرة من كراتشي وكان عمرها ثمانية عشر عامًا. كانت تلك غلطة إدارية سرعان ما صُحِّحَت، لكنها قرأت رسالة الرفض يومها فأحست كأنها انقلبت رأسًا على عقب. لأول مرة في حياتها، لم تعد عبارة «سحب البساط من تحت قدميه» مجرد «كليشيه» بل وصفٌ حقيقيٌّ لأن يشعر المرء بأنه يسقط، يسقط. ثم إن الحياة التي أحست بأنها قد اقتلعت منها عندما قرأت تلك الرسالة لم تكن حياة تعيشها فعلًا، بل مجرد تطلّع إلى حياة ستأتي. من هنا، ظل يراودها هذا الاضطراب كلما قدمت طلبًا من أجل تمديد مدة تأشيرتها، أو من أجل تأشيرة من نوع مختلف، أو من أجل الموافقة على الإقامة الدائمة، وأخيرًا من أجل نيل الجنسية.

لا سبيل -بطبيعة الحال- إلى مقارنة تجربتها بما ينبغي أن يشعر به شخص مثل عزام؛ لكن هذه هي الفكرة على وجه الضبط. كان إحساسها كأن نورًا قد انطفأ، مع أن المقارنة لا تزال بعيدة.

رفعت رأسها عن الرسالة ونظرت إلى عزام. منذ الآن، ظهرت في عينيه تلك النظرة المذعورة التي رأتها في عيون كثيرين ممن عملت معهم عندما كانت محامية. كتب إليها راي منذ الصباح كي يخبرها بأمر الرسالة. يعرف أن اليوم عطلة، لكن عزام في حالة سيئة جدًا... فهل تستطيع أن تكلمه؟ وهكذا التقيا على مقربة من محطة المترو في طريق فينتشلي، وجلسا في مقهى جديد يحاول بديكوره الخشبي الأنيق ونادلاته الشابات الجذابات أن يتغلب على ما يتسم به الشارع في الخارج من مظهر كالح، لكنه لم يفلح -واقعيًا- إلا في أن يكون المكان الأقل سوءًا لتناول قهوة في طريق فينتشلي.

عادت إلى الرسالة. لقد رُفض طلب عزام لأن «اعتداءه» على رجل أمام مكتب مركز الحريات المدنية يجعله شخصًا غير مرغوب في بقائه في المملكة المتحدة، وذلك نتيجة طبعه ومسلكه.

«لقد قلتِ لي». قال عزام هذا، ثم أمسك لسانه. لكنها قالت له بالفعل... قالت له إن كل شيء سيكون بخير. لم تُدخل في حسابها أن ينتشر المقطع الذي سجلته كاميرا المراقبة انتشارًا كبيرًا، ولا أن تستند وزارة الداخلية إلى ذلك المقطع كي ترفض طلب الرجل استنادًا إلى صيغة غامضة واردة في مبادئ عملها تتيح لها رفض أي طلب تريد رفضه.

أشار عزام بإصبعه إلى فقرة في منتصف الصفحة. «*لا يجوز إيلاء أهمية كبيرة لحياة خاصة يؤسسها في المملكة المتحدة شخص يحمل صفة غير مضمونة هي صفة لاجئ. فأية حياة خاصة بنيتَها في المملكة المتحدة، أو أية صلة أقمتها في المملكة المتحدة، كانت على الرغم من معرفتك التامة بأنك لم تحصل على إذن بالإقامة الدائمة هنا*».

«كيف يستطيعون أن يكتبوا هذا؟ لقد أتيت بموجب تأشيرة زواج».

كانت هذه صيغة معتادة لرفض المطالبة بالحصول على حق الإقامة استنادًا إلى روابط عائلية، لكنها أحست بغرابة في أن تستخدم كلمتي «صيغة معتادة».

أشار إلى فقرة أخرى، وقال: «وهذه أيضًا». «*ما من سبب يمنع زوجتك من اللحاق بك إلى أفغانستان، وذلك خاصة لأن هناك ما يربطها بذلك البلد*».

«أتى أفراد أسرة زوجتي لاجئين. وقد اعترفوا بحقها في أن تكون لاجئة هنا. وهم يقولون الآن إن ما من شيء يمنعها من العيش في أفغانستان».

اقتربت منهما نادلة تحمل القهوة التي طلبَتها. وقفت مترددة، مرتبكة. رفع عزام رأسه ناظرًا إليها. اعتذر ونهض كي يأخذ منها الفنجانين، ثم عاد إلى جلسته.

قال بعد قليل: «لكني أستطيع استئناف القرار. يقولون إنني أستطيع استئنافه، فهل سأكسب الاستئناف؟».

حرصت على اختيار كلماتها عندما أجابته: «لديك فرصة طيبة في ذلك». مست بإصبعها نبتة الصبار الصغيرة الموضوعة في أصيص على الطاولة.

أحست بأشواكها الصغيرة كأنها دبابيس... «هناك أشخاص كثيرون ممن سيحررون رسائل تؤيدك وتشيد بحسن طباعك. إن لك طباعًا ممتازة».

«وما الزمن الذي يستغرقه الأمر؟».

وضع يديه على صدغيه مدللًا على الاضطراب الذي خلقته هذه الرسالة في ذهنه.

عليها أن تخبره بالحقيقة، أو بقسم منها على الأقل. قد يستغرق الحصول على موعد في المحكمة من ستة شهور إلى اثني عشر شهرًا. لم تقل له إنه قد يوضع على قائمة الانتظار بعد حصوله على موعد من المحكمة. وهذا يعني أن المحكمة قد لا تنظر في قضيته إلا بعد أن ينتظر فترة أخرى تمتد من ستة أشهر إلى اثني عشر شهرًا. لم تقل له إن وزارة الداخلية تستطيع الاعتراض على قرار المحكمة إن جاء في صالحه، وأنّ هذا قد يؤدي مرة أخرى، إلى الانتظار مدة تتراوح بين ستة أشهر واثني عشر شهرًا. قد تمضي سنين في حالة انتظار؛ ومن الممكن أن يستجد في حياته أي شيء. سوف يعاني؛ وسوف يصير زواجه تحت ضغط هائل. سوف تختفي أية قدرة لديه على التخطيط، أو حتى على تخيل الغد. قد يقرر أن يصعد في طائرة ويعود إلى أفغانستان. ولعل تلك هي النتيجة المُرادة من هذا التعذيب المديد – أو أنها نتيجة مرحَّب بها. لكن، إن فعل ذلك، فسوف يصير محرومًا من العودة إلى المملكة المتحدة، حتى بصفة زائر، مدة لا تقل عن عشر سنين.

«من ستة أشهر إلى اثني عشر شهرًا!؟». نظر إليها كأنه غير واثق من أنها تعرف كيف يعمل القانون في بريطانيا.

«وخلال هذا الوقت... ماذا؟ هل يُنتظر مني أن أذهب إلى عملي وأعود إلى زوجتي وأرى أصدقائي وأعيش حياتي كأنها حياة طبيعية؟».

«لا تستطيع العمل، يا عزام. لم يعد مسموحًا لك بأن تعمل».

استند إلى ظهر كرسيه وغطى وجهه بكفَّي يديه. لا تستطيع زوجته تسديد أقساط البيت بمفردها. وسيكون على أخيه أن يترك كلية الطب في كابول.

أشاحت بوجهها. مر بهما باصان شبه فارغين. كان هذا اليوم دافئًا؛ وكان

هذا الشارع الخالي من الأشجار أكثر دفئًا مما هو في جادة فيتزجونز القريبة ذات الأشجار الكثيرة والبلاط الأحمر. لندن... وكل ما فيها من طرق متباعدة.

لم تمض إلا بضعة أسابيع منذ أن تقدّم بطلبه. عادة ما تكون مدة الانتظار الوسطية عند تقديم طلب الإقامة الدائمة ستة أشهر. لم تسمع قبل الآن أبدًا عن شخص ذي سجل نظيف رفضوا طلبه نتيجة لكمة واحدة عقب اعتداء عنصري. لا بد أن في وزارة الداخلية من حَرِص أشد الحرص على تسديد هذه الضربة. لا تدري إن كان عزام هو المقصود بها، أو أنها ضربة موجّهة إليها.

أبعدت زهرة نظارة القراءة عن وجهها. وضعتها جانبًا. بالطبع، ستجعل أفضل محامٍ يتولى قضيته. وفوق هذا، ستكلم عضو البرلمان عن منطقة عزام، وهو عضوٌ برلمان جيد، كي يثير القضية مع وزارة الداخلية. قد تنظم من أجله تظاهرة أمام البرلمان. يعرفه الجميع بأنه الرجل الذي تصدى لذلك الشخص العنصري. سوف يشارك في التظاهرة عشرات الألوف، أو أكثر. سيحملون لافتات، وسيرددون الهتافات. سيرحبون بها عندما تصعد إلى منصة مُقامة على عجل في ساحة البرلمان، وسينظر إليها تمثالا دزرائيلي وتشرشل - وأيضًا تمثال ويليسنت فوسيت الذي أقيم في السنة الماضية. سيكون حضورها هناك تذكِرة بهيجة بكل ما يمكن القتال من أجله وبكل ما يمكن تحقيقه. لكنها... نظرت زهرة إلى فنجان القهوة أمامها ولم تستطع استجماع شتات إرادتها كي ترفعه إلى شفتيها... لكنها ليست واثقة من أنها لا تزال تعرف كيف تفوز. عشرات الآلاف، أو أكثر، ممن يأتون إلى التظاهرات تناقصت أعدادهم، وتناقصت هذه الأيام أعداد الناس المصمّمين على جعل مجرى التاريخ مائلًا صوب العدالة. تتزايد أعداد من هم في حاجة إلى مجموعات تساندهم. خاسرو التاريخ... في المستقبل المنظور.

نظرت إلى الرسالة من جديد. غامت الكلمات على الصفحة. غامت كلّها عدا أول جملتين. **رُفض طلبك من أجل الإذن بالإقامة. عليك الآن أن تغادر المملكة المتحدة.**

***

سارت مريم في الممر المفروش بالحصى في فيلا فيتشيلسي مرتدية فستانًا أسود اللون، مدوَّر الياقة، طويلًا يبلغ الأرض، ومعه سترة بوليرو قصيرة ياقتها مزينة بالخرز. انفتح الباب عند وصولها وقدَّمت إليها خادمة في مريلة بيضاء صينية عليها كؤوس من الشامبانيا. أخذت كأسًا وتابعت حركة يد موظف الاستقبال الانسيابية، فدخلت غرفة أخرى حيث كان موظف آخر في استقبالها كي يدلها على باب الخروج إلى حديقة الفيلا. لمحت في طريقها لوحة لماتيس وأخرى لميرو ورسمًا تخطيطيًا لعله لفان كوخ.

خطت في الحديقة حيث أصوات رجال مستمتعين بأن يكونوا شخصيات كبيرة بين شخصيات كبيرة. رجال بيض في ربطات عنق سوداء وبدلات سهرة لندنية. من الممكن أن يكون هذا مشهدًا سينمائيًا من أية حقبة غير هذه الحقبة. قد تظن هذا، لكنك ستكون مخطئًا.

بين الحضور امرأتان غيرها. إحداهن ربة البيت الذي يشغل زوجها منصب المدير التنفيذي في شركة للنفط والغاز. إنها المرأة الوحيدة المسموح لها أن تكون حاضرة مع زوجها. والمرأة الأخرى زوجة رجل أعمال روسي كبير صلاته مع الكرملين وثيقة إلى حد يجعل ظهور اسمه ضمن قائمة المتبرعين للحزب أمرًا غير مستحب، مع أن اسم عائلته متميز جدًا إلى حد يجعل الزوجة التي تشاركه إياه غير قادرة على تمويهه. هذه الأيام، يتناقص كثيرًا اهتمام الناس بالقشور!

أوه، ثمة امرأة ثالثة! إنها وزيرة الداخلية. ابتسمت لمريم واحدة من ابتسامات «مرحبًا يا أختي». استجابت مريم بنظرة غامضة توحي بأنها حسبت الابتسامة موجهة إلى غيرها. إن في باحة المدرسة قواعد تحكم علاقتك بأعداء أصدقائك. سارت صوب وزير المالية المُعيَّن حديثًا لأنها تعرفت عليه قليلًا في غداء مع مارغريت في «أثينيوم» منذ حكومتين، أي عندما كان وزيرًا للعمل، وكان هناك كلام عن مشروع قانون ضد الاحتكار يستهدف شركة «فينتشر فيرذر». أكد لهما أنه في صفهما لكنهما، هي ومارغريت، لاحظتا أنه أصر على طلب النبيذ كأسًا بعد كأس ثم انتهى

الأمر به إلى شرب ما يعادل زجاجة ونصف زجاجة - كان هذا ناطقًا بكل ما تلزمهما معرفته عن مدى صدقية كلامه. قالت ليلى في وقت لاحق: «*كان في مقدوري إخباركما بكل ما تريدان معرفته عنه*». قالتها بطريقتها تلك التي تزعم معرفتها بكل شيء عن كل شخص من أصول نيجيرية. رآها الوزير فصاح «أوليه». ظلّت لحظة قبل أن تنتبه إلى الصلة بين هذا وبين سترتها ذات الطراز الإسباني.

قال لها: «سررنا جميعًا برؤية اسمك ضمن قائمة المدعوين. نحن نحاول توسعة دائرتنا. أظنك قد ترغبين بمشاركتنا».

أجابته بنكتة، فقال: «هذا مضحك جدًا». تذكرت كيف لاحظت في وقت سابق أنه يقول عن شيء سمعه إنه مضحك جدًا، لكنه لا يضحك. تجاوزتها نظرته متجهة صوب غيرها، وظهر على وجهه تعبير سرور مبالغ فيه كثيرًا. بعد لحظة، بدأ حديثه مع ذلك الشخص. كان يحدثه من فوق رأسها. تنحّت جانبًا بقدر ما استطاعت من كياسة وسارت في اتجاه رجل لوَّح لها بيده محييًا، لكنها لم تعرفه.

كان هذا الرجل واحدًا من زملاء بابار في الدراسة في جامعة وارتون. التقته مع بابار في نيويورك في «نادي 21». نصحها بأن تطلب البرجر. تذكرت البرجر، ولم تتذكر الرجل. لكنها سرعان ما وجدت نفسها متورطة في حديث معه عن مدارس البنات في لندن. يعتزم الانتقال هذا الصيف إلى لندن مع أسرته (سوف يتولى إدارة الفرع الأوروبي لإمبراطورية الإنشاءات التي تملكها عائلته). طار من نيويورك كي يحضر هذه الأمسية. لقد انضم إلى «المجلس الأعلى» حتى قبل أن يجد لنفسه مكانًا يسكن فيه وقبل أن يجد مدرسة لبناته.

أنهت كأس الشامبانيا سريعًا وتلفتت من حولها باحثة عمن يملأها لها، وتذمّرت شاكية سوء الخدمة، فلم تترك له خيارًا غير أن يبحث لها عن كأس جديدة. بعد ذهابه، صارت قادرة على أن تجيل بناظريها في أرجاء الحديقة. رأت أشخاصًا كثيرين مجتمعين من حول رجل يقف عند

أزهار التوليب. لا بد أنه رئيس الحكومة. هي ليست على معرفة به أبدًا، لكن انطباعها عنه تأكد عندما اقتربت منه، فرأت كيف يتخذ مظهر الإصغاء الجيد إلى ما يُقال له: ذراعاه معقودتان على صدره، ورأسه مطرق قليلًا - لكن إطراقة الرأس تلك كانت كي لا يستطيع الرجال الواقفون من حوله رؤية عينيه تجوسان الحديقة بحثًا عن الوافدين الجدد. بلغت عيناه ثدييها. توقفتا عندهما. ارتفعتا إلى وجهها.

تمتمت في سرّها: «ابتعد عني». ثم رفعت كأس الشامبانيا الفارغة في وجهه.

صار إلى جوارها بعد ثوانٍ فقط. ومن غير توقّع، قال لها: «مريم خان. كنت في انتظارك». ابتسامة غزلية، ويد على ذراعها. ذات مرة قالت لها ليلى عندما عبّرت عن ضيقها إزاء هذا النوع من الأمور: لا *تقولي لي إن ارتداءك ملابس محتمشة هكذا خيار مقصود!*

«هل نحن على وشك بدء حديث عن توسعة هذا النشاط؟». قالت هذا وهي تنحني جانبًا كي تضع كأس الشامبانيا الفارغة على طاولة بحيث يتيح لها هذا الابتعاد عنه قليلًا من غير أن تكشف عن أنها راغبة في الابتعاد.

لا، لن يخوضا في ذلك الحديث. كانت لدى رئيس الحكومة أفكار أكثر أهمية عن إمكانية الاستفادة من امرأة تحمل اسم خان من أجل إصلاح صورة الحزب على المستوى الدولي بعد ما أصابها من أضرار. سوف يطلق حملة «بريطانيا مفتوحة أمام الأعمال» كي يبعث إلى العالم برسالة مفادها أن المملكة المتحدة مكان ممتاز للاستثمارات والأفكار، وأن الأبواب مفتوحة على مصاريعها أمام الجميع مهما تكن أصولهم. قال لها، إنه جرى رسم صورة مرعبة لمستقبل بريطانيا بعد انفكاكها عن الاتحاد الأوروبي. وقد حان وقت إظهار القدرات المتنوعة لدى هذه الأمة. يمكن أن تلعب مريم دورًا ممتازًا بأن تكون أحد الوجوه في هذه الحملة.

سألته: «سمراء من الخارج، ممتلئة نقودًا من الداخل؟».

«لا أظننا نقول هذا النوع من الكلام».

«نحن نفضل قول هذا النوع من الكلام على سماع تلك الكلمة الشائعة: تنوّع!».

ضحك رئيس الحكومة. كانت ضحكته حقيقية. كثيرًا ما ينتهي بها الأمر إلى أحاديث وديّة مع أشخاص فظيعين في اجتماعات العمل. وهم يحبونها. لقد اعتادت سماع عبارة «*لو أنهم كلهم مثلك*»، بقدر ما اعتادت سماع عبارة أخرى «*مَن الرجل المحظوظ الذي أتيتِ الليلة برفقته؟*». يمكنها أن تستخدم عباراتهم ضدهم، أو أن تعثر داخل الواحد منهم على صاحب النكتة، أو صاحب السِحر، أو رجل الأسرة، أو الولد الضائع. هذا مفيد. عليها أن تفعل كل ما يمكن أن يكون مفيدًا كي تعبُر هذه الأمسيات.

قال لها: «إذًا، هل أنت موافقة؟».

قالت: «لا أستطيع. أنا رئيسة مجلس إدارة Imij. ومن الواضح أن حكومتكم قد اعتزمت اتخاذ إجراءات في حق الشركة. كيف سيبدو الأمر إن كنت أمثّل حكومتكم وأتلقى صفعاتها في الوقت نفسه؟».

«آه، هذه معضلة».

«ثمة معضلة أخرى. يجري الآن حديث في شركتي. يود شركائي أن ننقل أعمالنا خارج بريطانيا نتيجة عدم الثقة بتطورات الوضع الاقتصادي هنا. أنا الوحيدة التي تدافع عن البقاء. لكن هذه التهديدات في حق Imij لا تعينني على الفوز في هذا الجدال. وبالمصادفة، انتهينا الآن من قبول المستثمرين في آخر صناديقنا. لقد جمعنا ستمئة مليون باوند من أجل الشركات الناشئة حديثًا في بريطانيا. لكني لا أستطيع أن أكون وجه حملة 'بريطانيا مفتوحة أمام الأعمال' إن كنت أوشك بدوري على نقل أعمالي إلى خارج البلاد. فما رأيك، أليس هذا صحيحًا؟».

دفن يديه في جيبيه وانحنى قليلًا حتى صار وجهه قريبًا من وجهها. قال: «أنت رائعة، ألست رائعة؟ لا بأس. لست أحاول خداعك. سوف ندفن قصة Imij وننتهي منها».

«أو يمكنك أن تقول شيئًا تمتدح به نجاح الشركة في التحرك سريعًا

كي تطور الشروط الخاصة بمواجهة الإساءات، وكذلك العقوبات المترتبة على الإساءات؛ أي التدابير التي اتخذناها فجعلت أي تدخل حكومي أمرًا لا لزوم له. هل فكرت في أن تكون مسجَّلًا في تطبيقنا؟ أنت تستخدم منصات وسائل التواصل الاجتماعي الأخرى، لكن لدينا مروحة واسعة من فئات الأعمار، وأنتم تريدون العمل لاجتذاب الناخبين الشباب، ألستم تريدون اجتذابهم؟».

قال رئيس الحكومة وقد وضع يده عليها من جديد: «أظن أن هذه بداية صداقة جميلة». كان إبهامه يداعب باطن ذراعها... «قد يكون علينا أن نرتب اجتماعًا خاصًا لمناقشة مواضيع ذات اهتمام مشترك».

أجابت: «قالت لي مارغريت رايت إننا سنتفاهم».

«مارغريت محقة دائمًا، محقة في كل شيء». ابتسم، وأبعد يده عنها. مارغريت صديقة حماته... «أرجو الآن أن تعذريني فأنا لا أستطيع أبدًا أن أمضي وقتًا في الحديث مع شخص أحب الحديث معه فعلًا. ليس هذا موجودًا ضمن التوصيف المهني لعملي». غمزة، ثم ذهب.

«مدهش!». كان صديق بابار يقف على مقربة منها وفي يديه كأسان من الشامبانيا، ناولها واحدة منهما ثم قرع كأسه بكأسها. أحست بالسِكر منذ الآن. كم يصير كلٍ شيء سهلًا ما إن يدخل المرء هذه الدائرة! وكم يكون إنجاز كل أمر بسيطًا! صفقة بمليار دولار تم إنقاذها في هذه الثرثرة. أصول اللعبة الكلاسيكية الرشيقة لا تتغير بتغير الأمم والقرون. تناولت جرعة كبيرة. احتمالات جديدة سرت في عروقها... قطرة ذهبية بعد قطرة ذهبية.

***

ضياء العصر ساقطٌ على شجرة الزيتون على الشرفة، متسللٌ عبر أوراقها إلى غرفة المعيشة يرسم ظلال أوراقها على الأرضية الخشبية. لا يزال في مستطاعها أن ترى أسرة خان مثلما كانت، أن تراها موزعة في هذه الغرفة – والد مريم جالس على الكنبة يحل الكلمات المتقاطعة في صحيفة التايمز، ووالدتها جاثية على ركبتيها عند الطاولة الصغيرة تتفحص نماذج قماش

من أجل إعادة تأثيث واحدة من الشقق المتداعية التي تعتزم بيعها بربح كبير جدًا، وشقيقتاها جالستان على طرفي الأريكة تقرأ كل منهما مجلتها ثم تنظر إلى شاشة اللابتوب ثم إلى الهاتف... مع توالي السنين. وقفت مريم بالعتبة تتأمل كيف يمكن أن يتشاطروا المكان نفسه ويظلوا منفصلين فيه. سوف تدخل الغرفة بعد لحظة؛ وسوف تسري فيها موجة اضطراب.

سألتها زهرة: «أتحسين حنينًا؟»، فهزت مريم رأسها نفيًا وخطت داخل الغرفة، داخل الغرفة الخالية الآن... الكنبة والأريكة ذهبتا إلى جمعية خيرية أثناء واحدة من نوبات «تجديد البيت» لدى أمها، وطاولة القهوة الصغيرة أخذتها شقيقتها الصغرى كي تضعها في بيتها في دبي. لم يبق هنا شيء غير شجرة الزيتون - قال المالكون الجدد إنهم يودّون الاحتفاظ بها وبالخزانة التي كانت في ما مضى تعرض «مجموعة غاردنر». الآن، صارت المجموعة في حاوية شحن ذاهبة إلى كراتشي.

قالت مريم: «لم أحب هذه الشقة يومًا. هل قلت لك هذا من قبل؟».

قالت زهرة: «لأنها ليست البيت الذي في أولد كليفتون». كانت تعني بهذا أنها تعرف السبب وما من حاجة إلى إخبارها.

أبدًا، لم تكن هذه الشقة منزلًا بالنسبة لها. وحدها زهرة يمكن أن تدرك كيف أحست مريم بأنها تركت نفسها هناك، في كراتشي، عندما انتقلت إلى لندن قبل تلك السنين كلها. سرعان ما استطاعت مريم استمالة الفتيات الأكثر شعبية في مدرستها الجديدة، وصار أداؤها المدرسي حسنًا، ولم تكن غير سعيدة بأي شكل ظاهر، حتى بالنسبة لها. لكن، كان لديها على الدوام هذا الإدراك بأنها لا تستطيع أن تكون «معروفة» هنا. لقد تركت خلفها كل ما لها من ظلال و«معانٍ خفية»؛ وصارت تطير كل صيف إلى كراتشي كي تعود إليها، إلى نفسها.

كان ذلك كله منذ أمد بعيد جدًا قبل أن تظهر ليلى وتُريها كيف يمكن أن يدخل شخص حياتها ويراها بعمق أكبر مما تظنه ممكنًا. مع هذا، ظل لديها

ذلك الإدراك لضعف صلتها بهذا البلد. ذات يوم، كان «الموطن» مدينة تعد بالملايين، ثم تقلّص فصار بيتًا في برايمروز هيل. وأما في الأسابيع القليلة الأخيرة، فقد أحست بنفسها «تتمدد» على مساحة إنكلترا كلها وتحتل فيها نوعًا جديدًا من الحيّز. تداعت إلى ذهنها عبارة «العودة إلى الوطن» عندما كانت تقف في حديقة تلك الفيلا في تشيلسي.

«ما أغرب الشقة من دونهما. تظنني ليلى أشعر بأنهم هجروني».

«لم تكوني لهم حتى يهجروك».

«هذا ما قلته لها. كل ما في الأمر أن ليلى تخشى أن أحس بالهجران عندما تسافر».

«أقنعيها بأن هذا ما ستشعرين به، وسوف تبقى».

«اتركني بحالي أيها الشيطان!».

ستبقى ليلى لأنها تحبها. بالمثل، ولأنها تحب ليلى، فسوف تجعلها تشعر بأن ما من مشكلة في سفرها. فوق هذا، كانت زولا شديدة الحماسة لفكرة ذهابها إلى المدرسة مع أبناء وبنات عمها الأكبر منها.

«إذًا، ليس هجرانًا، لكن...؟» دعكت زهرة بإبهام يدها ثلمًا في إطار باب الشرفة فتذكرت مريم كيف اصطدمت حافة خزانة المشروبات بالإطار وخلّفت هذا الثلم.

«يتضح الآن أنك ستشتاقين إلى أبيك وأمك عندما يسافران حتى إن كانا عديمي الفائدة».

فتحت مريم الباب المفضي إلى الشرفة، ثم خطت خارجة منه. هذه المنطقة من شارع كينغستون أكثر ازدحامًا من تلك المنطقة من الشارع نفسه حيث تعيش مارغريت. كتل سكنية متماثلة مبنية من القرميد الأحمر تحتل جانبي الطريق هنا. استندت إلى سور الشرفة تنظر إلى الشارع في الأسفل. امرأتان في سن الكهولة تسيران على الرصيف - واحدة منهما لها شعر فضي داكن وسترة صفراء، والثانية أطول منها قامة، بيضاء الشعر،

إحدى يديها في جيب بنطلونها القطني الأحمر. تعثّرت المرأة قليلًا ثم تابعت سيرها متجاوزة عثرتها، لكن يدها أفلتت من جيب البنطلون... ليست لها يد، كم فارغٌ فحسب. أمسكت ذات السترة الصفراء بالكم الفارغ وأعادته إلى جيب البنطلون الأحمر؛ أعادته كما كان حتى تبدو الذراع طبيعية. تابعت المرأتان سيرهما.

زهرة ومريم تحركتا قليلًا، صارتا أكثر تقاربًا.

قالت مريم: «كم ستكون الحياة مختلفة لو أنني أصغيت إلى ما كنت تقولينه عن حمد!».

«غريب أن تقولي هذا».

«الحقيقة أن ذلك كان بداية كل ما أدى بي إلى لندن».

«أدّت بك لندن إلى ليلى وإلى زولا؛ فهل لا تزالين حقًا مستاءة من ذلك؟».

«والآن... من هي التي تقول كلامًا غريبًا؟ منذ متى قررتِ أن الظلم يكف عن كونه ظلمًا إن أفلحت في تصويب مجرى حياتك من جديد؟».

«آسفة».

«أتتذكرين السلاسل الذهبية وتلك الاستعراضات الرجولية كلها؟ الاتصالات الهاتفية المملة التي لا آخر لها! يا إلهي، أمر محرج جدًا! الأشياء التي كان يقولها لي في تلك المكالمات... الأشياء التي لم أخبرك عنها أبدًا. كان في الثامنة عشرة تقريبًا، وكنت في الرابعة عشرة. تعلمين ما لم نكن نتكلم فيه أبدًا».

قالت زهرة: «أنا ذاهبة إلى المرحاض». ثم اختفت داخل الغرفة.

كادت المرأتان المسنتان تغيبان عن نظرها عند آخر الشارع. بدا لها أنهما غارقتان في الحديث - لعل تلك الانحناءة الطفيفة في ظهر المرأة الطويلة ناتجة عن قضائها العمر منحنية كي تسمع ما تهمس به صديقتها من أسرار.

عادت زهرة إلى الشرفة تمامًا عندما بدأت مريم تتساءل عما جعلها تتأخر في الداخل. قالت لها: «ما الذي لم نكن نتحدث فيه أبدًا؟».

«لماذا كان شديد الإصرار على مجيئك معنا؟ هل أرادك أن تكوني هدية لجيمي؟».

مدت زهرة أصابعها وأمسكت بزيتونة مجعّدة ظلت متعلقة بغصنها بعد مرور شهور الشتاء ولم تشأ تركه. انعكاسات فضية على أوراق الشجرة المهتزة في النسيم. سألتها: «ماذا تفعلين إن رأيت حمد من جديد؟».

«لم أفكر في هذا الأمر أبدًا. فكرت كثيرًا في ما قد أفعله إن رأيت جيمي... وقد رأيته. رأيته بطرف عيني بعد مرور سنين طويلة. وأما عن حمد!لا يستحق التفكير فيه. قبعة كبيرة من غير ماشية، كما يقولون في تكساس».

«كيف تعرفين ما يقولون في تكساس؟».

«واحدة من حلقات دالاس، على ما أظن. من أين يمكن أن نكون قد حصلنا على معرفتنا العميقة بتكساس إلا إذا كانت مستقاة من مسلسل دالاس؟». أشارت إلى سياج يقع إلى الناحية الأخرى من الطريق حيث كانت عليه لافتة لم تستطع تبيّنها من هذه المسافة، لكنها تعرفها جيدًا. تقول اللافتة «ملاحظة مهذبة» قبل أن تمضي في سرد تحذير صارم من أنه سيتم احتجاز أية دراجة يضعها صاحبها هنا. «أعتبر أن معرفتي العميقة بلندن قد بدأت يوم اكتشفت مقدار ما في كلمتي 'ملاحظة مهذبة' من عدوانية».

مرّت زهرة بيدها على سور الشرفة المصنوع من الحديد. «شعرتُ بأن إنكلترا موطني منذ اللحظة الأولى تقريبًا. ليست إنكلترا هي السبب، بل وجودك هنا. لا أعني وجودك أنت فقط، بل هذه الشقة بما فيها من لوحات وأثاث من بيتكم في أولد كليفتون. دخلتُ هذه الشقة أول مرة، وكان ذلك بعد عصر يوم أربعاء بعد المدرسة عندما كان أبي في استوديو التلفزيون».

«أتذكر كيف أراد أبي وأمي أخذك إلى مطعم فخم للعشاء في أول يوم لك في لندن. لكنك ما كنت راغبة إلا في الذهاب إلى ماكدونالدز. إلا أنك خفت أن يكون في قولك هذا وقاحة».

«لذا، أخذتني إلى ماكدونالدز حيث أكلت همبرغر بالجبن بربع باوند،

ثم سرنا حول حديقة هايد بارك كلها، سرنا بسرعة شديدة كي تصير لدينا شهية لتناول عشاء آخر. كانت تلك أشد الأمسيات إثارة في حياتي كلها».

مسّت بيدها الجدار الذي خلفها فانتبهت مريم إلى أنها أمضت طيلة بعد الظهر في وضع يدها على كل ما في الشقة من سطوح مختلفة... «على أية حال، واحدة منا حزينة جدًا لوداع هذا المكان».

حان وقت الذهاب. لقد تفقدتا كل درج وكل خزانة للتحقق من عدم بقاء شيء فيها. لم تجدا أي أثر لحياة عائلة خان. ستخرجان بعد ثوانٍ قليلة، وستقفل مريم الأبواب وتضع المفاتيح في صندوق البريد. لن تعود إلى هذا المكان أبدًا.

أدارتا ظهريهما إلى الشارع كي تلقيا على غرفة المعيشة نظرة أخيرة. تلك الغرفة التي تضاءلت بعد إزالة كل ما كان فيها من أثاث. امتد ظلّاهما على الأرض متساويَين طولًا، وأوراق شجرة الزيتون مرتعشة من حولهما.

***

[أين اختفيتِ؟]

[أظن أنه حان الوقت كي ينتهي هذا كله]

[بمعنى؟]

[لا تشترِ بطاقة القطار تلك من باريس]

[ألن تشرحي لي الأمر؟]

[لا أريد رؤيتك]

[هل يعني هذا أننا سنكتفي بتبادل الرسائل النصية؟]

[هذا أيضًا لا أريده]

[سوف تغيّرين رأيك]

[أنت لا تعرفني حقًا]

[الزمن سيقرر].

تركت لديها هذه المحادثة قدرًا من الخيبة، ولا شيء أكثر من ذلك.

الصَّيف

وقت الصيف في لندن، ومباراة تجريبية بين باكستان وإنكلترا. بدا أن كل من كانوا مع زهرة أيام المدرسة موجودون هنا، في ملعب لوردز. ازدحمت المقصورة الخاصة بشركة «فينتشر فيرذر» بعدد منهم. كانوا يشربون نبيذ روزيه وبينز. الرجال يرتدون بدلات من الكتان، وقبعات قش أحيانًا، تعكس أول اتصال لهم بهذا النوع بعينه من «الطابع الإنكليزي» من خلال الفيلم الذي اقتبسته «بي بي سي» عن رواية «برايدزهيد ريفيزيتد»، ذلك الفيلم الذي شاهده، أوائل الثمانينيات، مجتمع كراتشي كله من خلال تسجيل فيديو مقرصن. كان مظهر بعضهم يلفت الأنظار بما فيه من تقليد مرح مبالغ فيه. بدا الجميع كأنهم قد ارتدوا ملابس تناسب دورًا في حين كانوا يقرأون سيناريو لدور آخر. كانت ملابس النساء أكثر تنوعًا - ارتدت زهرة فستانًا طويلًا حتى الكاحلين له شريط مربوط خلف رقبتها. ذراعاها عاريتان، وأعلى ظهرها أيضًا. ارتدت مريم البنطلون الأخضر والقميص الأبيض اللذين ترتديهما دائمًا في أول يوم من أيام المباريات التجريبية... مسلكها الوحيد الدال على التطيّر. منذ زمن طويل، صارت مريم مركز النشاط الاجتماعي بالنسبة إلى أصدقاء المدرسة القدامى الذين يأتون من كراتشي ودبي ونيويورك. يضبطون مواعيد عطلاتهم على توقيت مباريات لوردز كلما كان فريق باكستان مشاركًا فيها. تجد زهرة نفسها في دهشة دائمة إزاء الزمن الطويل الذي تمضيه مريم حتى مع أكثر الناس إزعاجًا، ممن لم يكونوا جزءًا من حياتها المعتادة منذ كانت في الرابعة عشرة. تبدي كرمًا لا حدود له لأي شخص من أيام طفولتها الذهبية «يبذل جهدًا» -هكذا تقول مريم فتبدو مثل زينو- حتى إن كان ذلك الجهد الذي يبذله

لا يتجاوز كتابة رسالة نصية تقول إنه سيكون في لندن في هذا التاريخ، وهو في شوق شديد إلى رؤية مريم. أوه، وبالمناسبة، هل تعرف مريم كيف يمكن الحصول على بطاقات لحضور تلك المباراة في لوردز بعد أن نفدت البطاقات كلها؟

كان تسامح ليلى مع هذا كله مفاجئًا؛ لكنها لم تقبل أن تأتي معهم كي تتابع مباراة في الكريكيت. لذا، كانت زهرة غير قادرة على أن تستفيد منها كي تدفع عنها هذا الإحساس بأنها دخيلة... إحساس لا يفارقها أبدًا عندما تكون مع هذه المجموعة ممن كانت بين أهلهم -بل حتى بين أجدادهم، بعض الأحيان- معرفة في باكستان، هذه المجموعة التي لا تكف عن الحديث عن كيف كانت ابنة عم واحد منهم كنّة عمة واحد آخر. انحنت في مقعدها على الشرفة ونظرت إلى الملعب الأخضر، والرجال المتناثرين فيه بملابسهم البيضاء. كانت المدرجات غاصة بالناس -الوجوه البيض أكثر من الوجوه السمر- لا يرى المرء هذا في أية مباراة أخرى من مباريات إنكلترا وباكستان. إلا أن قواعد العضوية في ملعب لوردز، وبطاقاته ذات الأسعار المرتفعة ارتفاعًا عجيبًا، تجعله مكانًا مختلفًا عن أي مكانٍ آخر. لا تزال المباراة بطيئة: اللاعبون الكبار غير مشاركين بعد، ولا نقاط مسجلة حتى الآن، ولاعبا الإرسال جيدان لكنهما يتوخيان الحذر بعد ما شهده هذا اليوم من نقاط كثيرة في وقت سابق. الحر شديد هنا لأن ما من سقف فوقهم. في الملعب، كانت قمصان اللاعبين ملتصقة بظهورهم لشدة تعرقهم. كان أكثر ضيوف مريم في القسم الداخلي من المقصورة حيث مكيفات الهواء... يتابعون المباراة على الشاشة الموجودة هناك ويتبادلون آخر أخبارهم. زهرة نفسها كانت في الداخل ولم تخرج إلا منذ بضع دقائق، عندما انتقل الحديث من مناقشة ما إذا كانت إضافة البطاطس إلى البرياني أمرًا محبَّذًا، إلى تحليل الأداء الرائع في السوق لأسهم شركة بدا لها أن الموجودين جميعًا قد استثمروا فيها استنادًا إلى نصيحة من مريم. ليست زهرة شديدة الولع بالأحاديث التي يقاس النصر والهزيمة فيها وفق مؤشرات الأسهم.

أتى بابار وجلس إلى جوارها ومد يده كي يأخذ منها المنظار الذي كانت تستخدمه كي تراقب كيف يمسك لاعب الإرسال مضربه مثلما علّمها والدها. ناولته المنظار من غير أية كلمة مستمتعة بذلك الإحساس بالألفة الذي يجعل تصرفاتهما قادرة على تجاوز حدود الأدب المألوفة: ما من حاجة إلى «من فضلك» أو «بكل تأكيد». مسّت ركبته ركبتها عندما انحرف في مقعده قليلًا كي ينظر إلى شرفة اللاعبين... حركة عادية لا تثير شيئًا. كان بابار مستثمرًا مصرفيًا في نيويورك له زوجة وابنتان. مع أنه وزهرة لا يرى أحدهما الآخر إلا نادرًا منذ خمس وعشرين سنة، فإن بينهما ألفة فيها حنين حلو إلى الماضي، ألفة كأنها تذكرة بأهواء الطفولة وبالقبلات الأولى... قبلتها الأولى، على الأقل، في ضوء القمر عند الشاطئ. كان ذلك في الصيف الذي سبق دخولها إلى الجامعة. لم تصل إلى كامبريدج من غير أية خبرة على الإطلاق. كان بابار هدفًا مناسبًا للحظة رومانسية صيفية لم تعن شيئًا... وعنت كل شيء.

قالت له: «ألم تعد قادرًا على سماع مزيد من حكايات ’كيف علّم جدي جدك سباحة الكراول‘».

رفع بابار كتفيه ثم خفضهما مدَّعيًا عدم اهتمامه بتلك الأمور كلها التي كانت تشغل باله في ما مضى. قال: «خرجت كي أرى إن كنت بخير. يبدو عليك اليوم أنك ضائعة قليلًا».

«من الممكن أن أعيش صدمة ثقافية عندما أنتقل بين حياتي المهنية وهذه المجموعة». قالت هذا وأشارت إلى من هم خلفها.

«هممم! أظن بأنني أيضًا واحد من ’هذه المجموعة‘. خاصمتك!». ضم بابار أصابع يده ومد الإصبع الصغير. أيام المدرسة، كانت هذه إشارتهم وتعني «الصداقة انتهت». تكشيرة استياء على وجهه.

قالت زهرة: «صديقان»، ثم طوت إصبعه الصغرى وبسطت السبابة والوسطى. مدتهما حتى صارا إشارة «عدنا صديقين».

قال بابار: «لا يجوز أن تتركي السياسة تعترض طريق الصداقة».

«حياة الأشخاص الآخرين ليست سياسة. وعلى أية حال، أنا الآن أجلس في مقصورة فينتشر فيرذر. أكاد أعجز أن أتلمّس الطريق بين هذه الفروق كلها».

ظهرت صبا وقالت: «انظرا إليكما جالسين هنا. صديقان حميمان». انحنت مستندة إلى سور الشرفة رافعة هاتفها صوب الصفوف العليا في المدرجات.

سألها بابار: «صورة من تلتقطين؟».

قالت وهي تؤرجح حوضها يمينًا وشمالًا: «الجميع». كان هاتفها يصدر صوت كاميرا تقليدية مع كل صورة تلتقطها. «Imij مدهش جدًا. زهرة، ما هو الاسم المستخدم الذي تختبئين خلفه؟ لا أستطيع العثور عليك. أوه، سبعة».

«لست مختبئة. كل ما في الأمر هو أنني لست هناك. سبعة ماذا؟».

قال بابار: «تعرفت على سبعة أشخاص في المدرجات. لست مضطرة إلى أن تكوني معادية للتكنولوجيا إلى هذا الحد لمجرد أن مريم تعمل في هذا الميدان».

«سأقول لك إن مريم كانت، من بين الأصوات الكثيرة، التي نصحتني بأن أظل بعيدة عن مواقع التواصل الاجتماعي. وأنت، ألا تجد التعرّف على الوجوه أمرًا مخيفًا بعض الشيء؟».

همس لها: «أنا لست مشتركًا في التطبيق. لا أريد أن تعثر عليَّ صبا في مكان مزدحم».

أطلقت صبا صوت «صبا المنزعجة» التي تريد اجتذاب الانتباه إليها. تجاهلها كل من زهرة وبابار. أطلقت ذلك الصوت من جديد. مسّت قدم بابار قدم زهرة بحركة تآمرية. واصلا تجاهلها فانسلت عائدة إلى الداخل.

«يا إلهي، الطقس حار!». كانت زهرة تستخدم مجلة «تست سوفينير» كأنها مروحة. فتحتها من وسطها ووضعتها مقلوبة فوق رأسها مثلما تضع قبعة.

أمسك بابار صفحتي غلاف المجلة من الجهتين وطواهما إلى الأعلى. قال لها: «حان وقت الظهور بقبعة هولندية تقليدية». أزاحت يده وكانت مسرورة بلا مبالاتها بأن يبدو مظهرها سخيفًا. علا صوت مريم فوق أصوات الجميع فابتسم بابار ابتسامة إعجاب. «لا شيء يوقفها، أليس كذلك؟».

«هي دائمًا هكذا».

«صحيح. أعني في ما عداك أنت، كلنا هنا أوباش مندفعون خلف الأرباح في حياتنا المهنية. لكن أظن أكثرنا سوف يحجم عن الانضمام إلى... ما اسمه؟ المجلس الكبير؟ الطاولة العليا؟».

قالت زهرة: «المجلس الأعلى». قالتها بعد لحظة صمت قصيرة أحست فيها كأن حجرًا مربوطًا بقلبها قد سقط، فجذبه جذبًا مؤلمًا.

شهقة عميقة أتت من الملعب كله عندما قذف لاعب الإرسال الكرة طائرة في الهواء، لكنها سقطت بعيدًا عن متناول زملائه في الملعب. منح هذا زهرة لحظة كي تستدير وتنظر إلى مريم. لم تتغير... مريم كما هي دائمًا.

قالت له: «كيف سمعت بالمجلس الأعلى؟».

«شخص أعرفه من جامعة وارتون قابل مريم في واحد من لقاءاتهم. لم أكلمه منذ عشر سنين. لكنه اتصل كي يسألني إن كان يستطيع الحصول على رقم هاتفها، لأنه، بكل تأكيد، لا بد له من التعرف إليها عندما ينتقل إلى لندن. من الواضح أنها أفلحت في تخليص Imij من المتاعب وحصلت لنفسها على مركز 'سفيرة الأعمال' المدهش، فضلًا عن أنها صدّت رئيس الحكومة عندما حاول التقرب منها، وذلك كله خلال ثلاثين ثانية فقط». انحنى مقتربًا من سور المنصة كي يتابع اللعبة بشكل أفضل. ظهر هناك ما يوحي بأن المباراة موشكة على أن تشهد تحولًا. تحققَ توازن بين لاعب الإرسال وبقية اللاعبين. والآن، سيقوم أحدهم بأمر رائع، أو بأمر غبي. هذا واحد من الأمور التي تعلمك إياها لعبة الكريكيت - يكون التوازن دائمًا محطة في الطريق، لا نقطة الوصول.

«في حقيقة الأمر... من الذي أحاول خداعه هنا؟ لن يحجم أحد منا عن الانضمام إلى شيء من هذا القبيل إذا كنا سنستفيد منه إلى هذا الحد». قال هذا ولكز كتفها بكتفه... حركة موحية بالثقة أراد بها القول إنها تستطيع إخباره بحقائق لا يمكن أن تقر بها في أحوال أخرى... «إذا كان لك أن تحرري شيكًا من أجل الحكومة فتتنازل بالمقابل... ما الذي تفعلين من أجله هذه الأيام... رقابة الدولة؟... أفلن تقبلي هذا؟».

قالت: «لا»، ثم انضمت إلى موجة التصفيق التي انفجرت عندما عاد واحد من قاذفي الكرات السريعين إلى القاعدة وقذف الكرة بقوة شديدة... مع أنها جاءت بعيدة جدًا.

قبّل بابار وجنتها. «لم يتغير أيّ منا منذ أن كنا في الخامسة عشرة. أليس كذلك. لست أعرف إن كان هذا مبعث حزن أم اطمئنان؟».

«الخامسة عشرة؟ لماذا لا تقول الثامنة؟». كان كلا الأمرين صحيحًا، وغير صحيح. وكان لقاء أصدقاء المدرسة -بابار وصبا- بعد سنين كثيرة تناوبًا دائمًا بين الألفة والغرابة.

«أتعلمين أنني أحسدك على صداقتك مع مريم. كنتما صديقتين دائمًا». التفت كي ينظر صوب مريم، فالتفتت زهرة بدورها. رأتها تقف عند الحد الفاصل بين الداخل والخارج، تضع إحدى يديها في جيبها ويدها الأخرى تتحرك وهي تحكي كيف أخذت زولا إلى سفارة باكستان كي تحصل لها على تأشيرة من أجل السفر إلى كراتشي. ضحك الجميع كثيرًا عندما قصَّت عليهم مريم كيف رفض الموظف إصدار التأشيرة إلى أن تأتي مريم بوالد زولا ووثيقة الزواج. في نهاية المطاف، بالطبع، كان على والدها أن يجري اتصالًا هاتفيًا، فتدخل سفير باكستان كي يحل المشكلة، متظاهرًا بأنه لا يعلم شيئًا عن «الوضع العائلي» الكامن خلف تلك المشكلة. كانت زهرة موقنة من أن هذا الجمع من الأصدقاء ليس خاليًا من العنصرية والمواقف المضادة للمثلية الجنسية، لكن هذا لم يفلح في أن يمسّ مريم التي كانت تعتبر كرَمها نوعًا من «واجبات النبالة» فلا تشغل نفسها كثيرًا

بأفكار من يصيبهم هذا الكرم ولا بآرائهم. كان من السهل تخيلها في واحد من لقاءات «المجلس الأعلى» وهي تغوي أصحاب النفوذ بما تستطيع إظهاره من ثقة مطلقة بأنها واحدة منهم.

لقد قالت مريم لزهرة عندما أخبرتها بحكاية عزام، *إذًا، لم يفد شيئًا ترك ابن الحرام ذاك يذهب طليقًا من أجل حماية هذا الرجل!* وعندما قالت لها زهرة إنها لا تستطيع أن تتخلّص من الإحساس بأن وزارة الداخلية فعلت ذلك بدافع من الغل كي تنتقم منها. سألتها مريم: *هل تظنين هذا؟* حتى تلك اللحظة، لم تكن زهرة قد كفت عن التفكير في احتمال أن ترى مريم تقف في الجانب الآخر من ميدان المعركة... إن هي دققت النظر إلى الحد الكافي. كانت تعتقد أن صداقتهما خطٌّ لن تتجاوزه مريم أبدًا.

انفتح باب القسم الداخلي في المقصورة، وخرجت منه صبا قائلة بنبرة انتصار: «انظروا من وجدت؟».

في الملعب، سجل لاعب الإرسال نقطة -أول نقطة منذ زمن- فانفجر الهتاف والتهليل بين الجموع لحظة دخل حمد المقصورة. أزاحت زهرة المجلة عن رأسها. فتح حمد ذراعيه بحركة المنتصر... واثق قليلًا، مرتبك قليلًا، محاولًا ألا يكون هذا ولا ذاك. تقدّم صوبه واحد ممن في المقصورة -شقيق صبا- وحيّاه بكلمات حماسية. نظرت زهرة إلى مريم ورأت كيف أرغمت نفسها على المسلك المهذب، أرغمت نفسها على سؤاله: «حمد، ماذا تحب أن تشرب؟».

قال حمد: «قالت صبا إن عليَّ أن آتي كي ألقي عليكم التحية. مع هذا، عليّ أن أمنحكم فرصة الاستمتاع بقذفي خارجًا».

قالت مريم بنبرة شديدة البرودة: «كان الطرد مرة واحدة كافيًا». لم يكن أحد غير زهرة قادرًا على رؤية الغضب الذي يغلي في داخل مريم.

أنبأهم زئير الحشد في الملعب بأن باكستان سجلت نقطة جديدة فتحول انتباه الجميع إلى شاشة التلفزيون كي يروا إعادة المقطع. دخل بابار مسرعًا كي يشاهد الإعادة معهم. ظلت زهرة وحدها على الشرفة،

لحظة واحدة قبل أن يراها حمد فيتقدم منها. أحست اقترابه بجسدها، لا بعينيها فقط.

كان ينظر إليها مباشرة جدًا، حتى عندما وضع إحدى يديه على ظهر مقعد وقفز من فوقه بدلًا من أن يخطو عدة خطوات جانبًا ويسير نازلًا الممر الفاصل بين صفي المقاعد.

قالت له: «مرحبًا». قالتها كي تكسر التوتر الفظيع، توتر انتظار أن يقترب أكثر.

«مرحبًا». قفز صف المقاعد الثاني فلم يبق بينهما غير مقعد واحد. لم يرتدِ بدلة من كتان، ولم يضع قبعة من قش. كان في بنطلون جينز أسود وقميص كريكيت باكستاني من كأس الأبطال لسنة 2017. «في النهاية، لم ألغ بطاقة القطار من باريس».

نادتها مريم: «زهرة، تعالي كي تشاهدي الإعادة».

قال حمد: «الظاهر أنك في حاجة إلى من ينقذك مني». كان يحمل في يده كأس نبيذ روزيه مثلجة، فمد يده وضغط بالكأس على عنقها. كانت في برودة الكأس على جلدها الحار لذة حادة. ابتسم لها ابتسامة عريضة وتأملت عيناه كل ما كشف عنه فستانها من غير أي حرج في شأن وضوح نواياه. أحسّت بتلك اللذة أعمق فأعمق... أحستها تذكرةً ومقدمةً لرغبة متبادلة ظلت بعيدة عن حياتها أطول مما ينبغي.

***

في تعجّلها الوصول إلى الفراش، لم تغلق زهرة ستارة النافذة إغلاقًا تامًا. وكان معنى هذا بقاء ثغرة تستطيع من خلالها أن ترى شجرة الصفصاف وما يلقيه ضياء الشمس عليها من رسوم متغيرة مع حركة أوراقها وأغصانها، في حين كان حمد يفعل ما أراد فعله منذ زمن بعيد. كانت المداعبات الأولى مثيرة جدًا، لكنها استمرت زمنًا قصيرًا... الآن، بدأ أمر آخر.

قال لها: «هل اقتربتِ؟».

قالت له إنّ ما شعرت به منذ ما صار الآن يبدو دهرًا كاملًا أن لا بأس

بهذا، لكنه ليس الوضعية المناسبة التي تستطيع أن تصل بها إلى حيث تريد الوصول.

قال لها: «وضعياتي كلها مناسبة»، ففهمت من كلماته أن هذا ما يحب فعله. قالت له إنه حسن... ليست تفضيلات الناس متطابقة، وفي مقدوره أن يفعل بعد ذلك أمورًا أخرى من أجلها. الآن، بدأ يتبادر إلى ذهنها أن عبارة «وضعياتي كلها مناسبة» ليست إلا قناعة حقيقية عنده.

قالت: «اقتربتُ كثيرًا»... إجابة أتت من ذلك الجزء منها الذي يجعلها غير قادرة على الخروج من المسرح عند الاستراحة مهما تكن المسرحية رديئة.

بعد قليل من ذلك، قال حمد: «هكذا ينبغي أن يكون الأمر»، واضجع مستندًا إلى مرفقه، ذراعه من حولها، وإحدى ساقيه فوق ساقها. كانت المروحة الأرضية في الزاوية تُحرّك مواضع مختلفة من الغرفة مع دورانها يمينًا وشمالًا - ارتعاش أشعة الشمس المتسللة عبر فتحة الستارة، ورقصة صغيرة لأزهار التوليب على طاولة الزينة، ورفرفة ملاءات السرير.

رُن هاتفها. ليست هذه الرنة الأولى هذا العصر التي هي الرنة المخصصة التي اختارتها زولا حتى تستطيع زهرة أن تعرف دائمًا أن مريم تتصل بها. لم يبق حمد طويلًا في مقصورة «فينتشر فيرذر» في الملعب. وقد خرجت زهرة بعد دقائق من انصرافه. خرجت مع بدء استراحة الغداء عندما كانت مريم منشغلة بتوزيع الأطباق. قالت لبابار إن لديها عملًا يجب عليها أن تتابعه. قالت إنه يجب أن يخبر مريم بهذا. ما يمكن أن تقوله لمريم -عن حمد، وعن المجلس الأعلى أيضًا- سيأتي وقته في ما بعد.

انحنى حمد وقبّل ثديها فظنّت أن المرحلة التالية ستكون أفضل... ربما. لكنه اعتدل من جديد، وكان واضحًا أن تلك القبلة لم تعن فاصلة، بل نقطة في آخر السطر.

قال لها: «كان عليَّ أن أجعلك تجلسين معي في المقعد الخلفي».

لم تفهم هذا. في المقعد الخلفي في سيارة التاكسي في طريقهما إلى

شقّتها، كانت يده تداعب ساقها وكانت تبعث شحنات كهربائية عبر نسيج فستانها الرقيق.

مس ذلك الموضع فوق ردفها -الموقع الذي اكتشف أنه يثيرها- اكتشفه مصادفة، لا قصدًا. قال: «كان ينبغي، في ذلك اليوم، أن أعلم بأمر مريم. ما هي...».

قالت زهرة: «ما هي؟». أدركت الآن أي مقعد خلفي كان يعنيه. ظنت أنها فهمت أيضًا ما كان يعنيه بما قاله عن مريم.

قال غير منتبه إلى تغيّر نبرة صوتها: «نعم. قولي لي الحقيقة؟ ألم تحاول معك شيئًا؟».

انتصبت جالسة وجذبت الملاءة صوبها. غطت بها ثدييها. «لماذا كنتُ هناك أصلًا؟... في سيارة جيمي. لماذا طلبتَ مني الذهاب معكم؟».

«رأيت كيف كنت تنظرين إليّ. وعلمت أن في دخيلة الآنسة زهرة علي أكثر مما تود أن تفصح عنه. لذا، قلت في نفسي إن علينا أن نمنحها فرصة الكشف عن الفهد الذي فيها». ضحك راضيًا عن نفسه أشد الرضا.

«هل يعني هذا أنني كنت هدية لجيمي؟ كم كانت سنّه؟».

«لا حاجة إلى التعبير عن الأمر بهذه الطريقة». كانت يده ترسم دوائر صغيرة على فخذها، لكن جسدها كان قد أغلق أبوابه أمامه، «من حسن حظكما أننا كنا شابَّيْن طيبين. آخر الرجال المحترمين في كراتشي».

مدت يدها تحت الملاءة فأبعدت يده عنها: «كيف؟ من أين لكما هذا؟».

كان هو من انتصب جانبًا جالسًا وقد جعله كلامها يشعر بالإهانة، «أوه، ماذا بك؟ إن كان لأحد أن يحمل ضغينة بسبب ذلك اليوم، فهو أنا. لقد طُردت من المدرسة. أساء هذا إلى قبولي في الجامعة. حتى الآن، لا يزال في كراتشي من ينظرون إليّ نظرة غريبة لأنهم يظنون بأنني اختطفت تلميذتي مدرسة وفعلت بهما أمورًا لعلهما لم تريدا أن أفعلها. في حين أن الحقيقة هي...».

«الحقيقة هي أنك كنت مذعورًا. لست أدري من أثار ذعرك أكثر من غيره، جيمي أم مريم؟». رأت أن سهمها قد أصاب هدفه فتابعت. إن كان لا يريد منحها نوعًا من اللذة، فسوف تسعى خلف نوع آخر... «كان عليَّ أن أفهمك منذ ذلك اليوم... أن أعرف ما أنت».

لم يستطع منع نفسه من سؤالها: «وما أنا؟».

«أنت مَضيعةٌ للوقت، بكل معنى الكلمة».

شتمها. كان واضحًا أنه يحاول العثور على لحظة درامية كي يغادر الفراش، لكن قدميه كانتا عالقتين بين الملاءات. ظل لحظات طويلة -لحظات أرضتها- يبدو في غاية الحماقة وهو يحاول تخليص نفسه.

«أرجوك، يا إلهي... ليس مرة أخرى!».

لم يكتف بباب غرفة النوم، فقد صفق باب الشقة أيضًا في طريق خروجه منها. نهضت واقفة، وربطت حزام ثوبها البيتي. فتحت الستارة، ثم فتحت النافذة أيضًا كي تخرج رائحته من الغرفة، كي تخرج رائحتهما معًا. اعترتها الدهشة لما اكتشفته في نفسها من قدرة على ارتكاب الحماقات الغبية. هذه سقطة جديدة فاقت كل ما قبلها. على الدوام، كانت نزواتها تأتي مغلّفة بنوع من ذريعة مخادعة؛ لكن الذريعة لم تكن يومًا رديئة إلى هذا الحد. واحد من القضاة أيام كانت تعمل محامية. وناشط من أجل حقوق المثليين، من المدرسة القديمة، رأى أن مما يؤذي سمعته ألا يُعتبر ممن يميلون إلى الجنس الآخر أيضًا. عضو برلمان له سجل تصويت بشع. نعم، لديها أيضًا -أو كانت لديها- مغامرات عارضة... حمامات النوادي الليلية... لكنها هناك لا تكون مضطرة إلى أن تعرف عن الآخر أي شيء يتجاوز حميمية الجنس وهي نصف عارية. لم تستطع إيقاف نفسها عن تذكر ابتسامته وكم كان مزهوًا بنفسه عندما قال «*آخر الرجال المحترمين في كراتشي*». تغلغل ذلك تحت جلدها، ولا يزال يتغلغل داخلها. كم مرة قالت لنفسها إنهما، هي ومريم، كانتا محظوظتين تلك الليلة... وأما أن تسمع هذا منه!... منه!

اهتز هاتفها. تناولته واستعرضت كل ما أتاها من رسائل في فترة بعد الظهيرة.

يوم الأحد ليس مخصصًا من أجل جلوسك خلف المكتب.

حتى أنا أعرف هذا (أكثر الأحيان). هلِ ستعودين؟

أووف، حمد! أشكر الله لأنه لم يبق طويلًا. عم كان يحدثك؟

إنها مجزرة رائعة هنا. لا تفوّتي رؤية أهم لقطات المباراة.

قال لي بابار إنه تحدث معك عن المجلس الأعلى. ألهذا ذهبتِ؟

ضبطت زهرة هاتفها على الوضعية الصامتة، ثم نزعت الملاءات عن الفراش وأخذتها إلى الغسالة. أغلقت باب المطبخ حتى لا تسمع صوت الغسالة، ومضت إلى غرفة الجلوس بيدها فنجان شاي كبيرًا، ثم اتصلت برقم الهاتف الوحيد في العالم كله الذي لا تزال تحفظه.

حيّاها والدها: «يا لهذا اليوم!». يحدث أحيانًا أن تتابع مقتطفات من برنامجه التلفزيوني القديم فينكسر قلبها قليلًا عندما تكلمه بعد ذلك، فتسمع ما أصاب صوته من تغير مع تقدمه في السن: «وأنتِ، هل كنت هناك؟».

قالت: «لقد تركت المباراة قبل أن تنتهي»؛ عادة ما يكون والداها في لندن وقت مباريات لوردز، لأن والدها يستمتع كثيرًا بأنهم لا يزالون يرحّبون به في «مقصورة الإعلاميين» مع أنه تقاعد سنة 2010، عندما حطمت قلبه فضيحة ترتيب النتائج مسبقًا. لكنهما أجّلا رحلتهما إلى لندن هذه المرة إلى أن تُشفى والدتها من إصابة في كاحلها.

سألها: «هل خرجتِ من الملعب وقت الغداء؟ لكنها اللحظة التي بدأت مجريات اللعبة تنقلب عندها. لماذا تركت المباراة؟».

أجابت: «دعني أسمع الأصوات في الخارج».

منذ زمن طويل، انتقل والداها من «سي فيو» إلى بناية شقق سكنية حديثة أكثر فخامة لا تبعد عن مسكنهم السابق أكثر من ميل واحد على

امتداد «كليفتون بيتش». سمعت صوت فتح النافذة الذي أجج رغبتها، ثم مد والدها يده بالهاتف خارج النافذة. كانت الأمواج تتكسر على الشاطئ عنيفة، وزعيق النوارس... زعيق ليليٌّ مثل بقية كراتشي كلها. مرت دراجة آلية مسرعة. لا شك في أنها تركت آثارها على الرمل الرمادي بين بقايا البلاستيك وغير البلاستيك مما علق بشباك الصيادين. إنها الأصوات التي عرفتها زهرة في مراهقتها.

قالت عندما عاد والدها إلى الهاتف: «غضبتُ من مريم، فغادرت».

صدر عنه صوت استياء. تستطيع أن تراه بكل وضوح جالسًا في مكانه المفضل عند النافذة. الهاتف الأرضي الذي يكاد عمره يبلغ عشرين سنة، ذلك الهاتف ذو السلك الطويل من غير نهاية، جاثم على بطنه. «جرى حديث بيننا، أنا وأمك ومريم، بعد طلاقك من توم. قلنا لها إن أول اتصال هاتفي سيجريه أي منا، عندما يموت الآخر، سيكون معها. هل تعرفين السبب؟».

«لأنكما لا تريدان أن ينقل إليّ النبأ أحد غيرها. وماذا قالت مريم؟».

«قالت إنها ستضع كل شيء من يدها، وستحجز بطاقتي طائرة لأنها لن تتركك تعودين إلى باكستان وحيدة. وقالت أيضًا إنها أحست بالإهانة لأن الأمر استلزم وقوع الطلاق قبل أن نصل إلى هذا القرار - لماذا كنا نرى أن لتوم أسبقية عليها في حالة كهذه؟».

كانت تقف إلى جوار رف الكتب تنظر إلى صورة في إطار جمعتها مع مريم، عندما كانتا طفلتين واقفتين تحت شجرة «غول موهار» في حديقة جدها. لقد ضاعت أصول صداقتهما في الماضي وصارت أبعد من أن تطالها الذاكرة. هل جلستا متجاورتَيْن في تلك الأسابيع الأولى في حضانة الأطفال؟ هل رمت إحداهما شارة المدرسة على الأرض ودعت الأخرى إلى لعب «الحَجْلة» معها؟ كان أبعد ما تستطيع تذكّره صورة مريم راكعة في باحة المدرسة كي تربط لها شريط حذائها قبل أن تتعلم أصابع زهرة، أو عقل زهرة، كيف تنجز هذه العملية المعقدة.

قال والدها وقد أخطأ فهم صمتها: «لم يوشك أحد منا على الموت بعد».

«أتريد أن تعلم السبب الذي جعلني أغضب منها؟».

«لا، لا. أحب تلك الفتاة، وفّري علي معرفة شيء عن حفيدة البطريرك في أسوأ أوقاتها».

بعد انتهاء المكالمة، نظرت زهرة في الشقة من حولها... طاولة القهوة المصنوعة من جذع شجرة إلى جوار الـ«شيزلونغ» بلونَيه الأخضر والذهبي، ورسم بيد مريم المراهقة يظهر فيه شاطئ كراتشي، وإلى جانبه رسم آخر بالفحم والطباشير قدّمه إلى زهرة فنان معجب بها كانت أعماله غالية الثمن لا تستطيع شراءها... كتب مرصوفة على امتداد جدار كامل. لم تكن الوحدة جزءًا من تجربتها في الحياة - كانت امرأة تخطو داخل هذه الشقة الهادئة، فلا يتبادر إلى ذهنها شيء إلا أنها مُلتجأ لها في نهاية يوم مزدحم بالعمل وبالأصدقاء. مع ذلك، في هذه اللحظة، وجدت نفسها تتخيل مجيء يوم -ليس قريبًا، لكنه سيأتي آخر المطاف- تسكن فيه الوحدة الشقة وترفض أن تتركها.

مسّتها هذه النسمة الباردة برودة خاصة بضع مرات من قبل؛ لكنها كانت تسارع إلى الاتصال بمريم لحظة تحسّها. تقول لها: «ماذا تفعلين الآن؟». فيكون في صوتها شيء يجعل مريم تدعوها إلى بيتها. تذهب إلى «برايمروز هيل» سيرًا على الأقدام، أو تأخذ الباص C11، ثم تدخل الرقم السري كي تفتح الباب وتدخل بيت مريم وليلى من غير أن تقرع الجرس. أكثر الأحيان، تتوقّف لحظة في مدخل البيت المطل على الطابق الأرضي المنخفض. من تلك النقطة، تستطيع رؤية مريم متكوّرة على الأريكة ومعها التابلت تقرأ لليلى خبرًا أو شيئًا مسليًا. وتشم رائحة ما يُطهى على الموقد. ترى ليلى تتحرك في المطبخ سائرة أو تحرك القِدر في حين تنزل زولا الدرج مسرعة كي تطوّق عرّابتها بذراعيها - هي مصرّة على أن زهرة

هي الفرد الرابع في الأسرة، مصرة منذ أن بلغت سنًا تستطيع فيها أن ترسم أشخاصًا على شكل عصي، وبيوتًا مكونة من مربعات ومثلثات.

لم تكن مضطرة حتى أن تتصل بمريم. سوف تتصل بليلى. أو، في مقدورها أن تذهب إليهما من غير دعوة. لن تقول شيئًا عن بعد ظهر هذا اليوم. ستوبّخ مريم من أجل «المجلس الأعلى»، وكأن ذلك ليس إلا آخر خلاف في سلسلة خلافاتهما التي لا نهاية لها، تلك الخلافات التي تتلاشى في لحظة من اللحظات، أو تتدخل ليلى فتضع لها حدًا. في أسوأ اللحظات، من الممكن أن تفترقا قبل حل الخلاف، فلا تلبث واحدة منهما أن ترسل إلى الأخرى مقطعًا من أغنية لجورج مايكل فيكون ذلك بادرة مصالحة لا سبيل إلى إنكارها أو ردها.

اهتز هاتفها. رسالة جديدة من رقم مجهول. إنها زوجة عزام، اسمها شاز، تقول فيها: *اعتَقَلوه لأنه يعمل بشكل غير قانوني. ساعدينا من فضلك.*

أسندت رأسها إلى الجدار، وظلت على هذا الحال زمنًا طويلًا.

***

يحدث كثيرًا أن يظهر لاعب واحد من اللاعبين كأنه يلعب مباراة أخرى، أو كأنه يلعب في يوم آخر، أو مع مجموعة أخرى من اللاعبين. يكون عظيمًا، مسيطرًا، قادرًا على توقّع كل اتجاه تتخذه كل كرة. مر زمن طويل منذ آخر مرة لعبت فيها مريم الكريكيت، لكنها لا تزال قادرة على تذكر ذلك الإحساس بالسكون التام خلال مقاطع من اللعبة عندما يتحرك الزمن، بالنسبة لك، غير حركته بالنسبة إلى بقية العالم. لكن، ومهما حبتْك الآلهة برضاها، قد يأتي وقت تجد نفسك فيه من غير شركاء في اللعب فتخرج من الملعب. هل من وجود للعبة رياضية أخرى تتيح سبيلًا لكل من مجّد الفرد وضرورة الشراكة مثلما تتيحها لعبة الكريكيت؟

قال بابار وهو يسير مع مريم عبر ملعب نيرسري في لوردز: «متى صرتِ فلسفية هكذا؟». انتهت المباراة منذ حين، وكان الباقون لا يزالون يشربون كؤوسًا احتفالية في مقصورة «فينتشر فيرذر»، لكن مريم صارت مستعدة

للذهاب إلى البيت، وكان بابار ذاهبًا معها. لقد كانت زولا وابنة بابار الصغرى صديقتين حميمتين، مع أنهما لم تمضيا معًا إلا بضعة أسابيع. صداقتهما قائمة، إلى حد كبير، من خلال الشاشة؛ وهذا ما جعل بابار، عنصرًا ثابتًا في بيت مريم، شخصًا في خلفية الصورة يلوّح بيده محييًّا أو يعلق على بعض ما يسمعه من كلام بين الطفلتين. أحيانًا، كان يتبادل الرسال النصية مع مريم وهم يصغيان إلى ابنتيهما.

بابار: *في مثل سنهما، كنا لا نعرف شيئًا!*

مريم: *هما أيضًا لا تعرفان شيئًا. كل ما في الأمر، هو أنهما لا تعرفان شيئًا عن أمور أكثر عددًا مما كان لدينا، أكثر منها كثيرًا!*

«مباراة ممتازة»، قالها رجل محمرّ الوجه من الشمس ومن الكحول. نهض ووقف وقفة غير ثابتة بعد أن كان جالسًا على بطانية نزهة على أرض الملعب، ومد يده إلى بابار. في ملعب لوردز، اعتادت مريم أن يعاملها الناس كأنها ليست إلا رفيقة الرجل الذي يكون معها؛ وكانت مستعدة لقبول ما في هذه اللحظة من لباقة ولطف.

صافح بابار يد الرجل الممتدة إليه. قال له: «إنه الحظ. لو كنا في موقع الدفاع اليوم لدمَّرنا أندرسون تدميرًا».

«متى تحوّلت إلى رجل لديه هذا التهذيب كله؟ كنت مشاغبًا فظيعًا أيام المدرسة». قالت مريم هذا وشبكت ذراعها بذراع بابار وهما سائرين صوب البوابة الشمالية.

«لكني كنت على الدوام شخصًا لطيفًا من وراء ذلك المظهر».

«هذا صحيح. تمنيت، طيلة سنين كثيرة، أن تعود العلاقة بينك وبين زهرة».

«لا أظنني كنت قادرًا على التعامل مع ذكاء زهرة بأفضل مما استطاعه توم المسكين».

«توم المسكين!». صارت قادرة على الإعجاب به عندما تتذكره، الآن بعد أن زال ضعفُه من حياة زهرة. رأت مريم منذ البداية كم كانت العلاقة

بينهما قائمة على ما يكاد يكون عبادة من جانب فتاة في الرابعة والعشرين لرجل في الأربعين، رجل ناجح واسع الثقافة. في أوائل أيامهما، كان من النادر أن تخرج من فم زهرة جملة واحدة لا تبدأ بشيء من قبيل «يقول توم»؛ لكن مرور الزمن كان كفيلًا بأن تكبر وتتجاوزه من كل ناحية. في حقيقة الأمر، لم تستمر علاقتهما طيلة ذلك الوقت إلا نتيجة فرط التهذيب الذي حل محل العاطفة الجارفة الأولى: لم يشأ أي منهما أن يكون الشخص الذي يترك الآخر، فكان عليهما أن ينتظرا إلى أن عُرضت على توم وظيفة في نيويورك فقبل بها كي تستطيع زهرة أن تقول: «أظن أن من الأفضل لي أن أبقى هنا». عند ذلك، صارا مسؤولين مسؤولية متساوية عن فراقهما.

«آسف لأنني تطرقت إلى ذكر المجلس الأعلى في كلامي معها. لم يدُر في خلدي أنني يمكن أن أعلم بأمر عن حياتك لا تعلم به زهرة».

أجابت مريم: «كف عن الاعتذار. لا مشكلة في الأمر. سوف تهاجمني كل من زهرة وليلى في أول فرصة نكون فيها معًا، نحن الثلاثة، وسوف أتقبل لومهما كله لأن هذه أسهل طريقة لإنهاء الجدال. نعم، أنتما محقتان، أنا شخص مفلس من الناحية الأخلاقية. فماذا تقولان لي؟ هما من اختارتا أن تحبا شخصًا مفلسًا من الناحية الأخلاقية».

على الأقل، أنا لم أعد طفلة! هذا ما أرادت قوله لزهرة. أمر غريب جدًا أن ترى أعز صديقاتها أن عليها أن تترك المباراة لأن ما تفعله مريم بمالها الخاص لا يعجبها. كيف تفعل هذا يوم دخل حمد حياتهما من جديد؟ كانت زهرة الشخص الوحيد الذي أرادت مريم أن تكلمه عن شدة ما اعتراها من غضب لوجوده في مقصورة شركتها، إذ راح يستعرض تلك الخيلاء نفسها التي كاد يكون لها أثر عليها عندما كانت في الرابعة عشرة، قبل أن تتبين ما كان فيها من تمثيل.

قالت لبابار عندما خرجا من ملعب لودز: «قل لزهرة إنك ستكون عندنا على الغداء. اطلب منها أن تنضم إلينا، وستكون قادرًا على أن ترى بنفسك كيف تهاجمني».

ظهرت ثغرة صغيرة في ازدحام السيارات في طريق ولينغتون. صاحت به مريم: «اجرِ». فراحا يركضان بين السيارات مراهقَين مشاغبَين من جديد، يلوّحانِ بأيديهما للسائقين الذين راحوا يطلقون أبواق سياراتهم، أو يقذفونهما بالشتائم من نوافذ سياراتهم.

عندما بلغا الناحية الأخرى من الطريق، كانت زهرة قد كتبت مجيبة أنها الآن في طريقها إلى تشاينا تاون كي تلتقي روز. روز التي تراها خمس مرات في الأسبوع! ما حاجتها إلى لقاء روز أيام الآحاد؟

ضحك بابار وقال: «الحقّ أننا لم نتغير منذ كنا في الثامنة».

عندما كانوا في الثامنة، كان أعز الأصدقاء يشغلون مساحة كبيرة من حياتهم. والآن، صار معنى ذلك الحيز الذي تشغله زهرة في العالم، الحيز الذي يكبر كل سنة، أن حصة أصدقائها القدامى من حياتها باتت في تناقص مستمر. في ما مضى، كانت تمر أوقات تُمضي فيها زهرة مع مريم أمسيات كثيرة كل أسبوع، فضلًا عن عطلات نهاية الأسبوع. وبعد ذلك، صارت تقضي تلك الأوقات مع مريم وليلى معًا. والآن، صارت نزهة يوم الأحد -النزهة التي اضطرتا اليوم إلى تفويتها- طقسًا قررتاه معًا كي لا تَمضي الأسابيع من غير أن ترى الواحدة منهما صديقتها. حياة زهرة المزدحمة المحمومة هي السبب في الانقطاعات الطويلة. مؤتمر في بروكسل، أو إلقاء كلمة مهمة، أو مهرجان، أو حفل استقبال، أو حفل عشاء فيه أشخاص لكل منهم صفحة طويلة جدًا في ويكيبيديا. تلك الأماكن في عقل زهرة منذ بداية صباها حيث لم تستطع مريم اللحاق بها إليها صارت أماكن حقيقية يشغلها بشر حقيقيون. لم يكن هذا مصدر إزعاج كبير لمريم لأن حياتها ممتلئة جدًا. لم تعد الصداقة الحميمة بينهما تجد لها متسعًا كبيرًا من الوقت: صارت موجودة عندما يكون وجودها ضروريًا.

لكن حمد دخل حياتهما من جديد، وابتعدت زهرة عنها كي تتناول العشاء مع روز. كيف لها أن تفهم معنى هذا؟

***

بعض أنواع الألم يختفي مع الزمن، وبعضها يظل مقيمًا. كان موت جورج مايكل من الفئة الثانية؛ وهذا ما يصير أكثر جلاءً لها كلما انداح صوته عبر مكبرات الصوت في غرفة النوم بوضوح ولم يكن مشغّل أقراص الـ«سي دي» في مراهقة مريم قادرًا عليه. ليست أغنية «كيرلِس ويسبر» بأنغامها الحزينة المتحسرة أغنيته الوحيدة القادرة على أن ترمي بها في دوامة من الحزن، بل حتى أغنية «كلب تروبيكانا» بكل سخفها.

تنهدت مريم وجلست في فراشها مستندة إلى الوسائد. كانت كل غرفة أخرى من غرف البيت زاخرة بالألوان وبالأعمال الفنية، لكن غرفة النوم كانت باللونين الرمادي والأبيض من غير أية زينة. ينيرها الآن مصباحان إلى جانبي السرير. إنها خلوتها، معتزلها الداخلي.

قالت ليلى: «اسدي إلى ذكرى الرجل جميلًا واستمعي إلى ما أتى بعده من موسيقى». جاء صوتها مكتومًا عبر القميص الذي كانت تخلعه عنها. بان جذعها بخصره الذي صار ممتلئًا قليلًا. من مفاجآت الحب أسلوبه في التكيف مع علامات تقدم السن. قبل عشرين عامًا، عندما كانت مريم شديدة الابتهاج بجمال جسد ليلى، كان لها أن تتوقع قدرًا من الإحساس بالخيبة نتيجة أثر الزمن. لكن، ها هي ليلى عارية، تذهب إلى الحمام... لم تعد كاملة ذلك الكمال المذهل الذي كان لها، لكنها صارت الآن أكثر جاذبية من أي وقت مضى.

فتحت مريم تطبيق الرسائل، ثم قرّبت الهاتف من مكبر الصوت كي ترسل إلى زهرة بضع ثوانٍ من أغنية «كلب تروبيكانا». فعلت هذا على الرغم من اعتقادها بأن زهرة هي التي ينبغي أن تعتذر لاختفائها. عادت بعد ذلك إلى استعراض الإيميلات التي أتتها ذلك اليوم.

قالت ليلى وهي تخرج من الحمام عارية مثلما كانت وقد أتت معها الآن بشذا الليمون: «إذًا، هل اكتشفت زهرة الأمر؟».

لا تقول ليلى أبدًا: *قلت لك هذا!* تكتفي بذكر الحقائق التي لم يكن ممكنًا أن تصير واقعًا لو أن مريم أصغت إلى كلامها.

«لو قلتُ لها، لكان معنى هذا أن للأمر قيمة. لا أظن أن له قيمة». لقد عبر كونر عن هذا تعبيرًا جميلًا عندما قال: *لا تعقّدي الأمور بأن تفكري فيهم مثلما تفعل الحكومة. إنهم جزء من محفظتنا الاستثمارية. نحن نستثمر فيهم ونحقق عائدًا على هذا الاستثمار.*

لقد كانت العائدات رائعة، حتى الآن. «*سررت بما أبدته Imij من سرعة ونجاح في استجابتها إلى ما حدث مؤخرًا بأن أعادت النظر في سياساتها الخاصة بالإساءات. هذه هي روح الديمقراطية. اشتكى المستخدمون، فلم تتأخر الشركة عن إحداث تغيير. لا حاجة إلى أن تتدخل الحكومة في الأمر فتكون كأنها مربية تريد أن تجعل سباحًا أولمبيًا يحتمي بسترة نجاة*». جاء هذا التصريح في مقطع الفيديو الذي كان أول ما نشره رئيس الحكومة على حسابه الجديد في Imij. وأما الفتاة طاهرة ووالدها فقد اختفى ذكرهما في الأخبار. ثم إن الأوراق الخاصة ببيع Imij، صارت جاهزة ووافق عليها محامو الطرفين.

أزاحت ملاءات السرير كي تندسّ ليلى تحتها، لكن ليلى ظلت واقفة إلى جانب السرير تضع يديها على ردفيها. نظرت تلك النظرة المقلقة التي تستخدمها مع زولا كلما أقدمت على فعل أمر خاطئ وأرادت أن تدرك زولا أنها علمت بذلك الأمر.

«كنتِ خائفة من إخبارها».

«لا تكوني سخيفة هكذا. لقد رميتِ بي خارج غرفة النوم هذه ثلاث ليالٍ كاملة عندما أخبرتك. ماذا يمكن أن تفعل زهرة أسوأ من هذا؟».

استلقت ليلى على السرير، لكنها ظلت عند حافته. ظلت بعيدة عنها بأقصى قدر يسمح به الفراش العريض. «تعرفين أنني أقذف بك خارجًا كي أجعل نفسي أحس بأنني أتخذ موقفًا، ثم أسمح لك بالعودة. لكن عليك أن تعرفي أيضًا أن هذا ليس واحدًا من خلافاتك المعتادة مع زهرة، الخلافات الناتجة عن تقديم الأرباح على الأخلاق. تمثل هذه الحكومة كل ما أمضت زهرة حياتها المهنية في مكافحته». تناولت زجاجة فيتامين

د من على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير. هزّتها حتى انزلق منها قِرصان في راحة كفّها. ناولت مريم قرصًا منهما... «أمور من قبيل العدالة والديمقراطية لها أهمية بالنسبة إليها. أستغرب كيف تفهمين كل شيء فيها باستثناء هذا».

«هذا ما يسمونه عقدة الأب. أرأيتِ؟ أفهمها أكثر مما تفهمينها». رفعت مريم الكأس الفارغة عن الطاولة التي إلى جانبها، ثم وضعتها. لا يزال قرص الفيتامين في يدها... «لكن الأمر غير متعلق بهذا. تتصرف زهرة وكأنهم سددوا بأنفسهم كيس البراز من مقر رئاسة الحكومة إلى مكتبها».

«لا أظنها تفكر هكذا من غير سبب».

«تدعوهم دكتاتوريين، ثم يزعجها أن يعترضوا على هذا. هل يُنتظر مني أن أتخلى عن أربعة عشر مليار دولار لأن زهرة قررت أن تعتبر الأمر مشكلة شخصية بينها وبين الحكومة؟ من التي تسلك مسلكًا مهنيًا؟ ألن تعطيني الماء؟».

ناولتها ليلى الكأس آخر الأمر. «أنت تتخذين موقفًا دفاعيًا جدًا. ظلي هكذا! هل قال لها بابار أيضًا إنك ستمثلين الحكومة عما قريب في حملة 'بريطانيا مفتوحة للأعمال'؟».

«سوف أمثّل البلاد».

«أيضًا، لماذا هذه؟».

«من هي؟».

«حملة 'بريطانيا مفتوحة للأعمال'».

قرّبت مريم جسدها من ليلى ودفعتها بوركها. «أنت مضحكة».

«وأنت موشكة على جعلي أقع عن السرير».

«سأمسكك إذا وقعت، دائمًا».

«أعرف هذا. تظنين أنه كل ما يهم من تحبينهم... لكنه ليس كذلك».

«أستطيع فعل أمور أخرى مهمة أيضًا». قالت مريم هذا ووضعت يدها على جلد ليلى الذي لا يزال دافئًا بعد استحمامها.

«لا تبالغي في الاعتماد على حظك، يا عزيزتي». انقلبت ليلى على جانبها وأطفأت المصباح. عبست مريم وعادت إلى موضعها على الفراش. تناولت هاتفها الذي وضعته جانبًا. لقد رأت زهرة رسالتها التي فيها ذلك المقطع من أغنية جورج مايكل، لكنها لم تُجب بشيء.

سرعان ما غفت ليلى. أنفاسها عميقة، منتظمة. كتبت مريم بضعة إيميلات، ثم تفقدت رسائلها من جديد. زهرة على الخط. لا استجابة حتى الآن.

«هكذا!». قالتها بصوت عالٍ قبل أن تطفئ مصباحها وتلتصق بليلى. مع مَن غير زهرة يمكنها أن تتكلم على فظاعة حمد؟ لماذا صارت زهرة مزعجة هكذا؟

***

صباح يوم الاثنين.

المروحة الأرضية في مكتب زهرة تدور بأقصى سرعتها. كان حفيف حواف زوايا الأوراق مع رفرفتها من تحت ثقالة الورق المرتجلة يشكل صوتًا متواصلًا ليس مريحًا تمامًا، لكنه ليس مزعجًا أبدًا بالنسبة إلى شخص ترعرع مع أصوات المراوح. مرت زهرة بإصبعها على كدس من بطاقات التحية. كانت تحصيها. هذه البطاقات موضوعة على مكتبها منذ يوم أمس في انتظار أن تضع عليها توقيعها وأن تضيف، في حالات كثيرة جدًا، عبارة ذات طابع شخصي تحت ما هو مطبوع عليها من كلمات شكر موجهة إلى من حضروا فعالية جمع الأموال من أجل مركز الحريات المدنية. كان من المعتاد أن تقع هذه المهمة على عاتق رئيس مجلس الإدارة، لكنه بدأ، منذ سنتين، يقول: «إن الناس يودون أن تخاطبهم زهرة، لا 'مستشارها' العجوز النزق».

تناولت البطاقة العليا في ذلك الكدس. كانت موجهة إلى واحدة من المتبرعين الأكثر سخاء - امرأة لديها ثروة موروثة كبيرة حرصت على توضيح أنها تنتظر حضور زهرة حفلتَيّ الصيف وعيد الميلاد عندها

كل سنة مقابل كرمها المالي. قبل سنين، عندما كانت زهرة جديدة في إنكلترا، حكى لها عن النساء اللواتي من هذا النوع شخص رفيع الثقافة من سريناغار كان يدرس ما بعد الدكتوراه: «ثمة نوع بعينه من الإنكليز يحب أن يدعو أشخاصًا مثلك ومثلي إلى الحفلات لأننا نستطيع أن نرفع كأس نبيذ ونتحدث في الوقت نفسه، فيبدو المضيفون أمام أصدقائهم متنوّرين من غير أية مخاطرة بحسن سير الأمسية». لم تكن زهرة ممن يشربون النبيذ، لكنها تناولت ذلك اليوم أول جرعة من نبيذ «ميرلو». كتبت زهرة على البطاقة: *رائعة كما أنت دائمًا. أنا في انتظار حفلة الصيف*.

تأملت لحظةً ما كتبته من غير تردد، ثم أضافت إليه إشارة تعجب... فقط حتى تستطيع أن تقول لنفسها إنها كانت ساخرة، لا كاذبة.

كان هذا أقصى ما تستطيع إنجازه اليوم. وضعت البطاقة في مكانها الجديد أسفل الكدس. رفعت ثقالة الأوراق حتى تتمكن من فعل ذلك. كانت ثقالة الأوراق صورة فوتوغرافية في إطار رافقتها من مكتب إلى مكتب طيلة سنوات عملها. صورة من قياس 3×5 صارت ألوانها باهتة، وفيها تلفزيون هيتاشي ضخم تظهر على شاشته كتابة بخط اليد تطمئن المشاهدين إلى أن البث سيستعاد قريبًا. هذه الصورة تعويذتها... الحجة المضادة للتفكير المكتئب في الهزائم.

قرّبت لوحة المفاتيح منها ومضت تبحث عن معلومات عن «المجلس الأعلى». كان ما وجدته قليلًا جدًا. وسّعت البحث بحيث صار مشتملًا على نوادي المتبرعين ذات الصلة بالحزب الحاكم. أثمر ذلك وفرة من مقالات جديدة - مالٌ مقابل الوصول؛ مالٌ من أجل الأوسمة؛ تجار أسلحة؛ القطاع المالي؛ رجال الأعمال الروس الأثرياء؛ العقود الحكومية؛ الإعفاءات الضريبية؛ السرية؛ جماعات الضغط في الكواليس. «لا يمكن إثبات أية صلة بين التبرعات وأية سياسات حكومية». أمر طبيعي... هكذا ينبغي أن يكون الأمر.

لا صلة يمكن إثباتها بين علاقة المهاجر بزهرة علي، وبين رفض طلب

الإقامة الدائمة. الآن، بعد أن اعتقل عزام لعمله غير القانوني، صار أقصى ما تستطيعه زهرة هو أن تحاول إعادته إلى بيته حتى يكون مع زوجته طيلة ما بقي لهما من وقت في لندن. من شبه المؤكد أنه سيخسر اعتراضه على قرار وزارة الداخلية.

بحثت زهرة عن «المستثمرون المغامرون في نوادي المتبرعين». كانت تدرك أنها تحاول إثبات أمر، لكن عقلها رفض المضي عبر المواد مثلما تفعل سمكة قرش في مسلكها المعتاد. بدلًا من ذلك، صار في رأسها طنين، دبابير، ضجيج ولسعات. كدمة على كتفها اليمنى حيث كانت يده ممسكة بها وهي راقدة تحته. تحسها كلما استندت إلى ظهر مقعدها.

أحست امتنانًا عندما ألهاها عن ذلك كله هاتفٌ من راي في مكتب الاستقبال أنبأها بأن هناك رجلين آتيَين لرؤيتها، السيد نجم حسين وصديقه. قالا إنهما يعرفانها من كراتشي. ليست لديها أية فكرة عمن يكون هذان الرجلان. في الأحوال المعتادة عندما يأتي شخص من كراتشي ويقول إنه يعرفها، يكون شخصًا في حاجة إلى مساعدة قانونية وتكون له صلة بأبيها أو بأمها، حتى عندما تكون تلك الصلة هامشية جدًا، كأن يكون له ابن عم عمل في مدرسة أمها ذات يوم. عادة ما تكون لأولئك الناس قضية هجرة تستلزم الاستعانة بمحام. لكن، وما إن يُذكر اسما والديها حتى لا يكون لها من خيار غير تقديم الشاي وتبادل بعض الأحاديث العابرة وكتابة إيميل، أو رسالة نصية، إلى المحامي الذي تنصح به كي تقول له إن السيد فلان، أو الآنسة فلانة (السيد، أكثر الأحيان)، على صلة بعائلتها. كانت تكره هذه الالتزامات الاجتماعية أيام عملها محامية هجرة، لكن قيمة شبكات العلاقات غير الرسمية تكبر في عين المرء كلما طال عمله مع المهاجرين.

قالت له: «أدخلهما، واسألهما كيف يحبان الشاي».

في وقت لاحق، تبادر إلى ذهنها أن النقرة على بابها كان ينبغي أن تنبئها بالخطر... نقرة وقحة من حيث شدتها وطول أمدها. دخل حمد الغرفة

بابتسامته الناطقة بالرضا عن الذات، ودخل بعده رجل ثانٍ مختلف عنه اختلافًا واضحًا.

قال حمد: «مرحبًا»، ثم جلس من غير انتظار أن تدعوه إلى الجلوس.

ظل الباب مواربًا. ورأت روز تمر به ملقية نظرة سريعة داخل الغرفة أثناء مرورها. عندما تناولتا طعام العشاء معًا في الليلة السابقة، لم تتطرق زهرة إلى أي شيء من مجريات ذلك اليوم. كانت تحس حرجًا شديدًا بسبب سوء تقديرها - كانت فكرة سوء التقدير هذه مشتملة على كل من حمد ومريم.

«لدي اجتماع بعد خمس دقائق».

أشار حمد بيده إلى الرجل الآخر الذي ظل واقفًا. قال: «كنت أتعشى مع صديقي هذا الليلة الماضية فقال لي إن لديه مشكلات قانونية. أجبته بأن عندي من يساعده».

قالت، مصممة على ألا تلتقط طُعم *«لدي من يساعده»*: «هذا مركز الحريات المدنية. أنا المديرة هنا».

قال الرجلِ الآخر: «حمد، دعنا نذهب. سيدتي، آسف لأننا أزعجناك».

كان ممسكًا حقيبة صغيرة يشدها إلى صدره بذراعيه. ذرعاه ملتصقتان بجسده. سترته شديدة الدفء بالقياس إلى طقس لندن. بقعتا عرق ظاهرتان عند إبطيه. الرجل في أوائل الخمسينيات -هكذا قدرت سنّه- له شعر كثيف يخالطه الشيب، وفي وسط وجهه النحيل شارب مشذب بعناية. وجه من كراتشي. كان ممسكًا الحقيبة بطريقة أنبأتها بأن فيها وثائق مهمة، وبأن مستقبله كله معتمد على المحافظة عليها.

دعته إلى الجلوس بأقصى ما استطاعته من نبرة رسمية بلغة الأوردو. كانت العبارة التي خاطبته بها من نوع لم تنطقه شفتاها منذ زمن بعيد؛ إلا أنها رأت ضرورة لمخاطبته بنبرة الاحترام المتعالية تلك كي تغطي بها على حقيقة أنه أتى إلى مكتبها برائحة عرقه، وأنه يدرك ذلك مثلما تدركه.

«أعرف أن التعامل مع الأمور القانونية مرهق جدًا». قالت هذا لرغبتها

في إفهامه أنها لا تحمل عليه وزر مجيئه مع حمد: تستطيع تمييز شخص في حاجة حقيقية.

قال الرجل: «أشكرك. هذا صحيح».

استند حمد إلى ظهر كرسيه وابتسم ابتسامة عريضة. قال: «أليس هذا لقاءً رائعًا؟».

نظر كل منهما إلى الآخر، زهرة والرجل الغريب، ثم نظرا إلى حمد، ثم عاد كل منهما ينظر إلى الآخر. حركات أعينهما متواقتة كأنها من فيلم من أفلام الرسوم المتحركة.

قالت: «جيمي!؟».

التفت الرجل إلى حمد مشيرًا بإصبعه إلى زهرة. قال: «أهي نفسها؟». تذكّرت شكله لحظة أشار إليها بإصبعه. إنه الرجل الذي وضع إصبعه على خدها، مسّ خدّها مسًّا فقط لأنه كان يعرف أن ما من حاجة إلى أكثر من ذلك كي يجعلها تطيعه.

صفق حمد بيديه كأنه مدير حفلة مسرور بالرقصة التي صممها: «أنتما الاثنان! انظرا إلى وجهيكما الآن».

«أتيتَ بي إلى هنا. هل هذه نكتة؟»، قال الرجل هذا (جيمي، إنه جيمي) موجّهًا كلامه إلى حمد.

هز حمد كتفيه، «لا يعجبكَ الأمر كثيرًا عندما لا تكون مسيطرًا على الأمر كله، أليس كذلك؟».

قالت زهرة: «عليكما أن تخرجا من مكتبي». تحت الطاولة، كانت تشد بيدها على ساقها.

«كنتِ أكثر ترحيبًا بي يوم أمس».

«سأكون مسرورة، بل سعيدة، بأن أستدعي راي من مكتب الاستقبال كي يرميكما خارجًا. لقد كان ملاكمًا محترفًا».

نهض حمد واقفًا وقال: «على أية حال، عليَّ أن ألحق بقطاري. دعينا نفعل ذلك من جديد عندما أكون هنا في المرة القادمة».

خرج من غير أن يلتفت إلى جيمي الذي ظل جالسًا على كرسيه وظلت يداه ممسكتان بالحقيبة تشدانها إلى صدره. قال لها: «لم أكن أعلم. رأيته البارحة، فكانت تلك أول مرة منذ تلك الليلة. هل عليَّ أيضًا أن...؟»، أشار إلى الباب.

«سوف أصنع شايًا». نهضت زهرة واقفة ولم تلق بالًا إلى اعتراضاته. خرجت من غرفة مكتبها وأغلقت الباب من خلفها. لم تكن لديها نية الاستناد إلى الجدار، والتنفس عميقًا، لكنها فعلت ذلك... بدا لها أنه الأمر الوحيد القادرة على فعله في هذه اللحظة.

«ما المشكلة؟».

آلكس التي لم تعد متدربة أتت في الممر حاملة بين يديها ثلاثة فناجين من الشاي. استدارت زهرة صوبها فأسرعت آلكس من خطوها. ترجرج الشاي في الفناجين، واندلق قليلًا. شدت زهرة ظهرها. كانت روز في الممر أيضًا، وكذلك موظف الاستقبال راي وآلكس. كانوا يقفون هناك جميعًا ينظرون إليها وقد حملت وجوههم تعبيرًا يقول: «إنهم مستعدون إلى أن يغرسوا في قلبه رمحًا إن كان قد أساء إليها. أخذت فنجاني شاي وحاولت طمأنة آلكس بابتسامة. عادت إلى الغرفة، لكنها تركت الباب خلفها مفتوحًا.

رأت جيمي واقفًا. قال وهو يكوّر قبضته ويحرك يده كمن يسدد لكمة. «ظننت أنك سترسلين موظف الاستقبال كي يتعامل معي. لو فعلتِ هذا، لما وجدت نفسي قادرًا على لومك».

وضعت فنجاني الشاي بعد أن مسحت أسفل كل منهما. عادت إلى مقعدها.

قال جيمي بنبرة تساؤل: «انقضت ثلاثون سنة ولا يزال غاضبًا مني. سررتُ كثيرًا عندما تواصل معي - ظننت أننا كبرنا بما يكفي لأن نكتفي بتذكر أوقاتنا الطيبة معًا». ابتسامة متملقة وكأن زهرة كانت جزءًا من تلك الأوقات الطيبة، وكأنه شاكر لها ذلك.

«ما الحاجة التي جئتني من أجلها؟».

قال: «أنت ابنة حبيب علي. كان عليَّ أن أدرك هذا في وقت أبكر. رأيتك على شاشة التلفزيون، لكني لم أقِم تلك الصلة. في العالم كثيرون ممن يحملون اسم علي». لم تستطع فهم ما يرمي إليه على وجه التحديد... نبرة صوته مهذبة، لكن فيها شيئًا مزعجًا... ألفة مُبالغ فيها. كان قد وضع حقيبته على الأرض واتسع الحيز الذي يشغله في مقعده. «كنت شديد الإعجاب بوالدك. عندما رأيته ذلك اليوم يقف أمام شقتكم، لحظة أنزلتكما من السيارة هناك، غضبت من نفسي كثيرًا لأنني عاملت ابنة حبيب علي بتلك الطريقة. لقد ظننتك واحدة من تلك الفتيات الثريات، لا أكثر... مثل صديقتك التي كانت معك».

قال عبارته الأخيرة كأن بينهما تفاهمًا مشتركًا بشأن مريم أو تقييمًا مشتركًا لها.

«ماذا كان في ذلك الكيس؟ الكيس الذي أخذته من رجل بالقرب من الميناء؟».

عبس وبسط يديه، ثم طوى أصابعه قليلًا وأدار معصميه. حركة «من يدري؟» التي تقول إن تلك لم تكن أكثر من أمسية من أمسيات حياته وإنه غير قادر على تذكر تفاصيلها. «لا يمكن أبدًا أن أتصرف اليوم بتلك الطريقة. أتمنى أن تدركي هذا. في ذلك اليوم، كنت لا أعرف كيف أتصرف عندما أكون مع فتيات». تخيلت في كلماته معنى خفيًا يقول لها إنه صار الآن يعرف، بل يعرف تمام المعرفة، كيف يتصرف عندما يكون مع فتيات. «كنت لا أعرف أن أقول مرحبًا، اسمي جيمي، هل تحبين أن آخذك في نزهة بالسيارة؟».

دفعت فنجان الشاي فقرّبته منه. قالت: «لو قلت لي هذا، لأجبتك بلا».

قال: «هذا من حقك». قالها بسرعة زائدة قليلًا كأنها جملة أعدّها خلال وجودها خارج الغرفة ثم جلس منتظرًا أن يجد مكانًا لها في كلامه. تناول رشفة من فنجان الشاي. فعلت مثله. رشفتان أنيقتان من غير صوت...

كلاهما. الشعر على أصابعه الممسكة بمقبض الفنجان، لم تعد شفتاه جافتين.

على مر السنين، عندما كان شيء تقوله مريم يرغمها على التفكير بجيمي، كانت تتذكر قميصه البراق وإصبعه الدقيقة التي وضعها على خدها، وقَصَّة شعره التي لم تعرف اسمها. ظنت أن وجهه قد ضاع من ذاكرتها. لكنه لم يضِع. لقد كان طيلة الوقت جاثمًا في مكان قصيّ مظلم في عقلها. لكنها عادت الآن قادرة على رؤية ذلك الشاب الذي في العشرينيات، على رؤيته في هذا الرجل الذي صار الآن في أواسط العمر.

حرّكت يدها مشيرة إلى المكتب من حولها: «أنا أعرف حقوقي. هذا من صميم عملي».

نهض واقفًا، حقيبته في يده: «آسف لأنني أشغلت وقتك. من الواضح أنك تريدين أن أقصد مكانًا آخر».

كان قد أوشك على مغادرة المبنى عندما نادته: «عليك أن تقول لي ما تريد كي أخبرك إن كنا من ينبغي أن تكلمهم».

كانا في ردهة الاستقبال. راي خلف طاولته، بين زهرة وجيمي.

«أريد تقديم طلب الإقامة الدائمة». قال جيمي هذا وعاد في اتجاهها، «أعلم أنهم يرفضون أشخاصًا كثيرين هذه الأيام. قال حمد إنه لا بد أن تكون لشخص في مركزك معارف في وزارة الداخلية. لعلك قادرة على مساعدة صديق في هذا الأمر. لعلك تقولين كلمة طيّبة في حقي».

حمد... يا له من وغد بكل ما في الكلمة من معنى!

تناولت عن الطاولة نشرة قدمتها إلى جيمي. قالت له: «إن كنت قلقًا في شأن طلبك، فعليك أن تستعين بمحام متخصص في الهجرة. هذه قائمة بالمحامين».

التقط النشرة بين إبهامه وسبابته. سرى في الورقة تيار قبل أن تفلتها من يدها.

قالت متحولة إلى اللغة الإنكليزية: «وإذا كنت غير قادر على دفع أتعاب

محام...»؛ عبّر وجهه عن شعور بإهانة موجّهة إلى رجل تمكن من شق طريقهُ في الحياة. رأى الآن كيف تعمدت إهانته باستخدام لغة يفهمها موظف الاستقبال.

أجابها: «أستطيع دفع أتعاب عشرة محامين».

قالت: «أوه»، ونظرت إلى بقعتَي العرق تحت إبطيه. كانت معرفتها بـ«السهام الطبقية» كافية لأن تعلم أن ضربتها أصابت هدفها.

شد ذراعيه على جسمه. وقال: «قال لي حمد إنك ستكونين مسرورة بمساعدة واحد من أصدقائه. وكما قلت لك، إنني رأيتك مرات كثيرة جدًا في التلفزيون، لذا...». شد ظهره واتخذ وجهه ملامح متسلطة باردة جعلت من الواضح لها أنه يمقتها، لا نتيجة الدقائق القليلة الماضية فحسب، بل منذ شاهدها في التلفزيون. يمقت مظهرها وكلامها والحيّز الذي باتت تشغله في العالم. «... بعد ذلك، قال لي حمد على العشاء إنه يعرفك. قال إنه رآك في وقت سابق من يوم أمس. يا إلهي! لم أستطع تصديق ما قاله لي». تباطأ في نطق الكلمات الأخيرة كأنه يتذكّر، يتذكّر بوضوح شديد وبقدر كبير من التفصيل كل ما سمعه من حمد. أحسّت عارًا قديمًا يتخللها.

«من أنتِ كي توجهي لي إهانة؟»، قال جيمي هذا وشدّد على كلمة «أنتِ»... «قلت لكِ إنني آسف لما حدث في ما مضى».

«أنت لم تقل هذا فعلًا». كانا الآن يتكلمان باللغة الإنكليزية؛ وكانت منتبهة إلى عيني راي المتنقلتين بينهما. لا يفهم ما يجري أمامه؛ ولا يدري ما يفعله إزاء تصرف مديرته بهذه الطريقة الغريبة.

«أتيت لأنني في حاجة إلى عون. لديَّ محام. لقد نظر في أوراقي. يقول إنها مكتملة. كيف لأحد أن يقول ذلك هذه الأيام. في كل مكان، يُقال لأشخاص أعرفهم إن عليهم الرحيل نتيجة غلطة صغيرة أو خلل بسيط. رفضوا أحدهم لأن لديه مخالفة مرور. ارتكب محاسب شخص آخر غلطة ضريبية لم يلبث أن صححها سريعًا، لكنهم رفضوه. هؤلاء المحامون غير

مبالين بنا. يأخذون المال ثم لا يكلّفون أنفسهم مشقة النظر في أمر تتوقف عليه حياتك. أتيت لأن حمد قال إنك ستساعدينني».

أطلت روز من الممر. قالت: «هل كل شيء على ما يرام؟»

«روز، هل لي ببضع دقائق من وقتك؟ أعرف أننا لا نقوم بهذا في الأحوال العادية. لكن، ألا تلقين نظرة دقيقة على ملف هجرة السيد حسين كي تنظري إن كان في أوراقه أي نقص أو خلل؟ ألا تفعلين هذا من أجلي؟».

مرت لحظة ظنت فيها أن جيمي سيخرج غاضبًا، لكن كتفيه تهدلتا: لا يستطيع رفض ما يحمله كرمها من إهانة كبيرة له. سار في الممر خلف روز من غير أن يلتفت وينظر إلى زهرة مرة ثانية.

عادت إلى مكتبها وتركت الباب مفتوحًا كي تخرج رائحته الكريهة من الغرفة. تناولت من درج طاولتها منديلًا، ثم رفعت الفنجان الذي استخدمه وأخذته إلى المطبخ حيث أفرغت محتوياته في المغسلة. وضعت على الإسفنجة كمية زائدة من الصابون ودعكت الفنجان جيدًا. غسلته بالماء وأعادت الإسفنجة إلى مكانها، ثم غسلت يديها غسلًا دقيقًا. الآن، لم تعد تشم شيئًا غير رائحة الصابون، رائحة الليمون المر.

سارت في الممر مسرعة حتى بلغت مكتب روز. فتحت الباب. رفعت روز رأسها عن الأوراق المبسوطة على مكتبها. التفت جيمي إليها قلقًا، منتظرًا سماع ما ستقول.

«أكل شيء على ما يرام؟».

قالت روز: «حتى الآن، يبدو كل شيء جيدًا».

عادت إلى غرفة مكتبها. حتى بعد انقضاء أيام على «هجوم البراز»، ظلت تحسّ ردهة الاستقبال مكانًا غريبًا بعد ما لحق بأجوائه المرحّبة من اضطراب. كان الناس يغضنون أنوفهم عند مرورهم على الرغم من عبوة مزيل الرائحة على مكتب راي. وأما الآن، فقد تلوّث «عرينها» بجيمي. عندما أغلق زجاج النافذة في سيارته، طغت على الجو رائحة الكولونيا.

تذكّرت الآن كيف أحست تلك الرائحة داخل جسمها تلك الليلة، وكيف كان قلبها صاخبًا. وبعد سنين من ذلك، جعلت توم يرمي زجاجة كولونيا حلاقة جديدة مع أنها لم تدرك تمام الإدراك ما دفعها إلى فعل ذلك.

تناولت هاتفتها وكتبت رسالة:

هل تستطيعين اليوم أن تبكري في الخروج من العمل؟ متى؟

***

البقية الباقية الوحيدة من توم هي مَيل زهرة إلى قِطع الأثاث ذات الأشكال غير المألوفة. أخذت مريم كأس ليمونادة باني عن الطاولة المصنوعة من جذع شجرة وعادت إلى الشيزلونغ. لقد صارت أخيرًا مغرمة بهذه الشقة، شقة زهرة، رغم أنها ظلت سنين طويلة تجد صعوبة في التخلص مما يذكّرها باليوم الذي انتقلت فيه زهرة كي تعيش هنا - بُعيد عيد الميلاد سنة 2007. كانتا هنا معًا تفرغان الصناديق عندما اتصلت ليلى من مقهى ذهبت إليه كي تشتري سندويتشات لوجبة الغداء. قالت إن عليهما أن تشغّلا التلفزيون، وقالت إنها في غاية الأسف، في غاية الأسف. لقد اغتيلت بنازير بوتو.

أشارت مريم إلى النافذة المفتوحة التي كان الحر الذي اختزنته الغرفة خلال النهار يتسرب منها... كأنها قادرة بهذا على جعل تلك الذكرى تخرج أيضًا. عندما كتبت لها زهرة طالبة منها أن تترك العمل في وقت مبكر -طلب لا سابق له أبدًا- خشيت أن يكون لديها نبأ من تلك الأنباء الفظيعة التي لا بد معها من وجودهما معًا. شخص تعرفانه قد مات، أو فحص طبي روتيني أظهر أمرًا خطيرًا... هذه هي المستجدات التي بدأت تدخل حياتهما، فكانت كأنها نذير بما سيكون عليه طعم العقود الباقية من العمر. لكنها الآن هنا، وزهرة تأخذ دوشًا. تركتها وحدها مع كأس الليمونادة ومع فضولها. ذلك الخروج المفاجئ من ملعب لوردز، ثم رفضها أن ترد على رسائلها النصية... والآن، هذا الانتظار.

خرجت زهرة من الحمام ملتفة بمئزر حَوَّله طول قامتها إلى رداء

أنيق، «آسفة. كنت في حاجة إلى أن أغسل هذا اليوم». جلست على حافة الشيزلونغ واحتضنت ذراعاها ساقيها فصارت ركبتاها عند صدرها. «علي أن أقول لك شيئًا عن يوم أمس. لقد ذهبت مع حمد».

«لماذا؟».

جذبت زهرة خيطًا متدلّيًا عند نقطة التقاء قماش الشيزلونغ بخشبه الذهبي. عندما رفعت رأسها ظهرت بقع حمراء على وجنتيها. أشارت بذقنها، فكان لا بد من لحظة حتى تفهم مريم أنها تشير إلى باب غرفة النوم.

نهضت مريم واقفة: «أريد ويسكي».

«الويسكي يسبب لك صداعًا. جربي التيكيلا».

ذهبت مريم إلى المطبخ. نظرت من حولها فلم تجد في رف النبيذ شيئًا غير زجاجات نبيذ. خرجت من المطبخ. أشارت زهرة إلى الصندوق الموضوع في زاوية غرفة المعيشة - صندوق سفر جديد لا تعرفه مريم. فتحت الصندوق فوجدت فيه عدة زجاجات عرفت من بينها زجاجة كونياك كالفادوس جلبتها يومًا كي تطهو بها شيئًا... كان ذلك منذ خمس سنين، بل أكثر. كانت زولا تحبو يومها؛ كانت في حضن ليلى في حين أشعلت مريم... ماذا أشعلت؟ لم تكن في حاجة حقيقية إلى الويسكي، ولم تكن لديها رغبة في تناول الويسكي من دون غيره؛ لكنها لم تدر كيف تستجيب إلى ما باحت به زهرة على غير انتظار -صار شيئًا شديد الغرابة بعد أن استوعبته- لهذا، كانت تقلّد ذلك النوع من السلوك الذي رأت الناس في الأفلام يسلكونه في هذه اللحظات. أخرجت زجاجة الويسكي، ثم أعادتها إلى الصندوق، ثم ألقت صوب زهرة نظرة تتحداها أن تقول شيئًا، وتناولت زجاجة التيكيلا. عادت بعد ذلك إلى المطبخ، ثم خرجت منه تحمل كأسي بَيض مصنوعين على شكل بطتين.

قالت زهرة: «لديَّ كؤوس صغيرة».

ناولتها مريم التيكيلا في كأس البيض، وملأت كأسها. شربت زهرة

التيكيلا جرعة واحدة. أمر لم ترها مريم تفعله منذ سنتها الأولى في الجامعة، عندما قررت أن تجرب كل شيء لم تجربه في كراتشي.

قالت مريم: «هذه الكؤوس تبعث على القشعريرة». ألقت نظرة أكثر تدقيقًا على الكأس المتخذة شكل بطة منتظرة أن توضع فيها بيضة موضع الدماغ، ثم تؤكَل. نظرت زهرة إليها وانتظرتها لتقرر ما تريد قوله لها. ظلت مريم واقفة. قالت: «كنا في لوردز. كنتِ محاطة بعشرين رجلًا. فهل كنت مضطرة إلى اختيار الأسوأ؟ وكيف؟ ومتى؟ أظن أنك لم تتكلمي معه إلا دقيقتين قبل أن يذهب».

وضعت زهرة كأس البيض على الأرض، فغطت قاعدتها عقدة في لوح خشبي. «إنه الرجل الذي كنت أتبادل الرسائل النصية معه في الربيع».

«ماذا؟».

«كففت عن ذلك لأنني أدركت كم ستشعرين بأنني خنتك. وأما يوم أمس، نعم، فقد شعرت أنك خنتني... لذا...». بسطت كفيها.

«هل تعتزمين أن تلقي عليّ محاضرة من أجل المجلس الأعلى؟». قبل هذه اللحظة لم تكلم مريم زهرة بهذه النبرة الحادة، لكن فكرة أن تقفز زهرة من موقفها الضعيف إلى صهوة حصان الأخلاق الرفيعة أثارت جنونها.

هزت زهرة رأسها وبان على وجهها تعبير غريب. كان في ذلك التعبير إحساس بالعار، لكن مريم رأت فيه أيضًا ما جعلها تقول: «ماذا فعل لك؟». تحول غضبها كله صوب حمد.

«لا شيء. لا شيء مما تظنين». ابتسامة صغيرة... «كان في حقيقة الأمر 'قبعة كبيرة من غير ماشية' ولم يعجبه أبدًا أن أقول له هذا».

كان في هذا ما هو مُرضٍ بعض الشيء. «لا بأس. لا أستطيع القول إنني فوجئت، ولا إنني آسفة». نظرَت إلى أرض الغرفة من جديد، ثم أشاحت بوجهها... «أرجوك، قولي لي إنك أنهيت كل شيء معه».

لا يزال ذلك التعبير الغريب على وجه زهرة. قالت لها: «لا أريد حتى أن أراه مرة أخرى. لكنه أتى اليوم إلى مكتبي، ومعه جيمي».

«جيمي نفسه! ماذا؟ في لندن!». أحست نفسها غبية قليلًا، خرقاء قليلًا، عندما جلست على الشيزلونغ... «ماذا أراد؟ لماذا سمحتِ لهما بالدخول إلى مكتبك؟».

«لم أعرف من هما إلا بعد دخولهما. قالوا لي إن شخصًا من كراتشي اسمه نجم حسين آتٍ إليّ ومعه صديق. قالا للموظف إنهما يعرفانني. بعد ذلك، دخل هذان الاثنان». ارتسمت على وجهها تكشيرة معبرة عن مدى لا معقولية ذلك كله... «أول الأمر، لم يعرفني جيمي... لم يعرفني ولم أعرفه. وحمد... لست أدري. بدا لي كأنه يرى الأمر طريفًا».

«يحب الرجال الصغار أن يحسوا أنفسهم رجالًا كبارًا. ليس الأمر معقدًا».

«نعم، كأنه من يدير كل شيء».

«وبعد ذلك».

«بعد ذلك ذهب وبقيت أنا وجيمي. صار الأمر مخيفًا. لست أدري مَن مِنا صار مخيفًا قبل الآخر».

«لكن، ماذا أراد؟».

«يعتزم تقديم طلب للحصول على حق الإقامة الدائمة. قال له حمد إن لديه صديقة في وسعها تزكيته لدى وزارة الداخلية». أومأت برأسها عندما رأت التقزز ظاهرًا على مريم، ثم اتخذ وجهها مظهر واحد من وجوه زهرة المألوفة... «أفهم خوفه من احتمال رفضه. يرفضون الجميع هذه الأيام، إلا من يحقّقون دخلًا يبلغ مئات الألوف. لكن من الواضح أن جيمي هذا مرشح نموذجي لأن يصير مواطنًا هنا. طلبت من روز أن تدقّق أوراقه بحثًا عن أية ألاعيب. تبين أنه مهندس أتى إلى هذه البلاد قادمًا من الخليج ومعه زوجة وابنتان. إنهما مطلّقان الآن ويدفع نفقة طفلتيه حتى من غير تأخير. ليست لديه أية مشكلة ولا حتى مخالفة سيارة. يتبرع لمنظّمات خيرية، لكنها ليست من تلك المنظمات الإسلامية التي قد تثير شكوك الحكومة».

«انتظري، ماذا تقولين؟ أتى إليك، ذلك الرجل... بعد ما فعله...

فأرسلته إلى مديرة الشؤون القانونية لديكم كي تساعده. لماذا لم تقدمي له الشاي والبسكويت أثناء وجوده عندكم؟».

«لم يتبادر البسكويت إلى ذهني».

«أوه، ماذا بك؟». نهضت مريم من جديد، نهضت سريعًا فاصطدمت قدمها بزهرة. صرخت زهرة وأمسكت بركبتها، ورشقت مريم بنظرة عنيفة غاضبة مثل نظرتها.

«لماذا قدمت إليه الشاي؟».

«هذا ما أفعله عندما يأتي أحد إلى مكتبي. ما الذي كان عليّ فعله؟».

«لا أدري. لكن، ليس تقديم الشاي. كان ممكنًا أن تطرديه... أو أن تطلبي الشرطة».

«ليس جريمة أن يدخل المرء مكتب واحد من الناس».

«وماذا عن فعلته قبل تلك السنين كلها؟ ألم تكن في ذلك أية جريمة؟».
تجهّم وجهها... «أليست تلك جريمة؟ لو حدث ذلك الآن، لو حدث لزولا، فما الذي تستطيعين اتهامه به؟».

نصبت زهرة ظهرها قليلًا متخذة هيئة التفكير المجرد، ذلك النوع من التفكير الذي أَلِفته تمامًا. قالت: «يمكنك أن تجرّب تهمة الإيهام بالاحتجاز. ربما الاختطاف. وبالتأكيد، القيادة المتهورة الخطيرة». رفعت كتفيها وبسطت كفيها، «صدقًا، تبدو تلك الليلة كأنها تنتمي إلى فئة ليست عندي لغة قانونية تصفها».

«لقد أرهَبَنا. أراد أن ندرك ما يستطيع الرجال فعله بالنساء. ما الصعوبة الكبرى في العثور على لغة في وصف هذا؟ إن كان نظامك القانوني الحبيب عاجزًا عن العثور على كلمات مناسبة، فهذا يعني أن فيه مشكلة».

وضعت زهرة يدها على عنقها. منذ زمن طويل جدًا، لم تر مريم هذه الحركة الناطقة بضعفها.

«أتريدين معرفة ما جعلني أقدم إليه فنجان شاي؟ فعلت هذا كي لا يعلم

أنه لا يزال يخيفني. هنا...»، أشارت إلى بطنها... «أحسست الخوف هنا، ذلك الخوف، عندما لا تعرفين إن كنت ستستطيعين العودة إلى البيت».

«أوه، يا زهرة». جلست مريم وطوّقت صديقتها بذراعيها. صديقتها الأولى، صديقتها الأعز. مالت زهرة إليها وأسندت جبهتها إلى كتف مريم. «كرهت هذا. كرهت هذا. كرهت كيف جعلني أحسّ. ثم نظر إليّ بتلك الطريقة... كان أمرًا فظيعًا. قال لي إن حمد أخبره بما فعلناه معًا. ليس بكلمات قليلة، بل روى له التفاصيل كلها، كل شيء».

شدت مريم ذراعيها من حول زهرة. قالت: «ابن حرام».

«لكني لا أعرف حتى إن كان قد فعل ذلك حقًا أو أنّ هذا كله في رأسي فقط. تمامًا مثل تلك الليلة في السيارة... لست أدري ما كان منه وما كان مني. ذلك الخوف والعار اللذان نحملهما معنا منذ الطفولة! أتظنين أن شخصًا مثل جيمي يدرك شيئًا من هذا؟».

«لماذا تحاولين إقناع نفسك بالقول إنه لم يفعل شيئًا خاطئًا؟».

«كنتُ فظيعة معه، يا مريم. كنت وضيعة، وكنت متعالية، وأردتُ أن أهينه وأذلّه. لقد أهنته».

«جيد».

«لا... ليس جيدًا. أتى إلى مكتبي. وما كان لي أي حق في التصرف معه بتلك الطريقة».

جعلك رجلان في حالة رهيبة عندما كنت في الرابعة عشرة. تأتين بواحد منهما إلى بيتك وتضاجعينه، وتقدمين إلى الآخر استشارة قانونية! أحيانًا، تحس كأن زهرة بعيدة جدًا عنها، كأن أربعين عامًا من الصداقة بينهما ليست أكثر من درس في استحالة معرفة الآخرين.

«لماذا لم تطلبي منهم إلقاءه خارجًا؟».

«لأنه قصد مكان عملي طالبًا المساعدة. نحن لا نقذف بأحد إلى الخارج إلا إذا كان عنيفًا أو مسيئًا. وهو لم يكن هذا ولا ذاك».

ضغطت مريم بلسانها على سقف حلقها كي لا يقول شيئًا قبل أن تصير

واثقة من أنها قادرة على الكلام من غير صراخ. قالت لها: «أمن المعقول بأن عملك لا يسمح لك بأن تكون لك استجابات بشرية؟».

«في هذه الحالة، لا».

في حياتها كلها، لم تسمع مريم زهرة محايدة هكذا. دارت مريم حتى صار ظهرها مستندًا إلى الجدار، وفعلت زهرة مثلها. إنهما الآن جالستان جنبًا إلى جنب، كتفاهما متلاصقتان. مالت كل واحدة برأسها صوب رأس الأخرى. «قولي لي كل شيء... من البداية».

قصت عليها زهرة كل شيء. لم تتكلّم بطريقتها المعتادة، طريقتها المباشرة غير المتردّدة التي تبدأ من البداية وتنتهي عند النهاية، بل بطريقة دائرية، بطريقة كأنها تلتفّ وتراجع نفسها وتضيف تفاصيل كثيرة... رائحة السترة المبللة بعرقه ظلت باقية في غرفة المكتب حتى بعد انصرافه... هل تتذكّر مريم الرائحة في سيارة جيمي؟ رائحة الكولونيا. لقد كانت منسية إلى أن تذكرتها اليوم. لقد نسيت أمورًا كثيرة عادت إليها اليوم... زهرة تنسلخ بعيدًا عن الحاضر عائدة إلى ذلك الأمر الذي لم تكادا تتكلمان فيه أبدًا... إلى تلك الليلة، وما أحسّته، وذلك الذعر الخالص، ذلك اليقين من أن شيئًا سوف يحدث، شيئًا لم تستطع أن تعثر له على اسم، لم ترد أن تضع له اسمًا. قالت مريم: نعم، نعم.

آخر الأمر، صمتت الاثنتان معًا. أراحت مريم يدها على ركبة زهرة، فوضعت زهرة يدها فوقها. ظلتا جالستين كذلك حينًا من الزمن، ثم ملأت مريم كأسي البيض مرة أخرى بالتيكيلا وقالت: «أود أن أرى كيف صار مظهره».

كان الأمر شديد السهولة باستخدام تطبيق Imij. دخلت مريم إلى صفحة صبا، ومنها إلى صفحة حمد الذي بدأ في الآونة الأخيرة يتابع حساب «جيمي حسين» حيث ظهر في صورة البروفايل متكئًا على سيارة فيراري. كم بدا مظهره عاديًا!... ليس إلا رجلًا في أواسط العمر في شكله قدر من السخف إذ ظهر مادًا يده، رافعًا إبهامه، إلى جانب سيارة

كان واضحًا أنها ليست سيارته. دخلت صفحته. صور متتالية لجيمي مع سيارات مختلفة: جيمي مع سيارة بورش، وجيمي مع سيارة لامبورغيني، وجيمي مع سيارة تسلا. نقرت زهرة على أيقونة صغيرة عند أسفل الشاشة. صورة أكثر وضوحًا: جيمي بقَصة شعره القديمة وحب الشباب في وجهه مستندًا إلى سيارة السوزوكي القديمة إياها.

بعد تلك السنين كلها، بدا الأمر غير واقعي. كان جيمي، جيمي مع سيارة السوزوكي، مختلفًا عما تتذكره مريم. قصير القامة، فتي جدًا، ابتسامة ودود. مرت بإبهامها على راحة يدها وتذكرت خطًا من الشحم على مقعد السيارة. يومها، كانت قلقة من أن يتسخ بنطلون الجينز المفضل عندها بذلك الشحم.

استعرضت محتويات صفحته حتى آخرها. لا شيء غير صوره مع السيارات.

قالت زهرة: «نعم، يحب السيارات... صارت قصة شعره أحسن مما كانت في ما مضى. لن تجدي شيئًا غير هذا».

«أستطيع أن أجد شيئًا».

قالت زهرة: «لا تفعلي ذلك!». ثم أضافت: «لا تخبريني».

نهضت واقفة ومضت صوب المطبخ كأن ما قالته ليس فيه ما يحتاج توضيحًا.

قالت مريم: «لا بأس». كانت واثقة من أنها فهمت ما أرادت زهرة قوله.

***

قالت لها ليلى عندما عادت إلى البيت وسمعت قصة زائرَي زهرة: «من الممكن أن يكون قد صار اليوم رجلًا مختلفًا. يبدو لي أن حمد هو الشخص الوضيع حقًا».

كانت ليلى مؤمنة بقابلية الطبع البشري للتحسن. هذا ما جعلها الشخص المثالي الوحيد الذي تعرفه مريم. زهرة لا تقع ضمن فئة المثاليين

الحقيقيين لأنها ليست مؤمنة بأن البشر يمكن أن يصيروا أحسن. كانت، فحسب، مقتنعة بأنها قادرة على تغيير العالم بقوة الحجة.

أجرت مريم المكالمة الهاتفية وهي تقف عند نافذة غرفة مكتبها في الطابق العلوي من البيت، في حين كانت ليلى وزولا تتقاذفان الكرة في الحديقة في غسق آخر أيام شهر يوليو. كان لا بد لمجريات جزء من حياتها أن يجري بعيدًا عن مسمع ليلى. رد الفتى الذهبي على اتصالها من الرنة الأولى. هتف باسم مريم بحماسة لعل فيها شيء من أثر المخدرات. لقد كان على جزيرة في البحر الكاريبي يخطط لشرائها بالمال الذي ستدرّه عليه الصفقة التي رعتها مريم حتى بلغت منتهاها.

قال لها، «لكن، كيف لهذا أن يكون وداعًا نهائيًا بيننا؟». منذ أمد غير بعيد، ترأست مريم الاجتماع الأخير لمجلس إدارة Imij، وكانت سعيدة بأن تنتهي من أمر تلك الشركة. سوف تظهر مشكلات جديدة في المستقبل، وسيظهر المزيد من أمثال الفتاة طاهرة، ومزيد من الضغوط على الحكومات كي تفرض غرامات، وكي توجّه اتهامات جنائية.

أدارت ظهرها إلى النافذة حتى صارت في مواجهة الجدار البعيد الذي تشغله، من أسفله إلى أعلاه، لوحة مرسومة على مرآة: امرأتان عاريتان ترقصان معًا أثداؤهما تكاد تتلامس، وأوراق شجيرة التين الباكي المزروعة في أصيص إلى جانب طاولة مريم منعكسة عليهما. أشاحت بعينيها عن اللوحة. نظرت إلى باب الغرفة الأبيض. قالت له وقد خفضت صوتها قليلًا: «لست أدري إن كنتَ مستعدًا لأن تقدم لي خدمة».

قال: «سأعطيك هذه الجزيرة إن أردتها. لكن، فقط إذا سمحت لي بالمجيء لزيارتك هنا من غير أن يكون معنا من يرانا غير نوارس البحر».

ضحكت، وذكّرته بأن لا بد له من عاملين على الجزيرة من أجل تنظيف الأوساخ التي تخلفها النوارس. بعد ذلك، حاولت أن تقول له ما أرادته حقًا.

أجابها: «كدت أجن وأنا أحاول العثور على هدية وداع من أجلك». صاح بهذا في الهاتف... أثر المخدرات، بكل تأكيد.

قالت له، محاولةً أن تضاهي نبرة المفاجأة في صوته إزاء ما حباه به الوجود من النعمة التي كان يبحث عنها، نعمة القدرة على أن يقدم لها هدية: «إليكَ ما أريد». كان سعيدًا بالأمر سعادة جعلته ينسى حتى أن يسألها عمّا يجعلها مهتمة بـ«جيمي حسين» هذا. فتحتِ النافذة بعد أن أنهت مكالمتها. أسندت ذراعيها المعقودتين على صدرها إلى النافذة ونظرت إلى لاعبتي الكرة في الأسفل. ركلت ليلى الكرة فانحرفت صوب حوض الورود. ألقت زولا بنفسها عليها فلم تبق غير سنتيمترات قليلة بينها وبين الأشواك على سوقها. قذفت ليلى بنفسها فوق زولا فأخبرها صراخهما الفرح بما كانت ليلى تفعله كي تحاول استعادة الكرة منها. صاحت مريم: «الدغدغة غير مسموح بها!»، فلوحت الاثنتان لها. صاحتا بها قائلتين إن عليها أن تكف عن «إدمان العمل» وأن تنزل وتلعب معهما.

ظهر في صندوق الرسائل الواردة في هاتفها رابط جديد. قذفت إليهما بقبلة، ثم أغلقت النافذة قبل أن تذهب وتجلس إلى مكتبها قبالة شاشة الكمبيوتر من مقاس سبعة وعشرين بوصةً. مئة وثمانٍ وسبعون صورة، وسبع عشرة مقطع فيديو. كانت مع الرابط جملتان قصيرتان: *ليست له علاقات كثيرة، ولا يخرج كثيرًا!*

كانت تدرك أن ليلى مخطئة في شأن قدرة البشر على التغير. مع هذا، أدهشتها سرعة توصّلها إلى دليل يبرهن على ذلك. مقطع فيديو من الليلة الماضية. فتاة لعلها في سن المراهقة تنظر إلى كاميرا الهاتف وتقول: «انظروا إلى هذَين المنحرفين!». أدارت كاميرا الهاتف صوب حلبة رقص -الظاهر أنها في نادٍ ليلي- ظهر في الصورة رجلان واقفان إلى جوار حلبة الرقص ينظران إلى مجموعة شابات صغيرات جدًا ترقصن معًا مرتديات فساتين قصيرة. لم يكن الرجلان يقولان شيئًا، حمد وجيمي، ينظران فقط. ينظران مثلما نظرت عينا جيمي إليها في مرآة السيارة، تلك الليلة، طيلة الوقت. اقتربت منهما الفتاة صاحبة الكاميرا، صاحت بهما: «يا منحرفان». أدار جيمي ظهره إلى الكاميرا. الرقبة النحيلة نفسها التي كانت تراها من

مقعد السيارة الخلفي. ابتعد مسرعًا. قذف حمد بقبلة صوب الفتاة قبل أن يلحق برفيقه. لم تتخلّ الفتاة عن ملاحقتهما. ليس لديها «خوف الفتيات» فهي محمية بتلك الكاميرا التي تسجل كل ما يفعله الرجلان. اندفعت بين الناس صائحة «منحرفان، منحرفان»، إلى أن اضطر حمد نفسه أن يسرع بخطوه لاحقًا بجيمي في طريقه إلى باب الخروج. عند الباب، استدار جيمي ونظر إلى الفتاة كأنه ينظر إليها من المقعد الأمامي في سيارة السوزوكي ذات النوافذ المظللة في طريق نابير.

كبّرت الصورة، ثم ظلت تكبّرها مركزة عليه إلى أن غامت صورته وصار لا شيء مثلما كان دائمًا. هو من قلَب حياتها كلها رأسًا على عقب. لم يكن شيئًا، لكنه قلَب حياتها. ذلك المتأنّق، ذلك المدعي. لقد كلّفها كثيرًا: كراتشي، وشركة خان للجلديات، وشركة جدها. ما من عدالة تعوِّضها عن هذا كله... ما من عدالة في أية محكمة. لكن، للعدالة أشكال أكثر قِدَمًا. العين بالعين والسن بالسن. صغّرت الصورة من جديد فعادت نظرته واضحة، نظرته المحدّقة الباردة التي لا تَريم.

***

أواسط شهر أغسطس. عادت لندن مثلما كانت، إذ استنفد «قصف» ضياء الشمس قواه بعد أن استمر قرابة ثلاثة أشهر. مرات كثيرة من الشواء في الحدائق، وتناول الطعام في المنتزهات ودعوات العشاء في الخارج... بل حتى، بالنسبة إلى مريم، سباحة طال انتظارها مع ابنتها في بركة هامستد للسيدات عندما ذهبتا إليها في أواخر شهر يوليو بعد بلوغها أخيرًا درجة حرارة يستطيع معها جسدٌ باكستاني أن يلقي بنفسه فيها من غير أن ينتابه إحساس فوري بأنه مقتلع من جذوره. قالت ليلى: «لكن جسدًا نيجيريًا لا يستطيع هذا»، ثم لم تلبث أن رضخت. كانت على كل واحدة منهما أن تكرر من غير انقطاع أن ذلك كان رائعًا. أخيرًا، صيف حقيقيٌ. لكن عطلة كل نهاية أسبوع كانت تأتي حاملة معها سؤالًا يزداد تحولًا إلى مطالبة ملحة: ماذا تفعلين كي تستفيدي من الطقس أقصى استفادة؟ كان

والدا زهرة قادمَيْن من كراتشي في زيارة، وكان والدها يريد أن يعرف ماذا يفعل كي يهرب من الطقس المشمس إلى أقصى حد يستطيعه. والآن... انتهى ذلك كله مع أن شهناز وحبيب علي عادا إلى موطنهما قبل أن يتغير الطقس.

هطلت بضع نقاط من المطر خلال نزهة زهرة ومريم يوم الأحد. وبعدها، عادتا إلى البيت فتناولتا طعام الغداء في الداخل وأغلقتا الأبواب الزجاجية كي تقيهما النسمات الباردة. لكن الساعة الآن لم تتجاوز وقت الظهيرة إلا قليلًا. صار الدفء كافيًا لأن يخرج الجميع إلى الشرفة لتناول القهوة. أصرت زولا على أنها صارت كبيرة إلى حد يسمح لها بالمشاركة، مع أنها لا تزال صغيرة بالقدر الكافي لأن تحب أن تسكب قهوتها فوق كرة من الآيس كريم بالفانيليا. استاءت عندما قالت لها مريم إن هذا ليس اختراعًا جديدًا، بل نوع معروف من الحلوى اسمه «أفوكاتو». قالت إنها لا تريده إذا كان الإيطاليون قد سبقوها إليه. لم تمض بعد ذلك إلا دقائق قليلة حتى كانت زولا تتناول الآيس كريم الذائب المشبع بالقهوة وهي تجلس على ذراع كرسي زهرة. كانت تحكي لها قصة الاكتشاف الفظيع، اكتشاف أن أقرب أصدقائها، مارك الذي عاش طيلة حياته على مسافة شارع واحد منها، سوف ينتقل إلى منطقة هايغيت. عندما قالت له إنه لا يجوز أن ينتقل، أجابها بأنها ستذهب إلى لاغوس ستة أشهر كاملة، ومن المحتمل كثيرًا أن تعثر هناك على أصدقاء جدد يصيرون من أعز أصدقائها.

قالت زهرة: «هكذا تعرفين الاختلاف في المعنى بين كلمتي ’صداقة‘ و’قُرب مكاني‘!».

ابتسمت مريم واستلقت على الأريكة واضعة قدميها في حضن ليلى. ضغطت ليلى بإبهامها على كعبها. كانت زولا قد أمضت الليلة الماضية في بيت مارك. وفي هذا الصباح، استيقظت مريم على فم ليلى متحركًا على عمودها الفقري بدلًا من الاستيقاظ على غناء زولا المعتاد الذي يعلن أن وقت الإفطار قد حان.

صار الضغط على كعب قدمها أكثر إلحاحًا... إنه إشارة.

نهضت مريم على مرفقيها وتناولت رشفة من قهوتها متجاهلة نظرة وولف المتوسلة. ذات مرة، لعقت الكلبة القهوة التي اندلقت على الأرض فلم تكفّ بعدها عن تمني تذوّق هذا الطعم مرة أخرى. «إذًا، ثمة أمر سوف يُعلن عنه قريبًا».

قالت زهرة لزولا: «استخدام مقلق لصيغة المبني للمجهول».

ضحكت زولا لأن عرّابتها شرحت لها -قبل قليل فقط- فكرة صيغة المبني للمجهول في اللغة.

«هناك حملة من أجل استقدام مزيد من الاستثمارات إلى بريطانيا. 'بريطانيا مفتوحة للأعمال'. وأنا واحدة من الأشخاص الذين اختيروا للظهور في هذه الحملة. سوف أكون 'مبعوثة أعمال عالمية'!».

قالت زهرة بنبرة صوت حيادية: «أليست هذه حملة حكومية؟». انتظرت إجابة قبل أن تتخذ موقفًا من الأمر.

لكن زولا كانت مَن انفجرت غاضبة عندما أومأت مريم برأسها إيجابًا. إن رئيس الوزراء شخص سادي، سطحي... شخص «متقيّح» تمامًا! ها هي الخالة زهرة تنفق حياتها كلها في محاولة منعه من إغراق الناس الذين يفرون من مناطق الحروب. فكيف تشارك ماما في واحدة من حملاته؟ هذا السؤال لم يكن موجّهًا إلى مريم، بل إلى زهرة.

نظرت زهرة إلى مريم. لم تعد إلى ذكر «المجلس الأعلى» بعد ذلك اليوم في شقتها؛ ولم تعد مريم إلى ذكر حمد. لم تعد أي منهما إلى ذكر جيمي. أومأت زهرة برأسها إيماءة صغيرة فبسطت مريم كفها صوب زولا كأنها تقول لها: *تابعي إذًا... دمريني!*

قالت زهرة: «هناك كثير من الأشخاص الجيدين جدًا ممن يتولون مناصب حكومية». طوّقت خصر زولا بذراعها... «رعاية الأطفال، وأزمة المناخ، واللاجئون. ثمة مناصب حكومية من أجل هذه الأمور كلها». ثم

نظرت إلى مريم وتابعت تقول: «الأمر الذي ينبغي التركيز عليه هنا هو أنهم طلبوا من ماما فعل ذلك لأنه ما مِن أحد أفضل منها».

وحدها زهرة تستطيع جعلها ممتنة ذلك الامتنان كله عندما تثني عليها، ممتنة مثلما كانت قبل عشرات السنين عندما قالت زهرة لها إنها صديقتها الحقيقية الوحيدة، وإن كل من عداها ليس موجودًا في حياتها إلا نتيجة «القرب المكاني».

قالت ليلى: «هل تعلمين أنهم يدعون ماما ملكة التكنولوجيا؟».

لكن زولا لم تتراجع. قالت: «هل سيتعين عليها أن تكون لطيفة مع رئيس الحكومة؟».

رفعت زهرة يديها كأنها تقول: فعلتُ كل ما أستطيع فعله.

قالت ليلى: «تعرفين كيف تشتكين دائمًا من أن كريستوبل تُباهي بأن أمها نالت وسامًا رفيعًا. هذا الأمر أكبر كثيرًا من ذلك الوسام».

كان هذا كفيلًا بأن يطغى على كل ما قيل من قبل. نهضت زولا ومشت مشية الديك التي هي طريقتها الفريدة في الاحتفاء بكل هدف تحرزه.

«هل تظنين أن الناس الذين يدعون ماما ملكة التكنولوجيا يعلمون أنها لا تزال غير قادرة على وضع الأشياء في كيس إعادة التدوير بطريقة صحيحة؟».

قالت مريم وقد أراحها هذا التحول في الحديث إلى أمور أكثر اتصالًا بحياتهم العائلية: «ليست إعادة التدوير مفيدة إلا بقدر ما يكون عصر ليمونة في المحيط مفيدًا من أجل تحويل مائِه إلى ليمونادة. أنتم تغسلون العلب وتضعونها في أكياس زرقاء، لكني أفعل أمرين اثنين: الأول هو الاستثمار في تكنولوجيا خضراء قد تكون قادرة على إنقاذ هذا الكوكب، والثاني شراء أرض في نيوزيلاندا كي نذهب جميعًا ونعيش هناك حيث تكون لنا أكبر فرصة في النجاة إذا فشلت التكنولوجيا واجتاحت العالم فيضانات أو اجتاحه جفاف».

قالت زهرة: «أخشى أنني سأكون وقتها شديدة الانشغال لكثرة 'لاجئي

المناخ'!». قالت زولا إنها ستفعل مثلها. فسألتها زهرة إن كان جيلها يستطيع أن «يسرع قليلًا» كي يتولى قيادة العالم.

قالت مريم: «لا تقلقي لأنني سوف أخدركما كلتيكما وأضعكما في الطائرة». بدا الارتياح على وجه زولا.

قالت ليلى: «سوف تفعل هذا حقًا. سوف تخدّرنا جميعًا إن اضطرت إلى فعل ذلك. وسوف تخدّر وولف أيضًا».

نهضت الكلبة عندما سمعت اسمها. بحركة واثقة، صعدت إلى كرسي الحديقة الفارغ وتكوّرت فوقه.

قالت زولا: «ماذا؟».

«أظنها قررت أنها بلغت تلك المرحلة من العمر التي لا يتعين عليها فيها أن تنام على الأرض». ضحكوا جميعًا لتلك الثقة التي أظهرتها وولف في فعل أمر درّبوها على عدم فعله عندما كانت جروة صغيرة. ران على الجميع شعور لذيذ بأنهم أسرة واحدة، شعور حملته لحظة الضحك المشترك هذه، إحساس مكوَّن من لحظات كثيرة أتت قبل هذا اليوم، من لحظات ممتدة عبر السنين.

انتقل الحديث إلى توقف عمل خط الباص رقم عشرة الممتد من هامرسميث إلى كينغز كروس، ذلك الخط الذي كان مَعلَمًا من معالم حياتهم عندما كانوا في العشرينيات. تجولت زولا في الحديقة غير مهتمة بذلك الحديث بعد أن اكتفت بإعلان أنها سوف تبدأ استخدام الباصات بمفردها كي تزور مارك في بيته الجديد في هايغيت. دفعت عربتها صوب استوديو ليلى، واختفت خلفه. إنه مكانها السرّي بين أجمات التوت البري الأسود. منذ طفولتها الأولى، تحب الاختباء هناك مع ألعابها.

أغمضت مريم عينيها، وعادت إلى استلقائها. كانت ليلى وزهرة تتكلمان عن صديقة مشتركة من أيام جامعة كامبردج، وكم تغيرت. صارت الآن مضجرة. فظيع قول هذا عن شخص ليست لديه عيوب أخرى. لكن هذا ما جعلهما غير راغبتين في لقائها مع أنها تعيش على مقربة شديدة.

وكما يحدث دائمًا عندما تتناولان هذه الصديقة وبَلادتها المخيفة (ليست بالأمر الجديد لأن مريم أبصرت على الفور ما فيها من بَلادة، وذلك منذ عشرين عامًا)، فقد قررتا أن عليهما أن تلتقياها قريبًا على العشاء لأن زمنًا طويلًا جدًا قد انقضى منذ آخر مرة جلستا فيها معها، ولأنهما لا تحبان أن تعتقد بأنهما تتجنبانها... مع أنهما شديدتا الرغبة في تجنبها. ابتسمت مريم ولم تقاطعهما. كم تحب سماعهما معًا، هاتين الاثنتين. تعرف تمام المعرفة كل نغمة في صوتهما وتستطيع أن ترى تعبير وجه كل منهما حتى من غير أن تفتح عينيها وتنظر إليهما.

سمعت زولا تناديها: «ماما»، ففتحت عينيها ورأت ابنتها تقف فوقها وقد أطبقت راحتي يديها فصار ما فيهما غير ظاهر. استوت جالسة وبسطت كفيها تحت قبضتي زولا... راحتا يديها... خط الحياة، وخط القلب... على تماس من جلد ابنتها. رأت ليلى تلتفت صوبها وسمعت كيف كفت زهرة عن الكلام في منتصف جملتها. ابتسمت لها زولا ابتسامة جادة. كان ذلك كأنهم أحسوا جميعًا بأن خيطًا واحدًا يشدهم معًا ويقارب بينهم مع أن أحدًا منهم لم يتحرك.

فتحت زولا يديها وباعدت بينهما. سقطت حبات التوت البري على يدي مريم المبسوطتين كأنها تتلو دعاء... حبات داكنة ناضجة، لامعة، حلوة مُرة في أواخر الصيف.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

لندن

شتاء 2019

لم تدرِ مريم إن كان مبلغ المئتي ألف باوند الذي تبرعت به يخوّلها أن تعزف أغنية «رجل أبيض في قصر هامرسميث» على البيانو الكبير في المقر الريفي لرئيس الحكومة، ذلك البيانو الذي كان ونستون تشرشل يحبه كثيرًا. من حين إلى آخر، تغزو عقلها واحدة من أفكار ليلى. وقد بدت هذه الفكرة لها مُرضية على نحو خاص مع أنها لم تعمل بها أبدًا... لا بسبب المكان، بل لأن ليلى -لا مريم- هي القادرة على عزف أغاني فرقة «ذا كلاش» على البيانو. ليلى التي ستكون في لاغوس مع زولا بعد أسبوعين من الآن.

اقترب منها وزير المالية مسرعًا. صار مسلكه معها لطيفًا بعد «إفطار العمل» مع قادة التكنولوجيا في نيويورك، ذلك الإفطار الذي اقتنع فيه المدير التنفيذي في واحدة من شركات الإنترنت بأن يبقي الإدارة الأوروبية لشركته في لندن بعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي. حقيقة الأمر هي أن ذلك المدير التنفيذي لم يفكر جديًا في نقل المركز من لندن، لكنه كان على معرفة قديمة بمريم، وكان مدينًا لها بقسط من بواكير نجاحه لأنها استثمرت في شركته. من هنا، سرّه أن يبالغ في أهمية ذلك الإفطار عندما تكلم مع وزير المالية.

قال لها الوزير: «أهذه أول مرة لك في المقر الريفي؟».

«ماذا يقول تشرشل إن رآنا معًا في هذه القاعة؟».

لم يعجبه هذا. لم يعجبه إيحاءها بأنهما ندان، ولا تذكيرها له بأنهما، كلاهما، أمر عارض. فعل ما يفعله عادة بأن نظر من فوق رأسها صوب شخص آخر في القاعة. ابتعدت مريم عنه متجهة صوب زوجة رجل أعمال روسي صارت صديقة لها بعد التقائهما في عدد من مناسبات «المجلس الأعلى». لقد اكتشفتا متعة تحويل أوسع الرجال نفوذًا في البلاد إلى تلامذة مرتبكين كلما ابتعدتا عن بقية الحاضرين قائلتين «شؤون نسائية»، تلك

العبارة التي تغطي جملة كبيرة من الأمور المحتملة، من الفوط النسائية إلى مشابك الملابس التي لا يمكن أن تبقى ثابتة خلال المسافة الطويلة في الممرات المفضية إلى الحمامات. والآن، كان رجاؤها أن يسمح لهما الاستنجاد بعبارة «أمور نسائية» بأن تغادرا القاعة الكبرى بأرضيتها الخشبية ولوحاتها المزعجة المكدّسة على الجدران كي تتجولا في بقية أرجاء البيت الريفي لرئيس الحكومة. إلا أن رئيس الحكومة نفسه اعترض سبيلها.

قال لها: «دعيني أخبرك كيف ترصدين، في هذه القاعة، رجلًا لا تستطيعين أن تضعي ثقتك فيه». أمسك بمرفق يدها وقادها إلى زاوية بعيدًا عن الجميع. كانت هناك لوحة معلقة على مستوى العين، على ألواح الجدار الخشبية مباشرة. نظر إليهما من تلك اللوحة رجلًا يبدو راضيًا عن نفسه. كم يبدو واضحًا أن الطبقة الحاكمة في إنكلترا لم تتغير إلا قليلًا جدًا على مر القرون! أو... لعل السلطة تضفي على الناس طابعها الخاص المميز. لم يكن في تعبير وجه ذلك الرجل في اللوحة أي شيء لم تعرفه منذ نشأتها... «رسمت هذه اللوحة فنانة؛ وكل رجل راغب في إقناع امرأة بإعجابه بإعجازات بني جنسها يأتي بها كي يحدثها عنها».

ابتسم فأجابته بابتسامة مماثلة كي يرى أنها فهمت نكتته وأنها تراه رجلًا ذكيًا ساحرًا. «كان حريًا بي أن أعرف المزيد عن الفن بعد السنين الطويلة التي أمضيتها مع ليلى. إنها شريكتي... نعيش معًا، وهي فنانة».

لم يظهر عليه أي تغير، لكن يده الممسكة بمرفقها تراخت قليلًا. سألها: «ما أود معرفته حقًا هو... كيف استطعت إنجاز ذلك؟».

«ذلك!؟».

«لقد عثرتُ على ما يلزمك بالضبط كي تستخدميه ضد ذلك الرجل. بطبيعة الحال، أريد معرفة السبب».

أجابت: «عثرت على المعلومات بطريقة تقليدية جدًا. استعنت بشركة خاصة للتحريات. كيف كان لي أن أفعل غير هذا؟».

أفلتَ مرفقها: «حقًا، كيف كان لكِ أن تفعلي غير هذا. لا بد أن لديك شركة تحريات خاصة شديدة البراعة في عملها... لقد استطاعت العثور على تلك الإبرة في كومة القش التي كانت ملكًا لك حتى يوم أمس».

«صحيح. أليست هذه مصادفة غريبة؟».

أسرعت إليهما زوجة رجل الأعمال الروسي. صوت حفيف فستانها الحريري ذي الكمين الضخمين مسموع بكل وضوح. أتت استجابة للإشارة المتفق عليها التي تلقتها من مريم: مست أذنها بأصابعها.

«كان رئيس الحكومة يحدثني عن هذا الشخص الشاحب». قالت هذا مشيرة إلى اللوحة وابتسمت للرجل الواقف معها. سقطت القشور عنه كاشفة عن قبح رجل غير قادر على تقبل أي شكل من أشكال الإساءة... «من الواضح أن امرأة رسمتها».

قال: «أوه، صحيح»، ثم غمز لها بعينه غمزة تآمرية.

قالت مريم: «الجو جميل هنا». اقتربت من النافذة المشرفة على الحديقة الواسعة المعتنى بها جيدًا. كان المكان أشد برودة مما ينبغي لأن التدفئة مضبوطة بما يلائم الرجال في ربطات العنق السوداء... تدفئة غير كافية للنساء اللواتي ارتدين فساتين السهرة. «لكني واثقة من أنك راغب في الفرار إلى مكان مشمس في وقت من الأوقات خلال هذا الشتاء». كان الرجل معروفًا بولعه بعطلاته التي يمضيها عند شاطئ البحر. قالت له إن لدى واحد من أصدقائها بيتًا رائعًا على جزيرة، ثم جعلته يدرك أن ذلك الصديق يمتلك الجزيرة كلها. عبرت أيضًا عن يقينها من أن ذلك الصديق سيكون سعيدًا باستضافته هناك. جعلته يرى بعض الصور في هاتفها. أعجبته الفكرة، وقال إن المكان يبدو مثل الجنة. استمر الكلام بينهما.

***

قال الرجل، «ابتسمي»، فاتخذ فم زهرة هيئة تكشيرة لا يمكن لأحد إلا أن يراها معبّرة عن السعادة.

قال لها: «هل تعتبرين هذه ابتسامة؟». لكنها واصلت النظر إلى الكاميرا بتلك الابتسامة المتجمدة، وبتلك العينين اللتين أرادت أن تكون نظرتهما ميتة. في أماكن من هذا النوع، لك أن تمارس ما تستطيعه من تخريب، شريطة أن تستطيع الإفلات بذلك. لقد سمِعت بهذا الحارس من زميلة لها في مهنة القانون زارت مركز الاحتجاز في الآونة الأخيرة. تعرفينه من وشم فان كوخ على ذراعه محاطًا بأزهار عبّاد الشمس. هذا ما قالته لها زميلتها. يطلب من كل من يأتي أن يبتسم من أجل الصورة التي يعلقها من شريط كي تصير بمثابة إثبات لشخصية صاحبها... ولا يستثنى من ذلك حتى من يأتون كي يودّعوا أحبابًا لن تراهم عيونهم بعد ذلك أبدًا. ناولها الصورة فرأت عِرقًا دمويًا في عضده مرتسمًا على وجه فان كوخ. ثبّت من حول معصمها عصابة مكتوبًا عليها كلمة «زائر». اجتازت الخطوات القليلة إلى طاولة المكتب حيث كان عليها أن تسلم الكتاب الذي أتت به. كانت الحارسة الجالسة خلف ذلك المكتب ترتدي مثل بقية زملائها - حذاء ضخم أسود اللون، وبنطلون أسود، وقميص أسود عليه شعار شركة الأمن الخاصة التي تدير مركز الاحتجاز. لكن ابتسامتها كانت ودودًا، ثم لم تلبث أن صارت ابتسامة أسف صادق عندما زانت الكتاب، قالت لها إن وزنه أكبر من الحد المسموح به. عندما اختارت زهرة هذا الكتاب، لم تنتبه إلى الوزن الذي لا ينبغي أن تتجاوزه أية مقتنيات شخصية يسمحون للمحتجز بحملها. لقد جعل كتاب *«أفضل المخبوزات في بريطانيا»* موازين عزام تتجاوز الحد المسموح به.

قالت المرأة: «سبعون غرامًا فقط». لا بد أنه رقم بسيط يمكن التغاضي عنه؛ لكن المرأة مدت يدها إلى درج مكتبها وأخرجت منه مقصًا. نظرت زهرة والحارسة إلى جدول المحتويات في الكتاب، محاوِلتَين تقرير ما يمكن التخلي عنه. الكعك؟ الفطائر؟ البسكويت الفاخرَ؟ في آخر المطاف، قصّت زهرة مقدمة الكتاب وفصلَيّ السوفليه وكيك الفاكهة. وضعت المرأة الكتاب في كيس، ثم قالت لها إن المحتجز سيستلمه بعد تفتيشه للتأكد من أنه غير محتوٍ على أية مهرّبات.

اخترقها برد شهر ديسمبر عندما سارت خارجة من المبنى، تاركة خلفها ما فيه من شجرة عيد الميلاد ولوحات جدارية مأخوذة من ديزني، ولوحة «تسجيل الدخول» الغريبة المعلقة فوق طاولة المكتب، وكأن مركز الاحتجاز هذا ليس إلا قسمًا من أقسام المطار الذي أقيم إلى جواره. عند عبورها ساحة وقوف السيارات، صارت قادرة على رؤية مدرج المطار عبر السياج: طائرة «بريتش إيرويز» تدرج هناك حاملة أشخاصًا ذاهبين إلى عطلاتهم، أو في رحلات عمل، أو إلى لقاءات طال انتظارها. أحست عارًا لأنها جزء من ذلك العالم غير المنتبه إلى أن حق المجيء والذهاب رفاهية لا يحظى بها بشر كثيرون.

سارت صوب المبنى الشبيه بمستودع، ذلك المبنى الذي وجّهوها إليه. دفعت الباب الثقيل بكتفها كي تفتحه. على الباب لوحة عليها كلمة «الزيارات». كان ينبغي أن يكون الابتعاد عن تلك الريح الباردة أمرًا مريحًا، لكن ما في الداخل بدا لها أكثر إزعاجًا من الطقس في الخارج. غرفة تلو غرفة، وحارس تلو حارس يتفقدون رقم الزائر الذي حملته، ويتحقّقون من الصورة، ويجعلونها تمر عبر بوابة التفتيش الإلكتروني ومن بعدها تفتيش شخصي كامل مع أن البوابة لم تصدر طنينًا. جعلوها تفتح فمها كي ينظروا فيه، وتحرّوا الجلد خلف أذنيها، وجعلوها ترفع شعرها عن رقبتها مع أنه لا يكاد يغطيها. يحس المرء نفسه مجرمًا لمجرد وجوده هنا. عبرت بابًا آخر، ثم بابًا آخر، ثم غرفة انتظار، ثم بابًا آخر. أخيرًا، بلغت مبنى الاحتجاز. انفتح الباب مُصدرًا زعيقًا حادًا كأن المبنى حيوان مذعور أو غاضب، ثم انطبق الباب من خلفها فكان الصمت في الداخل مطلقًا. لا زقزقة عصافير، ولا أصوات طائرات، ولا شيء من الحياة الجارية خارج هذا المكان. أبواب جديدة، وأدراج، وحراس، وتفتيش، ثم وجدت نفسها في غرفة الزائرين ذات السقف المنخفض والنبتة الوحيدة الذابلة في حوضها. أشار إليها الحارس الواقف في آخر الغرفة بأن تجلس إلى طاولة عند النافذة مع أن الغرفة كانت خالية من أي زوار آخرين... لماذا لا يكون مسموحًا لها بأن تختار مكان جلوسها؟

كانت النافذة تطلّ على باحة. هناك، تأتي الشاحنات المغلقة بالمحتجزين الموجودين في هذا المكان. وهنا، يصعدون إلى الشاحنات المغلقة التي تأخذهم إلى طائرات تعود بهم إلى البلدان التي غادروها، بل فروا منها أكثر الأحيان. كانت من فوق الباب الذي يدخل منه المحتجزون ويخرجون لافتة تقول: «نحن أسرة واحدة سعيدة بصرف النظر عمن نكون». أي عقل فكّر في وضع هذه اللافتة هناك؟ أزاحت فظاظة المكان من ذهنها تلك الكلمات المألوفة كلها... لا *أخلاقي*، *من غير إحساس*، *لعبت السياسة بحياة الناس*... وحلت محلها كلمة جامعةٌ واحدة: *الشر*.

سمعت من يقول لها: «شكرًا لأنك أتيتِ». رفعت رأسها فرأت رجلًا في بدلة رياضية وشبشب منزلي. إنه عزام. تغير كثيرًا. فقد من وزنه قسمًا لا يستهان به؛ وألقى الإرهاق ظلالًا على عينيه. ابتسم لها ابتسامة واهية كأنه لم يبتسم منذ زمن طويل جدًا فما عاد يعرف كيف يكون الابتسام.

ناولته فنجان القهوة الذي اشترته له من آلة البيع خارج الصالة مستخدمة الباوندات الخمس التي سمحوا لها بإدخالها لهذه الغاية ـ ظل كل ما كان معها في خزانة صغيرة في قسم تسجيل الدخول.

رفع غطاء الكأس وتشمم القهوة متلذذًا. قال لها: «من يريد موكاتشيو مزدوجًا مع حليب الشوفان؟». عاد وجهه مألوفًا لها... للحظة واحدة.

قالت له: «اشتريت لك الكتاب الذي طلبته مني. لكنه كان ثقيل الوزن فاضطررت إلى قص قسمي السوفليه والكيك بالفاكهة و... شيء آخر، ماذا كان ذلك الشيء؟».

«أرجو ألا يكون قسم الكلير؟».

«عزام، أنا لست حيوانًا كي أفعل بك ذلك».

«بل أنت ملاك». رأته يلقي نظرة سريعة إلى رسغ يدها ويرى السوار الذي قدمه إليها هدية.

قال لها: «سوف أقيم مخبزًا، في كابول. لم يأكلوا أبدًا أشياء من هذا القبيل. تارت الشوكولاته مع الليمون بالسكر. الفوندان محشوًا بالكراميل

المملح. سوف أصير مليونيرًا. وسوف تأتي إذاعة «بي بي سي» كي تجري مقابلة معي. سأقول لهم إن بلادكم أرسلت شاحنة نقل من أجلي... كأنني قطعة أثاث قديمة». استند إلى ظهر مقعده وأغمض عينيه، فبدا كأن فورة التفاؤل تلك قد استهلكت طاقته كلها، فلم يبق له منها شيئًا.

لقد قالت القاضية التي نظرت في استئنافه إنها كانت ميالة إلى الحكم بأن في مقدوره البقاء لو أن تلك اللكمة كانت السبب الوحيد لرفض طلب إقامته. لكنه خالف القانون عندما عاد إلى العمل، فلم يترك لها خيارًا غير تأييد قرار وزارة العمل. كان محاميه يحاول أية طريقة أخرى للاستئناف. لكن زهرة كلمت المحامي ففهمت أن ما من أمل حقيقي.

قال لها عزام: «آسف، أعرف أنني خذلتك».

هزت رأسها، لكنها لم تستطع قول أي شيء.

«هذا كله لأنني عملت في مطبخ مقابل ستة باوندات في الساعة. لو لم أعمل لكنت الآن في المخبز منتظرًا وصول السيد بوز كي يأخذ قهوة بعد الظهر مع الكيك بالليمون. وكنت سأكتب لراي الجالس إلى الناحية المقابلة من الشارع رسائل نصية عن كرة القدم. كنت سأفكر في ما سأطهوه مع زوجتي من أجل العشاء». هز رأسه متحسرًا على استحالة ذلك كله، على تلك التفاصيل العادية في الحياة التي صارت معجزة لن يعيشها بعد الآن. تذكرت زهرة وجبات العشاء أيام مراهقتها عندما كانت تناول والدها المملحة وتتساءل في نفسها إن كانت تلك آخر مرة... إن كان سيأتي أحدهم ويأخذه بعيدًا.

«كم سيجعلونني أبقى هنا؟ سوف أجن».

قالت زهرة: «ليتني أعلم!» ما من حد زمني لمدة الاحتجاز. قد تكون أيامًا، أو أسابيع، أو حتى شهورًا. لقد سمعت عن حالات بلغت فيها مدة الاحتجاز أعوامًا. منذ زمن بعيد يحاول مركز الحريات المدنية تغيير القوانين... «هل شروط احتجازكم هنا سيئة جدًا؟».

«ستة معًا في زنزانة. فيها مرحاض، لكن من غير خصوصية. لماذا لا

يضعون حاجزًا عند المرحاض. لماذا لا يستطيعون فعل هذا؟ يريدون منا إدراك أننا حيوانات في نظرهم، أننا لسنا أكثر من حيوانات».

كان يتكلّم وينظر عبر الباحة في الخارج، ينظر إلى كرتي القدم العالقتين بين الأسلاك الشائكة فوق الجدار. كانت زهرة تظن أنها تعرف ما يجري في هذه الأماكن، لكن ما من أحد ذكر لها من قبل شيئًا عن المراحيض من غير خصوصية - لعلها شكل جديد من امتهان الكرامة! ولعل ثمة أشكالًا كثيرة جدًا من امتهان الكرامة، أشكالًا كثيرة إلى حد لم يستطع معه أحد أن يسجلها كلها.

«هي باقية هنا، أليس كذلك؟».

كانت تعني زوجته، شاز. هي لا تعرف عن كابول إلا أنها المكان الذي غامر أبوها وأمها بالكثير كي يفرا منه. عائلتها كلها في لندن - الوالدان والإخوة والأخوات وأبناؤهم وبناتهم. أصدقاؤها جميعًا موجودون هنا، وكل ما تعرفه في العالم موجود هنا. كل شيء عدا عزام.

«تظن أنني لا أعلم. لن تخبرني أثناء وجودي هنا. يحاول الناس دائمًا أن يقتلوا أنفسهم، وينجح بعضهم أحيانًا». نصب عزام ظهره ودعك عينيه براحتي يديه. «آسف! ليس من أجل هذا طلبت منك أن تأتي. لقد كان هنا رجل قال إنه يعرفك. قال عنك أمورًا لم تعجبني. كدت أضربه. لكني قلت في نفسي إنك لا تريدين أن أضرب شخصًا آخر. هل تعرفين رجلًا اسمه جيمي؟».

«هل جيمي هنا؟».

رفعت رأسها ونظرت إلى الباب كأنها توقعت أن يأتي داخلًا عبره.

«لم يعد هنا. وضعوه في طائرة أعادته إلى باكستان. لكنه كان يقول عنك أمورًا سخيفة. قال إنك تتعاونين مع وزارة الداخلية في ترحيل الناس من إنكلترا. قال لي إنك أنت من قلت لهم أن يرفضوا طلبي. قال هذا لأن رفضه كان للسبب نفسه تمامًا: الطبع والمسلك الرديئان! قال إنه يعرف أنك السبب في رفض طلبه».

قالت من غير تفكير: «هذا سخف. لا بد أن هناك سببًا محددًا لرفض طلبه».

«نعم، قال إنه أمر فعله منذ سنين طويلة».

رفعت كعبَيّ حذائها عن الأرض وضغطت على السجادة بقوة كي تمتص الطاقة التي سرت فيها سريعًا. كانت أنفاسها متقطعة قليلًا عندما سألته: «منذ كم سنة؟».

«في بداية مجيئه إلى هذه البلاد. خمس سنوات، أو ست سنوات. هناك فاتورة لم يدفعها. كانت قيمتها أقل من عشرة باوندات. من أجل ذلك طردوه من البلاد».

أحست انفراجًا هائلًا: «أنا لا أعمل مع وزارة الداخلية، يا عزام».

«أعرف هذا. لكني ظننت أن من الضروري أن تعلمي بالأمر. قال إنه يعرف من يكون والدك، وإنه سيذهب إليه ويخبره بما فعلته به».

سأقول لوالدك! هذا كل ما لديه في جعبته كأنه تلميذ مدرسة خائف يعلم أنه لا يستطيع صد اللكمة الموجهة إليه. كادت تحس إشفاقًا عليه... فاتورة لا تتجاوز قيمتها عشرة باوندات!

عزام لم يعجبه جيمي. لقد قال جيمي إن كل من يحاول استئناف قرار ترحيله ليس إلا شخصًا غبيًا (اعتذر عزام عندما استخدم هذه الكلمة المسيئة. لكن هذا ما قاله جيمي). قال إن نظام الاستئناف أكذوبة. يطول الأمر عدة سنين فيجد المرء نفسه مضطرًا إلى ارتكاب جريمة من النوع الذي ارتكبه عزام. وفي غضون ذلك، تذهب مدخراته كلها إلى المحامين. قال إن عزام غبي مرتين لأنه يجلس هنا منتظرًا أن يعثر محاميه على طريقة لإخراجه قبل أن تعثر الحكومة على رحلة طائرة كي ترسله خارج البلاد. لم يستأنف جيمي قضيته، ولم يشتر لنفسه بطاقة طائرة كي يعود إلى كراتشي عندما رفضوا طلب حصوله على الإقامة هنا. بناته في لندن مع زوجته السابقة. يعلم أنها لن ترسل البنات كي تزرنه في باكستان.

هكذا، تجاهل جيمي إخطاره بمغادرة البلاد إلى أن اقتحم رجال

مسلحون بابه عند منتصف الليل واقتادوه إلى هذا المكان. كانت بناته تأتين لزيارته في مركز الاحتجاز كل عطلة نهاية أسبوع. وأيضًا، أتى موظفو الهجرة لرؤيته. كانوا على علم بأن لديه مالًا لشراء بطاقة طائرة. لو فعل ذلك، لسمحوا له بالتوجّه إلى طائرة الخطوط الجوية الباكستانية ومغادرة البلاد بمفرده. لكن لا... لقد أراد أن تستمر زيارة بناته الأسبوعية أطول مدة ممكنة.

نظرت زهرة في الغرفة. طاولة أخرى صارت مشغولة الآن. رجل في مثل ملابس عزام يجلس إلى تلك الطاولة وقبالته رجل آخر يرتدي بدلة من ثلاث قطع، بدلة بالغة الأناقة. الرجلان في الستينيات، بل لعلهما في السبعينيات. ذراعا الرجل الأول معقودتان على صدره، والرجل الثاني جالس وقد دس يديه تحته. كان الاثنان صامتين يتبادلان نظرات يعرفها كل من عرف الحب. علا صدر الرجل الأول، ثم أطلق زفرة طويلة. خفض الرجل الثاني رأسه. مد الرجل الأول يده مسح بها دمعة صديقه وحملها إلى شفتيه.

قال عزام: «سبعة أسابيع. ظل جيمي هنا سبعة أسابيع. هل تستطيعين فعل هذا؟».

هل تستطيع هي أن تبقى في هذا المكان سبعة أسابيع من أجل زيارة أسبوعية واحدة... مهما يكن الزائر؟ من يمكن أن يكون من يزورها؟

قال عزام من جديد: «لم يعجبني ذلك الرجل. لكنه لم يستحق هذا. ما من أحد منا يستحق هذا». إنه محطم منذ الآن، ولم يمر عليه هنا إلا أحد عشر يومًا. سبعة أسابيع!

أشاحت بوجهها عن عزام حتى تنظر إلى كرتي القدم العالقتين بين الأسلاك الشائكة، ثم تحولت عيناها إلى السماء الزرقاء في الأعلى. مرت طائرة عبر تلك المساحة السماوية. كان الشعار الذي على ذيلها غير مألوف. تخيلت الرجال والنساء الجالسين عند النوافذ ينظرون إلى إنكلترا آخر مرة؛ ثم تخيلتهم ينظرون إلى الأمام فقط، غير راغبين في النظر إلى الحياة التي فقدوها إلى الأبد.

***

بدأت شجرة عيد الميلاد تذبل. أوراق الصنوبر الإبرية مبعثرة على الأرض عند الباب المنزلق المفضي إلى الحديقة. كانت مريم تنزع الزينات عن أغصان الشجرة فتلقي بالصلبة منها في حقيبة ظهر عليها صورة دب قطبي وتناول زهرة القطع القابلة للكسر حتى تغلفها. كان صوت نصرت فاتح علي يغني عن السكر عبر مكبرات صوت صغيرة إلى حد جعل قدرتها مدهشة. إنها آخر أمسية في السنة. سافرت زولا وليلى منذ ثلاثة أيام، ثلاثة أيام طويلة جدًا. أنزلت مريم قطعة زينة على هيئة كلب صيد، ونظرت إلى وولف في الناحية الأخرى من الغرفة، كانت تشخر نائمة في فراشها.

تابعت زهرة نظرة مريم. قالت لها: «ستشعرين بالوحدة أثناء وجودك في المكتب».

«ما أكثر ما تتلقاه من محبة الجيران. لقد أقاموا مجموعة دردشة كي ينسّقوا زيارات لها كل بعد ظهر في الوقت الذي ألفت فيه عودة زولا وليلى من المدرسة. كلبتي أكثر شعبية مني».

«ماذا، ماذا؟ أنا أحبك». ربتت زهرة على رأس مريم مثلما تربّت على رأس كلب.

مرت سنوات كثيرة منذ أن كانتا معًا آخر مرة في ليلة رأس سنة. عادة ما تخرج زهرة مع روز وبقية المجموعة في حين تبقى مريم مع ليلى وزولا ومارك وأسرته. أما هذه السنة، فقد بدأت زهرة تتكلم عن الوجبة التي ستعدانها معًا في رأس السنة وكأنه قد تقرر مسبقًا أن السهرة ستكون مقتصرة عليهما. الآن، بدأت رائحة البرياني بلحم الخروف تتسلل إلى الغرفة ممتزجة برائحة شموع الياسمين الموقدة في كل مكان، على الطاولات والرفوف، بل حتى الأرض... شموع انتفت معها الحاجة إلى إضاءة أية مصابيح غير المصابيح التي في شجرة عيد الميلاد.

غلّفت زهرة قطعة زينة زجاجية ووضعتها في علبتها، ثم حملت كأس النبيذ الأحمر وتشممته مقرّبة أنفها من حافته الواسعة. نظرت إلى مريم ورفعت حاجبيها - لا حاجة لأن تكون خبيرة نبيذ كي تعرف أن هذا ليس

نبيذ «كوت دي رون» المعتاد الذي يبلغ ثمن زجاجته اثني عشر باوندًا، بل نبيذ من بيت مريم وليلى. لعل ثمنه ألف باوند... مع أن مريم لم تتطرق إلى ذكر هذا الأمر. كانت الزجاجة هدية من مارغريت رايت، هدية فاخرة إلى حد غير مألوف... جنت مارغريت أرباحًا كبيرة من بيع تطبيق Imij، فكانت هذه الهدية اعترافًا منها بالفضل. رفضت ليلى أن تشربها وقالت إنها لا تستطيع أن تفيها حقها من التقدير.

قالت زهرة: «رفضوا طلب الإقامة الذي قدمه جيمي». كانت قد سارت متجهة صوب الباب الزجاجي المنزلق ووقفت حيث لا تستطيع مريم رؤيتها.

«أوه!؟». كانت مريم تفك حبل زينات على شكل كاسيتات تسجيل صغيرة عالق بين إبر الصنوبر.

«انتهى به الأمر إلى مركز الاحتجاز نفسه الذي وضعوا فيه عزام، ثم رحّلوه. كان يزعم أنني جعلت وزارة الداخلية ترفض طلبه».

التفتت مريم من فوق كتفها في اتجاه زهرة. كانت زهرة تنظر إلى شيء في السماء. لا يزال الوقت طويلًا على حلول منتصف الليل، لكن لا بد أن اللندنيين من الأحياء المجاورة كلها قد تسابقوا للتجمع فوق تلة برايمروز كي يحصلوا على مواقع جيدة لمشاهدة الألعاب النارية فوق النهر. لعل بعضهم قد بدأ الآن يطلق مناطيد صغيرة، حمراء وسوداء، كي تحلّق عاليًا في سماء الليل.

نقرت مريم على هاتفها كي تخفض صوت الموسيقى. قالت: «لست واثقة من أنني أفهم ما يجري هنا؟».

«يجري أين؟».

«هل تقولين هذا حتى تخبريني بأمر، أم حتى تطرحي عليَّ سؤالًا؟».

«ماذا يمكن أن أسألك؟».

قالت مريم: «لا بأس»، واستدارت عائدة إلى الشجرة.

سألتها زهرة بعد بضع لحظات: «لو كنت أطرح عليك سؤالًا، فماذا تقولين؟».

«عندها، سأقول لك لا تقلقي. لقد حرصت على أن يبقى اسمك خارج الموضوع تمامًا».

رمت مريم بشريط الكاسيتات الخشبية الصغيرة في الكيس، وألقت نظرة جزعة على كمية الزينة الباقية على الشجرة. كانت حريصة على الدوام، وليلى مثلها، على عدم إفساد زولا بالدلال، فالحياة هنا باذخة بالقدر الكافي إن هي قورنت بحياة بقية زملائها في المدرسة الحكومة -ليلى هي التي كانت مصرّة على المدرسة الحكومية- لكن شجرة عيد الميلاد مستثناة من ذلك. عشر أقدام علوًا، وأغصان مثقلة كلها. لا بد لهم من سلّم حتى يستطيعوا بلوغ قمتها. لماذا لا تساعدها زهرة؟

«لقد رفضوا طلبه نتيجة فاتورة لم يدفعها. فاتورة قيمتها عشرة باوندات». كانت زهرة الآن قد استدارت صوب مريم، وكانت عابسة قليلًا كأنها في ضيق من أمر تحسّ بأنها قادرة على فهمه، لكنها لا تستطيع.

«أأنت تخبرينني أم تسألينني؟».

«بل أسألك».

فتحت مريم تطبيق Imij وكتبت عبارة «*هنتاكي فرايد تشِكن*» في نافذة البحث، ثم نقرت على خيار «التاريخ» وحركت مؤشر التاريخ إلى حيث أرادت. ظلت زهرة واقفة حيث كانت فذهبت مريم إليها ورفعت الهاتف أمامها كي تستطيعا أن تتابعا معًا مقطعًا سجلته كاميرا مراقبة، كان ذلك المقطع منشورًا منذ خمس سنين. إنه المقطع الأخير الذي كان في المجلد الذي أرسله إليها الفتى الذهبي. يومها، نقرت عليه وقد شارفت على فقدان الأمل في أن تعثر على أي شيء تستطيع استخدامه. كانت تدرك أن تسجيلًا فيه رجل يحدق بنظرة شهوانية في فتيات في ملهى ليليّ لن يكون وافيًا بالغرض.

ثم رأت هذا: رجل يرتدي قميصًا عليه شعار «هنتاكي فرايد تشِكن» يضع ورقة مستطيلة الشكل على طاولة سطحها من الفورمايكا، ويكلم

مبتسمًا اثنين من الزبائن. سار الرجل مبتعدًا، وبعد ثوانٍ قليلة، أشار واحد من الرجلين -إنه جيمي- برأسه صوب الباب. فنهض الرجلان وجريا خارجين من المكان.

قال ذلك المنشور: وجبة هنتاكي فرايد تشكن ممتازة نقدمها مجانًا إلى من يستطيع تحديد هوية هذين الرجلين.

قالت مريم: «راتب مهندس، لكنه لا يريد دفع ثمن الدجاج المقلي. يا له من فاشل كبير!».

نقرت زهرة على مفتاح التشغيل فتكرر المقطع. دعكت وجهها براحة يدها وكان واضحًا أنها نسيت الكحل الذي وضعته كي تضفي على الليلة جوًا احتفاليًا.

«كيف عثرت على هذا؟».

«لا أستطيع القول».

«و... ماذا؟ هل كتبت إلى وزارة الداخلية وقلت لهم إن هناك رجلًا يبدو أنه قد هرب من المطعم من غير أن يدفع ثمن الدجاج المقلي؟».

«الظاهر أنني فعلت أمرًا من هذا القبيل».

«لا يظهر الطعام في المقطع. لعله كان غير ناضج. من حقه أن يخرج من غير أن يدفع إن لم يكن الطعام بالمستوى المطلوب».

«هل أنت جادة في هذا؟».

«لا أستطيع تصديق حتى أن وزارة الداخلية يمكن أن تعتبر هذا المقطع دليلًا على أي شيء».

كان في صوت زهرة شيء من النكَد وكأنها ترى نفسها الوحيدة التي تعرف كل شيء، وتعرف كيف تعمل وزارة الداخلية... فكيف تجرؤ مريم على أن تقلب توقعاتها رأسًا على عقب.

تناولت مريم رشفة من كأسها ونظرت إلى الخارج من جديد. نظرت زهرة معها. بدا كأن واحدًا من المناطيد الصغيرة قد علق في أغصان شجرة الجيران. لكن ذلك كان مجرد نوع من خدع النظر. لقد بدأ المنطاد هبوطه

في لحظة بان عندها أمرٌ جميلٌ كأنه يحمل خطرًا: نار مكشوفة يمكن أن تسبب حريقًا.

«لقد استعنتِ بالمجلس الأعلى». كان صوت زهرة خافتًا كأنها تكلم نفسها.

«أظنني سألت بعض الناس كي أتأكد من وصول المعلومات إلى من ينبغي أن تصل إليهم في وزارة الداخلية».

لقد قال لها المستشار الخاص لدى رئيس الحكومة: أمر حسن جدًا *أن تنقلي هذه المعلومات المهمة عن شخص يسعى إلى الإقامة والاستقرار هنا!* كان رئيس الحكومة واقفًا خلف المستشار الخاص. غمز لمريم بعينه وقال: *بطبيعة الحال*، نحن لا نستطيع *التأثير في القرارات المتخذة*.

«وأنت... ألم تفكري في إخباري بأي شيء من هذا؟».

«قلت لي ألا أخبرك شيئًا».

«قلت لك ماذا؟».

«قلت لي ألا أخبرك. كنا في شقتك. يوم أتى جيمي إلى مكتبك».

«كنت أعني أنني لا أريد معرفة ما تعثرين عليه من معلومات عن جيمي»... تراجعت إلى الخلف خطوة... «مريم، بحق الرب، كنتُ غير راغبة في التفكير فيه أكثر من ذلك. ثم إنني كنت غير راغبة في معرفة معلومات ليس من حق أي منا أن تعرفها».

اتسعت عينا مريم دهشة واتجهت إلى غرفة المستودع كي تأتي بالسلم. صاحت بها وهي ذاهبة: «لا أحد هنا غيرنا، أنا وأنت. ما من حاجة إلى التظاهر بأي شيء». وضعت السلم على كتفها وحملته إلى الشجرة.

«التظاهر بماذا؟».

لم تدرك إلا عند ذلك أن زهرة لن تشكرها على ما فعلت، ولن تعترف بفضلها في ما فعلته من أجلهما معًا. سوف تتهمها. نظرت إلى وجهها الناطق بالغضب الشديد وادّعاء الصلاح.

أسندت السلم إلى الجدار، وعادت إلى زهرة. قالت لها: «أنت لم تتغيري، أليس كذلك؟ توَدّين حدوث أمر، لكنك غير راغبة في تحمل أية مسؤولية عن حدوثه فتحيلين الأمر كله إليّ. تلك هي زهرة القديمة، وهذه هي زهرة الآن».

قالت زهرة: «لقد تم إلقاء رجل خارج البلاد، سبعة أسابيع في مركز الاحتجاز، ثم وضعوه في طائرة وأرغموه على ترك بناته خلفه».

وكأن مريم لم تقل شيئًا! وكأن ما قالته مريم لم يكن شيئًا.

«أنا ألقي بي خارج البلاد أيضًا. وقد أمضيت في ذلك السجن الذي هو المدرسة الداخلية زمنًا أطول كثيرًا من سبعة أسابيع».

«لا أستطيع تصديق حتى إنك تقارنين بين الأمرين».

«لم تفعلي شيئًا غير وقوفك هناك، مع والديك أولًا، ثم مع مديرة المدرسة. مصغية إلى الجميع يقول إنك صديقة رائعة ويقول إنني محظوظة جدًا بأن ترعيني وتهتمي بي... أنا الغبية الأنانية غير المسؤولة».

أصابت الضربة هدفها. أحست كيف تشنجت أحشاء زهرة... «والحقيقة هي أنني لم أمانع في ذلك. لم أمانع حقًا. كنت أدرك كم يهمك أن تكوني مسؤولة في نظر الآخرين، أن تكوني الفتاة الصالحة. لو لم تصيري 'الفتاة الأولى' في المدرسة، لانتهى عالمك كله. لم أكن يومًا راغبة في فعل ما تفعلين، ولم أفهم يومًا لماذا كانت تلك الأشياء الغبية كلها مهمة في نظرك، لكنني أردت أن تحصلي على كل ما أنت مهتمة به». عاد إليها ذلك السؤال القديم... «لماذا كنت مصرة على الصعود إلى تلك السيارة؟».

أشاحت زهرة بوجهها. نظرت إلى العالم الذي في الخارج وإلى انعكاس صورتها على الزجاج في ضوء الشموع. قالت: «لا أعلم».

«يجب أن تعلمي. لقد حاولتُ العودة إلى الداخل. كان واضحًا لي أن جيمي ليس شخصًا جيدًا. وأنتِ... لم تكن لديكِ أدنى فكرة». اختلجت عضلة في وجه زهرة... «أم لعلك مدركة ذلك؟ أوه، يا ربي! أرجوك، لا تقولي لي إن نزواتك بدأت مع جيمي».

«ليس مع جيمي». رفعت شعرها عن وجهها ودفعته خلفًا ثم ثبتت بضع خصلات خلف أذنها... «بل مع حمد».

أول الأمر، ظنت مريم أن زهرة، لسبب تجهله، تتكلّم على الشهور القليلة الماضية، على صلتها الحديثة بحمد. لكن الخجل الذي ظهر على وجه زهرة جعل كل شيء واضحًا، جعله واضحًا جدًا على غير انتظار... «ألهذا صعدت إلى السيارة؟ ألهذا جرى كل ما جرى؟ ألأنك كنت راغبة في صاحبي؟».

«لم يكن صاحبك في حقيقة الأمر».

«كنت تحذرينني منه دائمًا. ظننت أن ذلك كان بدافع من صداقتنا. لقد كان شيئًا عكس الصداقة تمامًا».

ابيضّت أصابع زهرة المطبقة على كأس النبيذ. سوف تنكسر الكأس تحت هذا الضغط، إلا إذا أفلتتها. قالت: «لا. أدركت أنه شخص رديء. لكني كنت أحاول حمايتك».

الآن، أتى وقت الغضب. «تحاولين حمايتي! وأنا من ألقيتُ باللائمة كلها على جيمي، لمته على كل ما خسرت في حياتي. جيمي هو المذنب! جيمي هو من جعل جدي يتنكر لي! جيمي هو من جعل أبي وأمي يرسلانني إلى الخارج! لكنك أنت من فتحت باب تلك السيارة. أنت من جلست في تلك السيارة. كنتُ قادرة على قول لا لحمد، وكنتُ قادرة على قول لا لجيمي، لكني لم أستطع أن أقولها لك. لم أستطع قولها لأن ذلك يعني أن أتركك وحدك معهما. أنت السبب. أنت السبب في خسارتي كل شيء». لوّحت بيدها مؤكدة على *«كل شيء»* فاصطدمت بيد زهرة. قوس من النبيذ انبثق في الهواء وتحطمت الكأس على الأرض. رفعت وولف رأسها ونبحت.

قامت مريم كي تهدّئ الكلبة. في حين أسرعت زهرة إلى المطبخ كي تبحث عن معدات التنظيف وتضيء المصابيح التي في السقف حتى تستطيع رؤية الشظايا التي في الأرض. مضت مريم من شمعة إلى شمعة،

أطفأتها كلها. منحَها هذا وقتًا قبل أن تعود للنظر إلى زهرة من جديد.
عندما عادت مريم إلى مسرح الجريمة، رأت على الأرض مناديل ورقية مشبعة بالنبيذ. أشارت لها يد زهرة بأن تظل بعيدة عن المنطقة التي لا تزال شظايا الزجاج موجودة فيها. أشارت يد زهرة إلى السقف حيث استقرت بضع قطرات من النبيذ. أتت مريم بالسلم من جديد. تسلقته حتى أعلاه ورشت بقع النبيذ برذاذ من زجاجة ناولتها لها زهرة. مسحت بقع النبيذ. كان الزجاج في مجرفة الكناسة لامعًا كأنه قطع من ماس.

مزيد من العمل من أجل وضع شظايا الزجاج في كيس، ثم وضع الكيس في كيس آخر، ثم في كيس ثالث، ثم رمي المناديل الورقية وجمع ذلك كله في سلة القمامة قبل وضعها على مقربة من السلم حتى تتذكر إخراجها في الصباح. جرى هذا كله في صمت تام. ثم سكبت مريم نبيذًا في كأس جديدة ودفعت بها على طاولة المطبخ في اتجاه زهرة. ذهبت إلى شجرة عيد الميلاد فتناولت كأسها التي وضعتها على الأرض. شربتا ونظرت كل منهما إلى الأخرى أول مرة بعد تحطم الكأس... بينهما مسافة أقدام كثيرة.

قالت زهرة: «أنت لا تدركين الأمر حقًا. هناك شخص واحد جعل والدَيك يرسلانك خارج البلاد. إنه أنت. إنه مريم. أردتِ تكليف شخص بلطجي بأن يؤذي جيمي... لست أدري كيف... يكسر ساقيه؟ أم أسوأ من هذا؟».

«لا! لم أرِد أن يمسَّه بيلو بأي سوء. هو لم يمسَّنا بسوء. أردت أن يخاف. أردت أن يتخيل كل الأشياء التي يمكن أن يفعلها به بيلو».

«أشياء مثل ماذا؟ تعذيب؟ قتل؟ اغتصاب؟ يكون وحشًا من يريد جعل واحد من الناس يتخيل هذا كله. لا بد أن أمك وأبيك قد رأياك وحشًا. هذا ما جعلهما يريدان إبعادك عن مكان تستطيعين فيه الاستعانة بأشخاص مثل بيلو».

ضغطت مريم بيدها على بطنها. قالت: «لديك هذه الفكرة عني طيلة تلك السنين كلها، لديك هذا الاعتقاد بأنني وحش».

«هل قالت لك ليلى يومًا، في أول أيامكما معًا، عندما اكتشفت أول

مرة ذلك الجانب فيك، ذلك الجانب القادر على إطفاء حلم واعتبار ذلك ربحًا... جاءت إليّ وقالت، هل أخسر نفسي تمامًا إذا سمحت لهذا بأن يستمر؟».

«دعي ليلى خارج هذا الحديث». كان النور ساطعًا في الغرفة بعد إضاءة المصابيح كلها، كان ساطعًا جدًا. بكعب حذائها، ضغطت على مفتاح فانطفأت مصابيح شجرة عيد الميلاد.

«جزء مني أراد أن يجيبها بنعم. كان ذلك الجزء صديقة ليلى. لكني قلت لا. قلتها لأنني صديقتك. ظننت أنها تستطيع ضبط الوحش وإبقاءه هادئًا... بل ربما تستطيع التخلص منه».

«لا تقولي لي الآن إنك نادمة على ذلك. أنا وهي سعيدتان بأشكال لن تدركيها أبدًا». كان سهلًا على كل منهما، بل سهلٌ جدًا، أن تجرح الأخرى. تعرفان الأماكن الضعيفة، وتعرفان مواضع الشقوق في الدروع الواقية... تعرفان مدى هشاشة ما تحتها.

«بأي ثمن؟». عبرت زهرة الغرفة إلى الخزانة التي كانت المنحوتات معروضة فيها. حملت المنحوتة العارية، رفعتها بين يديها. «ماذا أصاب المرأة التي صنعت هذه. لقد كانت شعلة نور عندما التقيتها». أعادت التمثال إلى مكانه، لكنها أدارته حتى صار ما كان مكشوفًا خفيًا عن الأنظار. لم يبق ظاهرًا غير الشعر الطويل المربوط والظهر والذراعان. «لقد استسلمتْ، كفّت عن المقاومة. هذا ما جعلتِها تفعله. هذا ما فعلتِه بها». أشارت إلى شجرة عيد الميلاد المطفأة مصابيحها... «لقد أطفأتِ نورها».

إذًا، هي الحرب. «إن كنتُ وحشًا، فماذا أنت إذًا؟ أأنت الربة الطاهرة التي تترك وحشها يهاجم من يزعجونها؟».

«أوه، ماذا بك؟ هل أنت مستمرة حقًا في الزعم بأنني أردت منك أن تستهدفي جيمي؟».

«فلماذا إذًا اتصلت بي وقلت لي تلك الأمور كلها. اسمه نجم حسين، وهو يقدم طلبًا للإقامة الدائمة في بريطانيا. أتى من الخليج. أعطيتني

معلوماته الكاملة. قبلها كنت قد أخبرتني عن عزام الذي قرروا إبعاده بسبب 'سوء الطبع والسلوك'. قلت لي إن وزارة الداخلية مستعدة للتخلص من أي شخص إن توفرت ذريعة لذلك، مهما تكن ذريعة واهية».

ضحكت زهرة. كانت ضحكتها زائفة. كيف لهما بعد الآن أن تضحكا على نكتة بينهما؟ قالت: «إن لم أتصل بك، فبمن أتصل. لقد كنت الشخص الوحيد الموجود. الشخص الوحيد الذي أعرفه».

«كنتُ الشخص الذي يعرفك. الشخص الوحيد الذي يعرف المعاني الخفية في كلماتك. أعرف تلك المواضع المظلمة كلها. المواضع التي تبذلين فيها غاية الجهد كي تظل خفية عن الجميع، وربما حتى عن نفسك، بل ربما عن نفسك خاصة. تبذلين جهدًا كبيرًا كي تكوني شخصًا صالحًا، يا زهرة. لم أر شخصًا يبذل هذا الجهد كله في المحاولة».

«ماذا تريدين أن أحاول غير ذلك؟». حتى الآن، جاءت نبرة صوتها متعالية.

«ليس عليّ أن أحاول كثيرًا. انظري إلى ليلى. هل تحاول؟ لا. ما لديها جزء من طبيعتها... كريمة، لطيفة، محبة. تنظرين إلى ذلك وتسمينه استسلامًا لأنه بعيد كبُعد المجرات عن طبيعتك، بعيد إلى حد يجعلك غير قادرة حتى على رؤيته».

«كفّي عن هذا».

سارت مقتربة من زهرة كأنها تهاجمها.

«تحاولين أن تكوني صالحة، وتفشلين. ثمة دائمًا زهرة الأخرى المختبئة داخلك. زهرة التي لا يعجبها أي فتى إلا إذا رأته معجبًا بي. زهرة التي جعلتْني أجلس في تلك السيارة، ثم وقفتْ هناك بريئة في حين راح الجميع يقول إنني محظوظة جدًا لأن لي صديقة مثلها. زهرة التي لم تكن راغبة في تلقّي الحب من رجل إن استطاعت أن تحصل على ما تريد من خداع وأكاذيب وسرية. زهرة التي تضع من حول رأسها هالة كي ننظر جميعًا إلى تألق وجهها من غير...». توقفت عن الكلام غير عارفة كيف

تنهي جملتها الأخيرة فرأت زهرة منتبهة إلى ترددها، رأت زهرة تقول في نفسها إنها لا يمكن أبدًا أن تبدأ جملة لا تعرف كيف تنهيها... «من غير أن ننتبه إلى الظلمة داخلك. لا بأس. أنا أراك».

«أنت ترين جزءًا مني». بدا ذلك كأنه اعتراف مما يعني أنه كان استعدادًا للهجوم... «ثمة أجزاء أخرى لا ترينها لأن -سمعت قبل قليل جملة معبّرة- مجرّات كثيرة تفصلك عنها فتعجزين عن رؤيتها».

«هل تريدين الكلام عن اعتقادك الراسخ بالعدالة والديمقراطية وبالشخصية الأخلاقية للأمة؟ هل تريد زهرة الصالحة أن نراها؟».

تقدمت زهرة خطوة. الآن، صارت المسافة بينهما صغيرة جدًا. قالت لمريم: «منذ وقت ليس بعيدًا قلتِ لي إن جيمي كان أشد ما مررت به في حياتك رعبًا. لم يكن ذلك أشد الأشياء رعبًا حتى في تلك السنة. كنت أظن أن أحدًا سيأتي ويأخذ أبي بعيدًا ويرميه في السجن أو يجلده مربوطًا إلى عمود. أخبرتك بأمر ذلك العميد الذي زارنا، لكني لم أقل لك كيف كان إحساسي، أليس هذا غريبًا؟ تقول الواحدة منا للأخرى أمورًا كثيرة جدًا... لكن، لا بد أنني كنت أعرف، حتى في ذلك الوقت، أنك لن تفهمي الأمر. في عالمك، اعتقال رجل بتهمة تهريب المخدرات معضلة اجتماعية. كنت تعيشين كأنّ العالم الذي نحن فيه لا يمسّك أبدًا. لا فكرة لديك أبدًا عن الذعر المطلق الذي يتركه العجز وانعدام الحَوْل». رفعت يدها. أتتها فكرة جديدة... «جيمي وحده جعلك تحسين ذلك. ولهذا، كرهتِ جيمي. لكن، ها هو الفرق بيننا: إحساسي بذلك العجز جعلني أفكر وأقول إنني لا أريد أن يكون هذا موجودًا في العالم. لا أريده، لا يجوز أن يعرف أي إنسان ذلك النوع من الذعر. وأما أنت، فقد جعلك تفكرين وتقولين في نفسك: لا أريد أن أكون من يصيبها الذعر، بل من تلقي به في قلوب الناس».

وضعت مريم كأسها على الأرض حتى تصفّق لزهرة. كانت الموسيقى قد توقفت منذ حين، فتردّد صدى تصفيقها في الغرفة وجعل وولف تنهض من فراشها وتأتي كي ترى ما يجري. «أعترف، يا سيدتي المحامية، بأن

مرافعتك كانت رائعة. وأنا واثقة من أن هيئة المحلّفين ستقتنع بها». انحنت إلى الأمام وانخفض صوتها... «هذا لأن هيئة المحلّفين لا تعرفك جيدًا. هل تستطيعين تذكر شعورك عندما كان جيمي جالسًا في مكتبك؟ هل تتذكرين كيف كان شعورك في تلك السيارة؟ هذا ما أتيتني به... هذا ما أتيت به إلى وحشك المخلص في 'المجلس الأعلى' عندما قلت له: نجم حسين، مهندس، تقدم للحصول على حق الإقامة الدائمة». تعبير جديد ظهر على وجه زهرة: بدت غير واثقة. ثم صار وجهها شاحبًا جدًا.

قالت مريم في نفسها، واحدة منا ستضرب الأخرى. واحدة منا. كلتانا. وسوف نحاول أن نجعل الضرب مؤلمًا. بعد ذلك، سيكون عليَّ أن أشرح الأمر لليلى.

«سوف آخذ وولف إلى الخارج». قالت هذا واستندت إلى ظهر مقعدها بحيث ازدادت المسافة بينهما. ضربت كفها بفخذها، ففهمت وولف الإشارة وتبعتها عبر غرفة المعيشة ثم صعدت السلم خلفها.

كانت ليلة قارسة البرد، سماؤها صافية بالقدر الكافي لظهور النجوم. سمعت الأصوات آتية من منطقة هيث، الكلام والغناء منبعثين من الناس المحتشدين الذين يدفئون أنفسهم بالكحول. كان الضجيج ملء رأسها... اتهامات واتهامات مضادة تتردّد أصداؤها. صاحت: متكبرة *لعينة!* فالتفتت المرأة السائرة أمامها وعبرت الطريق إلى الجهة الأخرى. سارت مع وولف حتى مدخل الحديقة القريب فصارت على مسافة بعيدة عن التلة ولم يعد هنا غير الذاهبين كي يتخذوا مواقع لهم في الأعلى حيث يتمكنون من رؤية أضواء لندن في الأفق من خلف النهر الذي يبدو ثعبانًا أسود في الليل. في ما مضى، كانت وولف تحب السير عبر الحديقة، وكان لا بد من الإبقاء على رسنها في تلك النزهات الليلية. لكنها صارت الآن عجوزًا تكتفي بأن تطأ قوائمها الأربع عشب الحديقة قبل أن تثني قائمتيها الخلفتين وتفرغ مثانتها، ثم تستدير كي تعود أدراجها.

داعبت مريم فراء ظهر الكلبة وهما عائدتان صوب البيت، «لماذا ليلى

ليست هنا؟ أنا لست وحشًا. هل أنا وحش يا وولف؟». رفعت الكلبة رأسها عندما سمعت اسمها. نظرت إليها، وأطلقت صوتًا مواسيًا. بدت لها المسافة إلى البيت طويلة جدًا. بردت مريم، وتعبت. صارت كل عضلة من عضلاتها مشدودة متوترة، وباتت غير قادرة على أن تخوض جولة جديدة مع زهرة. ارتعدت، فظاعة! يا إلهي، كان ذلك فظيعًا! لقد كانتا فظيعتين... كلتاهما.

لم تجد زهرة عندما وصلت البيت ودخلت غرفة المعيشة. لم تدر إن كان ما أحسته عند ذلك حزنًا أم ارتياحًا. ثم رأت خيالًا يتحرك في الخارج. زهرة في الحديقة تتكلم في الهاتف. لقد أطفأت الفرن، بالطبع؛ ما من دراما يمكن أن تجعل زهرة تترك البرياني يحترق. هذا ما جعل مريم تبتسم. ثمة طريق للعودة. لا بد أن تكون هناك طريق للعودة. سوف تعثران عليها. أخرجت البرياني من الفرن، ونزعت الورق المعدني عن سطح الوعاء. ممتاز.

انفتح الباب فاندفعت برودة الطقس الخارجي ثم دخلت زهرة. تعبير وجهها غير مقروء.

«مع من كنت تتكلمين؟».

«رئيس مجلس إدارة مركز الحريات المدنية».

«في هذه الساعة من ليلة رأس السنة، ما السبب؟».

حملت البرياني إلى الطاولة. صار جاهزًا. كان اللبن الرائب مع الخيار جاهزًا أيضًا في إناء من الفخّار.

سارت زهرة حتى الطاولة الصغيرة التي يفطرون عليها. بلغت وسط حيّز المعيشة الذي كانت طاولة الطعام في نهايته وباب الحديقة في نهايته الأخرى. ضغطت بإصبعها على بقعة نبيذ حمراء فاتتهما رؤيتها في التنظيف الأول. كانت شاردة الذهن. مسحت إصبعها بكم قميصها الحريري الأبيض. «أتى رجل إلى مكتب مركز الحريات المدنية يطلب المساعدة في قضيته، فنقلتُ معلوماته الشخصية إلى شخص جعلهم

يرحّلونه من البلاد. كانت عندي ضغينة قديمة إزاء ذلك الرجل. وقد قدمت المعلومات إلى شخص يشاركني تلك المشاعر، لكنه من غير أخلاق وله صلات مع أشخاص نافذين في الحكومة. الظاهر أن من المحتمل أن أكون قد تصرّفت هكذا عارفة تمام المعرفة ما سيفعله ذلك الشخص. على أية حال، تم فصل رجل عن أسرته وإبعاده عن حياته لأنني خنت ثقة العملاء. أنا لست صالحة لإدارة مركز الحريات المدنية».

«لا تكوني سخيفة. لا يعرف أحد غيرنا بما جرى. ولن يعرفه أحد غيرنا».

«جيمي يعلم. ليس على علم بتلك التفاصيل كلها، لكن بداية الأمر كانت عندي، ونهايته كانت عند وزارة الداخلية. هذا ما يعلمه جيدًا. لا يستلزم الأمر أكثر من مكالمة واحدة مع حمد حتى يستطيع استكمال الأجزاء الناقصة من القصة كلها – مريم خان، سفيرة الأعمال العالمية لدى رئيس الحكومة».

«كفّي عن هذه التخيلات المجنونة. ليس هناك أدنى دليل. في العالم كله، من سيلتفت إلى نظريات المؤامرة التي قد يطرحها جيمي وحمد».

«تعتقدين بأن ما يهم هو أن يفلت المرء بفعلته، وليس شيء آخر».

«فهمت. تريدين أن تبرهني على أنك مختلفة». حرصتْ على إبقاء نبرة صوتها خفيفة لأنها كانت مصممة على عدم الانجرار إلى عراك جديد... «أنت لا تثبتين هذا لأنك لم تقولي حقًا أي شيء من ذلك كله. لم تقولي شيئًا لرئيس مجلس الإدارة. إذا أردت الاعتراف، فعليك أن تجدي قسًّا ـ أنا واثقة من أن الكنيسة الكاثوليكية ستستقبلك، بل سيستقبلك الجميع لأنك كنز وطني. الآن، تعالي وكلي. شربُ النبيذ على معدة فارغة ليس حسنًا لأي شيء».

«لم أكن أعترف له. لقد قدمت استقالتي».

كانت ليلة مليئة بالمفرقعات الصغيرة، لكن مريم لم تتخيل قبل ذلك أن هناك مفتاحًا لتدمير الذات.

«لن يقبلوا استقالتك».

«لقد عرّضتُ سمعة المنظمة إلى خطر غير مقبول. تم قبول استقالتي. انتهى الأمر». تجهَّم وجه زهرة بعد هذا. وبالنبرة نفسها التي تساءلت بها من قبل عن عدد أعواد القرفة السوداء وعدد أعواد القرفة الخضراء التي ينبغي أن تضعها مع البرياني، أضافت: «ماذا أفعل الآن؟».

«زهرة!».

استندت زهرة إلى الطاولة الصغيرة. كانت شاحبة جدًا. قالت: «أوه، يا ربي!».

أسرعت مريم إليها. أمسكت معصمها. قالت: «سنصلح الأمر، وسيكون كل شيء على ما يرام».

انحنت زهرة فمسَّت وجنتها وجنة مريم. طوقتها مريم بذراعيها وأحست براحة قربهما، أحست بالحقيقة الثابتة بينهما، حقيقة صداقتهما القادرة على الصمود في مواجهة كل ما يمكن أن يقذفهما العالم به، عبر كل ما يمكن أن تقذف إحداهن الأخرى به.

همست زهرة في أذن مريم: «جزء مني كان يكرهك دائمًا».

ابتعدت، وسارت عبر غرفة المعيشة. توقفت عند السلم. ركعت على ركبة واحدة وضمت وجه وولف بين يديها. داعبت أذني الكلبة فأطلقت وولف صوتًا كالعويل، كله حزن.

بعد ذلك، نهضت زهرة واقفة وصعدت السلم مشدودة الظهر. عندما وصلت إلى أعلاه، تناولت معطفها المعلق هناك فرأت مريم كيف تهدَّلت كتفاها. كان كل شيء واضحًا في ذلك التهدل... الخزي الذي ينتظرها، والأيام الفارغة، والليالي الممتلئة عارًا، وانتهاء حياة كاملة خططتها لنفسها بكل حرص.

نادتها: «زهرة!». لكن زهرة لم تلتفت. فتحت الباب وخرجت، خرجت إلى حيث صخب المحتفلين.

انطلقت رنَّة الهاتف المرحة. إنها ليلى تتصل كي ترى كيف تسير الأمسية

هنا. تصغي الآن إلى رنين الهاتف وتتخيل زهرة ومريم جالستين ترتشفان النبيذ وتضحكان وتتبادلان أقاصيص الطفولة... الوجبة التي عملتا معًا على إعدادها، تنتظر التهامها. وزينات شجرة عيد الميلاد مرفوعة جانبًا إلى أن تُعلق في المرة القادمة من أجل عيد ميلاد آخر يجمعهم معًا ويكون مثل عيد الميلاد الماضي، ومثل عيد الميلاد الذي من قبل. تركت مريم الهاتف يرن ويرن، مرفقاها على الطاولة الصغيرة ورأسها بين يديها. وحش.

مكتبة ياسمين على تلجرام

لندن

ربيـع 2020

الأشجار اكتست خضرة وارفة من جديد، والكلاب تلعب كأن هذا ربيع آخر مثل كل ربيع. بشر يسيرون ماضون إلى غاياتهم، يحيد الواحد منهم قليلًا عن طريق الآخر ويومئ برأسه شاكرًا لطفه. بعض الناس لا يرى في الكلاب خطرًا فتمتد إليها أيادٍ كثيرة عند مرورها بها أملًا في لمسة من فرائها الناعم. ندرةُ اللمسات. امرأة طويلة القامة سائرة بخطا سريعة في الدرب التي تقطع الحديقة من الشمال إلى الجنوب. وامرأة أقصر منها، خطواتها أكثر بطئًا سائرة على الدرب التي تقطع الحديقة من الشرق إلى الغرب. وصلتا في اللحظة نفسها إلى حيث تلتقي الدربان.

انقضت شهور منذ آخر لقاء بينهما، لكن أيًا منهما لم تنظر إلى الأخرى. لقد وصلت الدرب العابرة من الشرق إلى الغرب نهايتها، وما كان ممكنًا للمرأة السائرة عليها غير أن تنعطف على الدرب من الشمال إلى الجنوب. تنحّت الأولى، ثم الثانية، عن الدرب فصارتا على العشب والدرب بينهما. الآن، صار ممكنًا أن تسيرا جنبًا إلى جنب مع بقائهما متباعدتين. هكذا سارتا، عبر الحديقة، وعبر الشارع، وعلى امتداد سور حديقة الحيوان حيث كانت حظيرة الزرافات مقفلة، ثم عبر ريجنت بارك.

عويل سيارات الإسعاف، وغيوم تحجب الشمس، وملاعب الكريكيت المهجورة. سقطت طفلة فجرحت ركبتها. راحت أمها ترجو العابرين ألّا يتوقفوا، ألّا يمدوا يد المساعدة. سارت المرأتان، وظلتا تسيران. خرجتا من الحديقة، وعبرتا بارك كريسنت، ثم سارتا في خواء شارع ريجنت، ثم مرَّتا بتمثال إيروس حيث يتبادل عاشقان قبلةً، متمردَين على كل شي، محتفيين بكل شيء. سارتا بعد ذلك صوب الأسود البرونزية في ساحة ترافلغار، وسوف تواصلان السير من بعدها حتى تتجاوزا النهر نفسه. عندها، ربما تستديران وتعودان، ربما، وربما لا تستديران. طيلة الوقت، كانتا تنظران أمامهما، ولا تتكلمان. ما من شيء للقول، وما من مكان آخر للوجود.

شكر

أشكر ألكساندرا برينغل لما كان لها من سحر على امتداد عشرين سنة مضت.

فكتوريا هوبز، وفايزا سين خان، وريبيكا ساليتان، وكل من يعملون في بلومزبري وريفرهيد وأ. م. هيث ممن لعبوا أدوارًا في حياة هذا الكتاب.

لين أكاشي، وتاهميما أنام، وتريز تشي هادي، وأسد حيدر، وسوزي هانسن، ومها خان فيلبس، وزين مصطفى، وديرموت أوفلين، وآنا بنكوس، وإليزابيث بورتو، وغيليان سلوفو، وبام ثومبسون والكاتبة التي في كراتشي.

وأصدقاء طفولتي كلهم.